وصف الدور الثلاثة

من تفسير ابن كثير

الدنيا: دار الغرور
النار: دار الشرور
الجنة: دار السرور

جمع وترتيب
أبي ذر القلموني

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
(هود: ٢٩)

المكتبة التوفيقية

وصف الدور الثلاثة

من تفسير ابن كثير

الدنيا : دار الغرور
النار : دار الثبور
الجنة : دار السرور

جمع وترتيب

أبي ذر القلموني

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)
(هود : ٢٩)



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

المكتبة التوفيقية

القاهرة – مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر – سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ – ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt
Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel. : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ _ ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

إن الحمـد لله نحمده، ونستـعينه ونستـغفره، ونعوذ بالله من شـرور أنفسنا ومن سـيئـات أعمالـنا، مَنْ يهده الله فـلا مضل له، ومن يضلل فـلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالـى، وخير الهدى هدى محمد -ﷺ-، وكلَّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

«اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك».

«اللهم إنا نسألك الثبات فى الأمر، ونسألك العزيمة على الرشد، ونسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، ونسألك لسانًا صادقًا وقلبًا سليمًا، ونعوذ بك من شر ما تعلم، ونسألك من خير ما تعلم، ونستغفرك مما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

«اللهم اغفر لنا، وارحمنا، واهدنا وعافنا، وارزقنا».

«اللهم اجعل حُبَّكَ أحبَّ الأشياء إلينا، وخشيتك أخوف الأشياء عندنا، واقطع عنا حاجة الدنيا بالشوق إلى لقائك، فإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم فأقرر أعيننا من عبادتك».

«اللهم إنا نسألك الخير كله عاجله وآجله، ما علمنا منه وما لم نعلم، ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمنا منه وما لم نعلم. اللهم إنَّا نسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد -ﷺ-، ونعوذ بك من شرِّ ما استعاذ بك منه عبدك ونبيك محمد -ﷺ-. اللهم إنَّا نسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل، ونسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لنا خيرًا» آمين... وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه:

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

قال ابن كثير رحمه الله وجعل الجنة مثواه:

يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ أي: ييسِّره له وينشطه ويسهِّله لذلك. فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧]، وقال ابن عباس: معناه: يوسِّع قلبه للتوحيد والإيمان به، وهو طاهر. سئل رسول الله -ﷺ-: «أيُّ

المؤمنين أكيس؟ قـال: أكثرهم ذكرًا للمـوت وأكثرهم لما بعده اسـتعدادًا»، وسُئل عن هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ قالوا: كـيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «نور يُقذف فيه فـينشرح له وينفسح»، قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعـرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعـداد للموت قبل لقاء الموت»[1]. وعن عبد الله بن مسعود قال: تلا رسـول الله -ﷺ- هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ قالوا: يا رسول الله مـا هذا الشرح؟ قال: «نور يُقْذَف به فى القلب»، قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة تُعرف؟ قال: «نعم»، قالوا: وما هي؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتـجافى عن دار الغرور، والاستعـداد للموت قبل الموت»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥] حرجًـا، بفتح الحاء والراء، وهو الذى لا يتـسع لشىء، من الهدى، ولا يخلص إليه شىء من الإيمان ولا ينفـذ فيه. وقد سأل عـمر بن الخطاب -رضي الله عنه- رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مـدلجة عن (الحرجة) فقـال: هى الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إلـيه راعية ولا وحشـية ولا شىء. فقال عـمر -رضي الله عنه-: كذلك قلب المنافق لا يصل إليـه شىء من الخـير. وقـال ابن عبـاس: يجعل الله عليـه الإسلام ضيقًـا والإسلام واسع، وذلك حين يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، يقـول: ماجـعل عليكم فى الإسـلام من ضيق. وقـال مجـاهد والسدى: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شاكـًا، وقال عطاء الخـراسانى: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أى ليس للخير فيه منفذ. وقال ابن المبارك: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بلا إله إلا الله حتى لا تستطيع أن تدخل قلبه، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ من شدة ذلك عليه، وقال سعيد بن جبير: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ لا يجد فيه مسلكًا إلا صعد، وقـال عطاء الخراسانى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: مثلـه كمثل الذى لا يستطيـع أن يصعد إلى السـماء. وقال ابن عـباس: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي

(١) رواه عبد الرازق، وابن جرير بنحوه، وأخرجه ابن أبى حاتم كما فى الرواية الأخرى.
(٢) رواه ابن أبى حاتم، قال ابن كثير، ولهذا الحديث طرق مرسلة ومتصلة يشدُّ بعضها بعضًا.

السماء﴾ يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله فى قلبه، وقال الأوزاعى: كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقًا أن يكون مسلمًا، وقال ابن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر فى شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه يقول: فمثله فى امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه وطاقته، وقال فى قوله: ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقًا حرجًا كذلك يسلِّط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله، وقال ابن عباس: ﴿ الرِّجْسَ ﴾ الشيطان، وقال مجاهد: ﴿ الرِّجْسَ ﴾ كل ما لا خير فيه.

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٦، ١٢٧].

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادِّين عنها، نبَّه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال تعالى: ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ أى: هذا الدين الذى شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم، كما تقدَّم فى الحديث فى نعت القرآن: «**هو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم**»(١).

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ ﴾ أى: وضَّحناها وبينَّاها وفسَّرناها ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى: لمن له فهم ووعى يعقل عن الله ورسوله، ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ ﴾ وهى الجنة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى: يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفى أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام، ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أى: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى: جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه. انتهى من ابن كثير.

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن على كرَّم الله وجهه، وهو حديث طويل.

الدور الثلاثة:

جاء في مقدمة كتاب (زاد المعاد) لابن القيم رحمه الله ما مختصره:

«. . . فالله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار فجعل الدور ثلاثة: داراً أخلصت للطيبين، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل طيب وهي الجنة. وداراً أُخلصت للخبيث والخبائث ولا يدخلها إلى الخبيثون، وهي النار. وداراً امتزج فيها الطيب والخبيث، وخلط بينهما، وهي هذه الدار، ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلهية، فإذاكان يوم معاد الخليقة ميَّز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدةلا يخالطهم غيرهم، فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة وهي دار الطيبين، والنار وهي دار الخبيثين، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم. . . والمقصود أن الله سبحانه وتعالى جعل للسعادة والشقاوة عنوانًا يعرفان به، فالسعيد الطيب لا يليق به إلا طيب، ولا يأتي إلا طيبًا، ولا يصدر منه إلا طيب، ولا يُلابس إلا طيبًا، والشقي الخبيث لا يليق به إلا الخبيث، ولا يأتي إلا خبيثًا ولا يصدر منه إلا الخبيث، فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه، والطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه، وقد يكون في الشخص مادتان فأيهما غلب عليه كان من أهلها، فإن أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة، فيُوافيه يوم القيامة مطهراً. فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار، فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفِّرة، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة، ويمسك عن الآخر مواد التطهير فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة ومادة طيبة، وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد في داره بخبائثه فيدخله النار طهرة له وتصفية وسبكًا، فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث صلح حينئذ لجواره ومساكنة الطيبين من عباده، وإقامة هذا النوع من الناس في النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها، فأسرعهم زوالاً وتطهيراً أسرعهم خروجًا، وأبطؤهم أبطؤهم خروجًا، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

ولما كان المشرك خبيث العنصر، خبيث الذات، لم تطهر النار خبيثه بل لو خرج منها لعاد خبيثًا كما كان، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه، فلذلك حرَّم الله تعالى على المشرك الجنة. ولما كان المؤمن الطيب المطيَّب مبرَّءًا من الخبائث كانت النار حرامًا عليه، إذ ليس فيه ما يقتضى تطهيره بها، فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب، وشهدت فِطر عباده وعقولهم بأنه أحكم الحاكمين، وربُّ العالمين، لا إله إلا هو» انتهى من زاد المعاد.

قل إن الفضل كله لله:

يرجع الفضل فى فكرة هذا الكتاب لله وحده، ثم لما قرأته من المقدمة السالفة الذكر لابن القيم رحمه الله تعالى، فيها أن الله تعالى جعل (الدور ثلاثة)، فلما قرأت هاتين الكلمتين، دعوت الله أن ييسر لى كتابًا أجمع فيه الكلام عن هذه الدور الثلاثة (الدنيا ـ والنار ـ والجنة) حيث أن معظم الكتب التى قد أُلِّفتْ فى هذا الشأن ـ حسب ما أعلم ـ منها من أفرد الكلام عن الدنيا[1]، ومنها من أفرد الكلام عن النار، ومنها من أفرد الكلام عن الجنة، وكأن الله تعالى أراد بذلك إثابة الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى لا على أيدى العلماء فحسب، فإن كتاب تفسير القرآن العظيم لابن كثير لا تكاد تخلو منه مكتبة عالم تقريبًا، ولكن الله تعالى أراد إثابته أيضًا على أيدى عامة المسلمين، والله وحده يعلم مدى حبى للعلماء العاملين، خاصة الإمام ابن كثير رحمه الله، والذى أحسبه ـ ولا أزكى على الله أحدًا ـ من الذين جعل الله لهم لسان صدق فى الآخرين، أى: ذكرًا جميلاً بعد موته ويُقْتَدى به فى الخير، حتى إنه قد اشتهر بين العلماء أن (التفسير هو ابن كثير) ولقد بلغ من حبى لابن كثير رحمه الله أننى كنت أتوسل إلى الله تعالى بحبى له فى الله، والله يعلم أنه ما طلعت شمس يوم إلا ودعوت الله لكل المسلمين، حيِّهم وميتهم، وشاهدهم وغائبهم، وصغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، أدعو لصالحيهم بأن يحشرنى الله معهم، ولمذنبيهم بأن يتوب الله علىَّ وعليهم، ولعلمائهم بالعمل، ولنسائهم بالستر والعفاف، أدعو لى ولهم

(١) إن وُجِدَ كتابٌ فى وصف هذه الدار.

يقول: «اللهم إنى أسـألك من خير ما سـألك منه عبدك ونبيك مـحمد -ﷺ-، وأعوذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك ونبيك محمد -ﷺ-».

وإنى لأضع دائما أمامى هذه الحكمة البالغـة ليحيى بن معاذ الرازى: ليكن حظُّ المؤمن منك ثلاثة: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تُفرحْه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

فالدعاء بظهر الغيب، وكفُّ الأذى عن المسلم، وإلقاء السلام، من أقوى ما يحبب المسلم إلى أخيه.

قال مجاهد: بلغنى أنه إذا تراءى المتحـابان (أى: فى الله) فضحك أحدهما إلى الآخر وتصافحا تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر، فقيل له: إن هذا ليسيرٌ من العمل، قال: تقولون يسير والله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

وإنه مما يقوى حب المسلم لأخيـه عمله بقول الرسول-ﷺ-: **«لا تحاسدوا ولا تناجشـوا ولاتباغضـوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بـيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولايخذله ولايحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امـرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»** رواه مسلم.

قال ابن رجب الحـنبلى فى كتابه (جـامع العلوم والحكم): «لا تناجـشوا: وهو ألا يزيد فى السلعة من لا يريد شـراءها، لا تدابروا: قال أبو عبيـد: التدابر المصارمة والهجران، مأخوذ من أن يولى الرجـل صاحبه دبره ويعرض عنه بوجهه وهو التقاطع.. وقـال رحمه الله وقوله -ﷺ-: «وكونوا عباد الله إخوانًا»: هذا إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتناجش والتباغُض والتدابر وبيع بعضهم على بعض كانوا إخوانًا، وفيه أمر باكتساب ما يصير به المسلمون إخوانًا على الإطلاق، وذلك يدخل فيه أداء حـقوق المسلم على المسلم من ردِّ السلام وتشـميت العاطس وعيادة المريض وتشييع الجنازة وإجـابة الدعوة والابتداء بالسلام عند اللقاء والنصح بالغيب..» انتهى.

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: **«ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حبًا لصاحبه»** رواه الطبرانى وأبو يعلى.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِين**﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أى كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب عداوة إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه. قال ابن عباس ومجاهد: صارت كل خلَّة عداوة يوم القيامة إلا المتقين. وروى الحافظ ابن عساكر عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: **«لو أن رجُلَيْن تحابَّا فى الله أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة، فيقول هذا الذى أحببته فيَّ»** انتهى.

وإن هذه الأخوة الصادقة لا تنشأ إلا من بيوت الله تعالى، لا تنشأ إلا من صلاة الجماعة، لا تنشأ إلا بالركوع مع الراكعين، تحب أخاك فى الله لا لمال ولا لجاه ولا لدفع ضر ولا لأى غرض آخر، وكما قيل: ما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل. قد يقول قائل: ما علاقة هذا الكلام بموضوع الكتاب؟ كان ينبغى لك أن تكثر الكلام عن الدنيا وعن النار وعن الجنة؟ إننى أقول لك أيها الأخ المسلم: إن هؤلاء الذين تحققت فيهم تلك الصفات هم الزهاد فى الدنيا حقيقة، هؤلاء هم الذين يزحزحهم الله عن النار، هؤلاء هم سكان الجنة، إن هؤلاء هم الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، يقول الرسول -ﷺ-: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى، ورجل قلبه مُعلَّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إنى أخاف الله تعالى، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»** رواه البخارى.

إننى بهذا أدلك على طريق من أقصر الطرق الموصلة إلى الجنة، يقول رسول الله -ﷺ-: **«إن رجلاً زار أخًا له فى الله، فأرصد الله له ملكًا فقال: أين**

تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلانًا، فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا، قال: لقرابة بينك وبينه؟ قال: لا، قال: فبنعمة لك عنده؟ قال: لا، قال: فَبِمَ؟ قال: أحبه في الله، قال: فإن الله أرسلني إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه، وقد أوجب لك الجنة» رواه مسلم.

وأعود إلى بيت القصيد.. وكأن الله تعالى قد استجاب لدعائى فقمت واستخرت الله تعالى على المرجع الذى ألتقط منه كتاب (**وصف الدور الثلاثة**)، ووقع الاختيار بأمر الله تعالى على نحلة أكلت طيبًا فأخرجت طيبًا بإذن ربها، وقع الاختيار بأمر الله تعالى على تفسير القرآن العظيم لابن كثير رحمه الله تعالى، لقد كان اختيارى لتفسير ابن كثير بفضل الله تعالى لعدة أوجه: منها: أن الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى من أئمة علماء الحديث، ومن المعلوم أن الحافظ عند علماء الحديث هو من حفظ مائة ألف حديث متنًا وإسنادًا ولو بطرق متعددة، ووعى ما تحتاج إليه. ومنها: أنه رحمه الله عندما يتكلم عن الدنيا يتكلم عنها وعما يزهِّد فيها، وعندما يتكلم عن النار يتكلم عنها وعما يقرب إليها من قول أو عمل، وعندما يتكلم عن الجنة يتكلم عنها وعما يقرب إليها من قول أو عمل، يتكلم عن هذه الدور الثلاثة برقة قلب حافظ القرآن العامل به، وقوة حجة عالم الحديث، فجمع الله تعالى له بين رقة القلب ونضارة الوجه. ومنها: أنه رحمه الله قد اتبع فى تفسيره ـ كما هو مستنبط من مقدمة تفسيره العظيم ـ أفضل طرق التفسير وهى: تفسير القرآن بالقرآن، فإذا لم يجد فى القرآن ففى السنة، فإذا لم يجد فى السنة ففى قول الصحابى، فإذا لم يجد فى القرآن ولا فى السنة ولا عن الصحابى رجع إلى أقوال التابعين ـ رضي الله عنهم ـ.

وإننى لم أتجه إلى كتاب تفسير ابن كثير مباشرة عند الاختصار، بل اتجهت إلى كتاب مختصر تفسير ابن كثير للشيخ الجليل محمد على الصابونى[1]، أثابه الله تعالى، وذلك لما لمست فى هذا المختصر من السهولة واليسر، خاصة وأن الكلام عن هذه الدور الثلاثة يحتاج إلى فهمه العامىُّ قبل العالم، وإن كان العالم أكثر الناس احتياجًا للعمل بعلمه.

---

(١) الذى يعنينى هنا من مختصر تفسير ابن كثير هو جانب الاختصار فقط، أما جانب تحقيق الأحاديث فكنت أنقل من تفسير ابن كثير (أى الأصل).

طريقة الجمع والترتيب:

قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب: باب منها يتكلم عن الدنيا، وباب آخر يتكلم عن النار، وباب ثالث يتكلم عن الجنة، وإنى أرجو الله تعالى أن تلتزم هذا الترتيب عند القراءة حتى تتم الفائدة، وقد قمت بوضع عناوين للآيات بحيث يكون العنوان دالاً على أكبر معنى تدور حوله الآيات. ولقد قمت بالالتزام بترتيب سور القرن إجلالاً لترتيبها فى كتاب الله، اللهم إلا عند الكلام عن النار، فقد رتبت بين يديها الكلام عن أهوال يوم القيامة[1]، ومع ذلك راعيت هذا الترتيب عند الكلام عن هذه الأهوال، وقد كنت أحيانًا أختصر من المختصر دون أن يحدث ذلك خللاً فى المعنى أو نقصًا فى الشرح، وإنى لم أتعرض لكل الآيات التى تدور حول هذه الدورالثلاثة مخافة الإطالة من جهة، ومن جهة أخرى فإنى كنت إذا رأيت الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى قد تكلم عن آيتين متقاربتين فى المعنى فى موضعين من القرآن اكتفيت بذكر أكثرهما تفسيراً. وقد كنت أحيانًا أجد تفسير الآيات مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بحيث لا يمكن فصل الآيات الخاصة بكل دار من هذه الدور الثلاثة على حدة، فكنت أتركها كما هى، مع وضعها فى الدار التى يغلب عليها تفسير الآيات. هذا وإنى لم أضف شيئًا قط إلى ما هو موجود فى التفسير (ولا ينبغى لى ذلك) - وهى نفس طريقة المختصر - إلا فى أحوال نادرة كنت آتى فيها بفائدة، وأضعها بين هاتين العلامتين [ ].

احفظ الله يحفظك:

عن أبى العباس عبد الله بن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: «كنتُ خلف النبى -ﷺ- يومًا، فقال لي: يا غلام إنى أُعلِّمك كلمات: احفظ اللهَ يَحْفَظْكَ، احفظ الله تَجِدْهُ تجاهَك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمَّةَ لو اجتمَعَتْ على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك، وإنْ اجتمعوا على أنْ يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف» رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

---

(١) وأيضًا فى موضع واحد فى الكلام عن الجنة.

وفى رواية غير الترمذى: «**احفـظ الله تجدْه أمامك، تعرَّفْ إلى الله فى الرخاء يَعْـرِفْكَ فى الشدَّة،واعلم أنَّ مـا أخطأَك لم يكن لِيـصيبَك، وما أصـابك لم يكن لِيُخطِئَك، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يُسراً**».

جاء فى كتاب (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلى ما مختصره:

«وهذا الحديث يتـضمن وصايا عظيـمة وقواعد كليـة من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلمـاء: تدبَّرتُ هذا الحديث فأدهشنى وكدتُ أطيش، فـوا أسفًا من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه: ثم قال ابن رجب رحمه الله:

١ـ قوله -ﷺ-: «**احفظ**» يعنى: احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقـوف عند أوامره بالامتـثال، وعند نواهيـه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجـاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه، فـمن فعل ذلك فهو من الحافظـين لحدود الله الذين مـدحهم الله فى كـتابه، وقـال عز وجل: ﴿**هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ**﴾ [ق:٣٢،٣٣]، وفسر الحـفيظ هنا بالحافظ لأوامر الله وبالحافظ لذنوبه ليـتوب منها. ومن أعظم ما يجب حـفظه من أوامر الله الصلاة، وقـد أمر الله بالمحافظة عليـها فقال: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى**﴾ [البقرة:٢٣٨]، ومدح المحافظين عليها بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ [المؤمنون:٩]، وقال النبى -ﷺ-: «**من حافظ عليها كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة**»، وفى حديث آخر: «**من حافظ عليهن كُنَّ له عـند الله عهد أن يُدخله الجنة**»، وفى حديث آخر: «**مَنْ حافظ عليهن كنَّ له نوراً وبرهانًا ونجاة يوم القيامة**»، وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة، قـال النبى -ﷺ-: «**لا يحـافظ على الوضـوء إلا مـؤمن**»، ومما يؤمر بحفظه الأيمان، قال الله عز جل: ﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ [المائدة:٨٩]، فإن الأيمان يقع الناس فيها كثيراً ويهمل كثـير منهم ما يجب بها فلا يحفظه ولا يلتزمه، ومن ذلك حفظ الرأس والبطن، كما فى حـديث ابن مسعود المرفوع: «**الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى**» خرَّجه الإمام احمد والترمذى. وحفظ الرأس ومـا وعى يدخل فيه حـفظ السمع والبصـر واللسان من

المحرمات، وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على ما حرَّم الله، قال الله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥] وقد جمع الله ذلك كله في قوله: ﴿وَإِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦]، ويتضمن أيضًا حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب، ومن حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «من حفظ ما بين لحْيَيْه وما بين رجْلَيْه دخل الجنة» خرجه الحاكم. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥،٦]، وقال أبو إدريس الخولاني: وأول ما وصى الله به آدم عند إهباطه إلى الأرض حفظ فرجه، وقال: لا تضعه إلا في حلال.

٢- وقوله -ﷺ- : «يَحْفَظْكَ» يعني: أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله، فإن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧]، وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان: أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، قال الله عز وجل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه. وقال علي -رضي الله عنه- إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر فإذا جاء القدرخلَّيا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة. وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال له: وراءك إلا شيئًا أذن الله فيه فيصيبه، وخرَّج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن عمر قال: «لم يكن رسول الله -ﷺ- يَدَع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يديَّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي».

ومن حفظ الله فى صباه وقوته حفظه الله فى حال كبره وضَعْف قوته، ومتَّعه بسمعه، وبصره وحوله وقوته وعقله، وكان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو متمتع بقوته، وعقله، فوثب يومًا وثبة شديدة فعُوتب فى ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصى فى الصغر فحفظها الله علينا فى الكبر، وعكس هذا أن بعض السلف رأى شيخًا يسأل الناس فقال: إن هذا ضيَّع الله فى صغره فضيَّعه الله فى كبره، وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته فى ذريته، كما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:٨٢]، أنهما حُفظا بصلاح أبيهما. قال سعيد بنُ المسيب لابنه: لأزيدنَّ فى صلاتى من أجلك رجاء أن أُحْفَظَ فيك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ وقال عمر بن عبد العزيز: ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله فى عقبه وعقب عقبه. وقال ابن المنكدر: إن الله لَيحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التى حوله، فما يزالون فى حفظ من الله وستر.

ومتى كان العبد مشتغلاً بطاعة الله فإن الله يحفظه فى تلك الحال. فمن حفظ الله حفظه الله من كل أذى، قال بعض السلف: من اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيع تقواه فقدضيَّع نفسه، والله غنى عنه.

وعكس هذا أن من ضيَّع الله ضيَّعه الله، فضاع بين خلقه حتى يدخل عليه الضرر والأذى ممن كان يرجو نفعه من أهله وغيرهم، كما قال بعض السلف: إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خُلُق خادمى ودابتى.

النوع الثانى من الحفظ وهو أشرف النوعين: حفظ الله للعبد فى دينه وإيمانه فيحفظه فى حياته من الشبهات المضلة ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان. قال بعض السلف: إذا حضر الرجل الموت يُقال للمَلَك: شُمَّ رأسه، قال: أجد فى رأسه القرآن، قال: شُمَّ قلبه، قال: أجد فى قلبه الصيام، قال: شُمَّ قَدَمَيْه، قال: أجد فى قدميه القيام، قال: حفظ نفسه فحفظه الله. وفى الصحيحين عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ: **«أنه أمره أن يقول عند منامه: إنْ قبضت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها**

فاحفظها بماتحفظ به عبادك الصالحين». وفى حديث عمر: أن النبى -ﷺ- علَّمه أن يقول: «**اللهم احفظنى بالإسلام قائمًا، واحفظنى بالإسلام قاعدًا، واحفظنى بالإسلام راقدًا، ولا تُطْمع فيَّ عدواً ولا حاسداً**» خرجه ابن حبان فى صحيحه. وكان النبى -ﷺ- يودِّع من أراد سفرًا فيقول: «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»، وقال -ﷺ-: «**إن الله إذا استُودع شيئًا حفظه**» خرجه النسائى وغيره.

وفى الجملة: فإن اللهعز وجل يحفظ المؤمن الحافظ لحدود دينه، ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعضها وقد يكون كارهًا لها، كما قال فى حق يوسف عليه السلام: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف:٢٤].

قال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [الأنفال:٢٤]، قال: يحول بين المؤمن وبين المعصية التى تجرُّه إلى النار، وقال الحسن وذكر أهل المعاصى: هانوا عليه فعصوه ولوعزُّوا عليه لعصمهم، وقال ابن مسعود: إن العبد لَيَهُمُّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسَّر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه فإنه إن يسَّرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظل يتطيَّر بقوله: سبَّنى فلان وأهاننى فلان. وما هو إلا فضل الله عز وجل. وخرَّجه الطبرانى من حديث أنس عن النبى -ﷺ-: «**يقول الله عز وجل: إن من عبادى من لا يُصلح إيمانه إلا الفقر وإن بُسط عليه أفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يُصلح إيمانه إلا السَّقم ولو أصححته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من يطلب بابًا من العبادة فأكفَّه عنه لكى لا يدخله العُجْبُ، إنى أدبِّر أمر عبادى بعلمى بما فى قلوبهم، إنى عليم خبير**».

٣ـ وقوله -ﷺ-: «**احفظ الله تجدْه تُجاهك**» وفى رواية «**أمامك**» معناه: أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه فى كل أحواله حيث توجَّه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفِّقه ويسدِّده ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم**

محسنون ﴾ [النحل:١٢٨]، قال قـتادة: من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله مـعه فمعه الفئـة التي لا تُغلب والحارس الذى لا ينام والهادى الذى لا يضلُّ. بل كتب بعض السلف إلى أخ له: أمـا بعد.. فإن كـان الله معك فمَنْ تخـاف؟ وإن كان عليك فـمن ترجـو؟ وهذه المعيـة الخـاصة هـى المذكورة فى قـوله تعـالى لموسى وهارون: ﴿ **لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ [طه:٤٦]، وقول موسى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ [الشعراء:٦٢]، وفى قول النبى -ﷺ- لأبى بكر وهما فى الغار: «**ما ظنُّـك باثنين الله ثالثهـما؟ لا تحزن إن الله مـعنا**». فهـذه المعية الخـاصة تقتضى النصـر والتأييد والحفظ والإعانـة، بخلاف المعية العامـة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا** ﴾ [المجادلة:٧]، وقوله: ﴿ **وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ [النساء:١٠٨]. فإن هذه المعية تقتضى علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم، فهى مقتضية لتخويف العباد منه، والمعية الأولى تقتضى حفظه وحياطته ونصره، فمن حفظ الله وراعى حقوقه وجده أمامه وتجاهه على كل حال فاستأنس به واستغنى عن خلقه.

٤ـ وقوله -ﷺ-: «**تعرَّفْ إلى الله فى الرخاء يَـعرفْكَ فى الشدة**» يعنى أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقـه فى حال رخائه فقد تعرَّف بذلك إلى الله وصار بينه وبين ربه معـرفة خاصة، فعرفه ربه في الـشدة ورعى له تعرفه إليه فى الرخاء فنجَّاه من الشـدائد بهذه المعرفة. وهذه معرفة خاصـة تقتضى قرب العبد من ربه ومـحبته له وإجابته لـدعائه، فمعرفة العـبد لربه نوعان: **أحدهما**: المعرفة العـامة وهى معرفة الإقـرار به والتصديق والإيمان وهى عـامة للمؤمنين، **والثاني**: معرفةخاصة تقتضى ميل القلب إلى الله بالكلية والانقطاع إليه والأنس به والطمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هى التى يدور حولها العارفون، كما قـال بعضهم: مساكين أهل الدنيا خرجـوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيـها، قـيل له: وما هو؟ قـال: معرفـة الله عز وجل. وقـال أحمـد بن عاصم الأنطاكى: أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاى، وليس معرفته الإقرار به، ولكن المعرفة إذا عـرفته استحيـيت منه. ومعرفة الله أيضًا لـعبده نوعان: معرفـة عامة،

وهي علمه تعالى بعـباده واطلاعه على ما أسرّوه وما أعلنـوه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[ق:١٦]، وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾[النجم:٣٢]، **والثاني**: معرفة خاصة وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه وإنجائه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله -ﷺ- فيما يحكي عن ربه: «**ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الى يبصر به ويده التي يبطش بها ورجْلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه ولئن استعاذني لأُعيذنَّه**». وفي رواية «**ولئن دعاني لأُجيبنَّه**».

٥- وقوله -ﷺ-: «**إذاسألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعنْ بالله**»، هذا منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن السؤال هو دعاؤه والرغبة إليه، والدعاء هو العبادة كما روى عن النبي -ﷺ- من حديث النعمان بن بشير، وتلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]. خرَّجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

فتضمن هذا الكلام أن يسأل الله عز وجل ولا يسأل غيره، وأن يُستعان بالله دون غيره. وأما السؤال فقد أمر الله بسؤاله فقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[النساء:٣٢]، وفي الترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا: «**سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل**»، وفيه أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا: «**من لا يسأل الله يغضب عليه**». وفي حديث آخر: «**يسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شِسْعَ نعله إذا انقطع**». وفي النهي عن مسأله المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة، وقد بايع النبي -ﷺ- جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئًا، منهم: أبو بكر الصديق وأبو ذر وثوبان، وكان أحدهم يسقط السوط أو خطام ناقته فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه. وخرَّج ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، أن رجلاً جاء إلى النبي -ﷺ- فقال: يارسول الله إن بني فلان أغاروا عليَّ فذهبوا بابني وإبلي، فقال له النبي -ﷺ-: «**إن آل محمد كذا وكذا أهل بيت ما لهم مدٌّ من طعام أو صاع، فاسأل الله عز وجل**»، فرجع إلى امرأته وقالت: ماقال لك؟ فأخبرها، فقالت: نِعْمَ ما ردَّ عليك، فما لبث أن ردَّ الله

عليه ابنه وإبله أوفر ما كانت، فأتى النبى -ﷺ- فأخبره، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وأمـر الناس بمسألة الله عز وجل والرغبـة إليه وقرأ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢،٣]، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى -ﷺ- : «إن الله عز وجل يقول: هل من داع فأستجيب له دعاءه؟ هل من سائل أُعطيه سؤلَه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟». وخرَّج المحاملى وغيره من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- قال: «قال الله تعالى: مَنْ ذا الذى دعانى فلم أُجبْهُ؟ وسألنى فلم أُعطِه؟ واستغفرنى فلم أغفرْ له وأنا أرحم الراحمين؟».

سؤال غير الله ذل لغير الله:

واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسئول على رفع هذا الضر ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة. وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم كما صنت وجهى عن السجود لغيرك فصُنْهُ عن المسألة لغيرك، ولا يقدرعلى كشف الضر وجلب النفع سواك. كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس:١٠٧]، وقال: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر:٢]، والله سبحانه يحب أن يُسْأل ويُرْغَبَ إليه فى الحوائج ويُلَحَّ فى سؤاله ودعائه ويغضب على من لا يسأله، ويستدعى من عباده سؤاله وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، والمخلوق بخلاف ذلك يكره أن يسأل، ويحب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته، ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتى الملوك: ويحك تأتى من يغلق عنك بابه ويُظهر لك فقره ويوارى عنك غناه وتَدَعُ من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ويُظهر لك غناه ويقول: ادعنى أستجب لك.

الاستعانة بالله عز وجل دون غيره:

وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهوالمخذول، وهذا تحقيق معنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهى كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله فى فعل المأمورات، وترك المحظورات والصبر على المقدورات كلها فى الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولايقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه فى ذلك كله أعانه، وفى الحديث الصحيح عن النبى -ﷺ- قال: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكّله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً. كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: لا تَسْتَعِنْ بغير الله فيكلُكَ الله إليه.

٦- قوله -ﷺ-: «**جفَّ القلم بما هو كائن**» وفى رواية أخرى «**رُفعت الأقلام وجفّت الصحف**» هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فُرغ من كتابته ورُفعت الأقلام عنه وطال عهده فقد رفعت عنه الأقلام وجفّت الأقلام التى كتب بها من مدادها وجفّت الصحف التى كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها، وقد دلّ الكتاب والسنن الصحيحة الكثيرة على مثل هذا المعنى، قال الله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد:٢٢]، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى -ﷺ- قال: «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**».

٧- قوله -ﷺ-: «**فلو أن الخلق جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم**

يقدروا عليه». هذه رواية الإمام أحمد ورواية التـرمذى بهذا المعنى أيضًا، والمراد أنما يصيب العبد فى دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مقدَّر عليه، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من مقادير ذلك فى الكتـاب السابق ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعًا، وقـد دلَّ القرآن على مثل هذا فى قوله عز وجل: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**﴾ [التوبة: ٥١].

واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليـه وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيـبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد ألبتة علم حـينئذ أن الله وحـده هو الضـار النافع المعطى المانع، فـأوجبه ذلك للعبـد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم الله من يعـبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغنى عن عابده شـيئًـا، فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يـضر ولا يعطى ولا يمنع غـير الله أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والـسؤال والتضرع والدعاء وتقديم طاعتـه على طاعة الخلق جـميعًـا، وأن يتقى سخطه ولـو كان فيـه سخط الخلق جمـيعًا، وإفراده بالاسـتعانة به والسـؤال له وإخلاص الدعاء له فى حـال الشدة وحال الرخاء، خـلافـ ما كان المشركون عليه من إخـلاص الدعاء له عند الشدائد ونسيـانه في الرخاء ودعـاء من يرجون نفـعه من دونه، قـال الله عز جل: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [الزمر: ٣٨].

٨ـ قوله -ﷺ-: «**واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**». يعنى أن ما أصاب العبـد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليهـا كان له فى الصبر خير كثير. وفى رواية عمر مولى عفرة وغيره عن ابن عباس زيادة أخرى قبل هذا الكلام وهى: «**فإن استطعت أن تعـمل لله بالرضا فى اليقين فافـعل، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**» فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر فى المصائب، **إحداهما**: أن يرضى بذلك وهى درجة عالية رفيـعة جدًا، قال الله عز

وجل: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة: هى المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى، وخرَّج الترمذى من حديث أنس عن النبى -ﷺ- قال: «**إن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»، وكان النبى -ﷺ- يقول فى دعائه: «**أسألك الرضا بعد القضاء**»، ومما يدعو المؤمن إلى الرضا بالقضاء تحقيق إيمانه بمعنى قول النبى -ﷺ- : «**لا يقضى الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سرَّاء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر وكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن**». وسُئل بعض التابعين عن حاله فى مرضه فقال: أحبُّه إليه أحبُّ إلىَّ. وسُئل سرى: هل يجد المحبُّ ألم البلاء؟ فقال: لا. وقال بعضهم:

عذابه فيك عَذْبٌ وبُعْدُه فيك قُرْبُ
وأنت عندى كروُحى بل أنتَ منها أحبُّ
حَسْبى منَ الحُبِّ أنِّى لِمَا تُحِبُّ أُحِبُّ

والدرجة الثانية: أن يصبر على البلاء، وهذه لمن لم يستطع الرضا بالقضاء، فالرضا فضل مندوب إليه مستحب، والصبر واجب على المؤمن حتم، وفى الصبر خير كثير، فإن الله أمر به ووعد عليه جزيل الأجر، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

قال الحسن: الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن، والفرق بين الرضا والصبر أن الصبر كف النفس وحبسها عن السخط مع وجود الألم وتمنى زوال ذلك وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا انشراح الصدر وسعته بالقضاء وترك تمنى زوال الألم وإن وُجِدَ الإحساس بألم، لكن الرضا يخففه ما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذا قوى الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية كما سبق.

٩ـ وقوله -ﷺ-: «واعلم أن النصر مع الصبر»، هذا موافق لقول الله عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:٢٤٩]، وقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:٦٦]، وقال عمر لأشـياخ من بنى عبس: بِمَ قاتلتم الناس؟ قالوا: بالصـبر لم نَلْقَ قومًا إلا صبرنا لهم كما صـبروا لنا. وقال بعض السلف: كلنا يكره الموت وألم الجراح ولكن نتفاضل بالـصبر، وقال ابن بطال: الشجـاعة صبر ساعـة، وهذا فى جهاد العدو الظاهر وهو جهـاد الكفار، وكذلك جهاد العدو البـاطن وهو جهاد النفس والهوى، فـإن جهادهما من أعظـم الجهاد، كمـا قال النبى -ﷺ-: «المجاهد مَنْ جاهد نفسه فى الله». وقال عبـد الله بن عمر لمن سأله عن الجـهاد: ابدأ بنفسك فجـاهدها وابدأ بنفسك فاغزها. فـقوله -ﷺ-: «إن النصر مع الصـبر» يشمل النصر فى الجهادين: جهاد العدو الظاهر، وجهاد العـدو الباطن، فمن صبر فيهما نصر وظفر بعـدوه، ومن لم يصبر فيهما وجـزع قُهِرَ وصار أسيرًا لعـدوه أو قتيلاً له.

١٠ـ وقوله -ﷺ-: «وأن الفـرج مع الكَرْب» وهذا يشـهد لـه قوله عـز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى:٢٨]، والمعنى أنه سبـحانه يعـجب من قنوط عباده عـند احتبـاس القطر عنهم وقنوطهم ويأسهم من الرحمـة وقد اقترب وقت فرجـه ورحمته لعبـاده بإنزال الغيث عليهم وتغييـره لحالهم وهم لا يشعرون، وكم قـصَّ سبحانه من قصص تـفريج كربات أنبيـائه عند تناهى الكرب: كإنجـاء نوح ومن معه فى الفلـك، وإنجاء إبراهيم من النار وفـدائه لولده الذى أُمـر بذبحـه، وإنجـاء موسى وقـومـه من اليم وإغـراق عدوهم، وقصة أيوب ويونس، وقصص محمد -ﷺ- مع أعدائه وإنجائه منهم، كقصته فى الغار، ويوم بدر، ويوم الأحزاب، وغير ذلك.

١١ـ وقوله -ﷺ-: «وأن مع العـسر يسـرًا» هو منتـزع من قوله تعـالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق:٧]، وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ

يسرا﴾ [الشرح:٥]، وخرَّج البزار في مسنده وابن أبي حاتم واللفظ له من حديث أنس عن النبي -ﷺ- قال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيُخرجه» فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥،٦]، ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر أن الكرب إذا اشتدَّ وعظم وتناهى وحصل للعبد اليأس من كشفه من جهة المخلوقين وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]. قال الفضيل: والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا لأعطاك مولاك كل ما تريده، وأيضًا فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه ولم يظهر عليه أثر الإجابة فرجع إلى نفسه باللائمة وقال لها: إنما أُتيتُ من قبلك ولو كان فيك خيرٌ لأجبت، وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يُوَجِبَ انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنه أهل لما نزل من البلاء وأنه ليس أهلاً لإجابة الدعاء، فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله. انتهى من كتاب (جامع العلوم والحكم).

يارب عدت إلى رحابك تائبًا:

ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره: قال محمد بن إسحاق: لما نزلت ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤]، جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله -ﷺ- وهم يبكون، قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنَّا شعراء، فتلا النبي -ﷺ-: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: أنتم ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: أنتم ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء:٢٢٧]، قال: أنتم» رواه ابن أبي حاتم. وها أنا أقدم لك بعض أبيات من الشعر قد قرأتها لأحد الشعراء:

بك أستجيرُ ومن يجيرُ سواكا ... فأجر ضعيفًا يحتمي بحماكَا

إني ضعيفٌ أستعين على قوى ... ذنبي ومعصيتي ببعضِ قُواكَا

أذنبــت يــا ربِّ وآذتنـــى ذنـــو ... بٌ مـــا لـــها مـــن غـــافر إلاَّ كَا
دنيــاى غــرَّتنى وعــفوك غــرَّنى ... مـــا حــيلتــى فــى هذه أو ذاكَا
لــو أن قــلبى شــكَّ لم يك مؤمنا ... بــكريم عــفوك ما غوى وعصاكا
ربــاه هــا أنا ذا خلصت من الهوى ... واســتقبل الــقلب الخليُّ هواكَا
وتــركت أنســى بــالحياة ولــهوها ... ولقــيت كــل الأنــس فى نجواكا
ونــسيت حــبى واعــتزلت أحــبتى ... ونــسيت نــفسى خوف أن أنساكا
ذقــتُ الهــوى مــراً ولــم أذقِ الهوى ... يــا ربِّ حــلواً قــبل أن أهواكا
أنــا كنــت يـــا ربى أسير غشاوة ... رانــت عـــلى قــلبى فضلَّ سناكا
واليــوم يــا ربــى مسحت غشاوتى ... وبـــدأت بالـــقلب البــصير أراكا
يا غافـــر الــذنب العــظيم وقابــلاً ... للتــوب اقبـــل تــائبًا نـــاجاكا
أتـــردُّه وتـــردُّ صــادق تــوبتـــى ... حـــاشـــاكا تـــرفض تائبًا حاشاكا
يـــا رب جـــئتك نادمـــا أبكى على ... مـــا قــدمته يــداى لا أتـــباكا
يـــا رب عــدت إلـــى رحابك تائبًا ... مــستسلمًا مــستمسكًا بعـــراكا
مـــا لـــى ومـــا للأغـــنياء وأنت يا ... رب الــغنى ولا يـــحدُّ غنـــاكـــا
مـــا لـــى ومـــا للأقـــوياء وأنت يـــا ... ربـــى وربَّ النـــاس مـــا أقـــواكا
مـــا لـــى ومـــا للمـــلوك وأنت من ... خـــلق الملـــوك وقسم الأملاكـــا
إنـــى أويـــت لـــكل مأوى فى الحياة ... فمـــا رأيـــت أعـــز مـــن مأواكا
وتلـمست نـفسى السبيل إلى النجاة ... فلـــم تجـــد مـــنجى سوى منْجاكَا
وبــحثت عــن سر الســعادة جاهدًا ... فـــوجدت هـــذا السر فى تقواكا
أدعـــوك يـــا ربــى لتــغفر حــوبتى ... وتُعـــيننى وتمـــدنى بـــهـــداكـــا
فـــاقبل دعـــائى واستجب لرجاوتى ... مـــا خـــاب يـــوما من دعا ورجاكا
قـــل للـــطـــبيب تخطَّفته يد الردى ... يـــا شـــافىَ الأمراض من أرداكا؟

قل للمريض نجا وعوفى بعد ما عجزت فنون الطب من عافاكا؟
قل للصحيح يموت لا من علة من بالمنايا يا صحيح دهاكا؟
قل للبصير وكان يحذر حفرةً فهوى بها من الذى أهواكا؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزِّ حام بلا اصطدامٍ من يقود خُطاكَا؟
قل للجنين يعيش معزولاً بلا راعٍ ومرعى من ذا الذى يرعاكا؟
قل للوليد بكا وأجهش بالبكا ء لدى الولادة ما الذى أبكاكَا؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه فاسأله من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبانُ أو تحيا وهذا السمُّ يملأُ فاكا؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهدًا وقل للشهد من حلاَّكَا؟
بل سائل اللبن المصفى كان بين فرثٍ ودمٍ ما الذى صفَّاكَا؟

(أ إلَهٌ مع الله)

الهدف من وراء الكتاب:

أن يتقلبه الله تعالى صدقة جارية لكل مسلم فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، سائلاً به الله عز وجل أن يزهدنا فى دار الغرور، وأن ينجينا من دار الثبور، وأن يدخلنا الجنة دار السرور فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، إنه﴿ **نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ [الأنفال: ٤٠].

وفى النهاية أقول: إن الكمال لله وحده، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وإنه لو كانت الذنوب تعمى البصر ما استطعت أن تنظر فى كلامى، وإننى لا أطمع إلا فى رحمته سبحانه التى لا يملكها إلا هو، وإنى أطلب منك الدعاء بظهر الغيب، خصوصًا أن يجعلنى الله وإياك وسائر المسلمين من عتقائه من النار، ويا حظ من زحزح عن النار وأُدخل الجنة﴿ **فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الباب الأول
الدنيـــا
«اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا»

١ـ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار:

قال الله تعالى: ﴿فمنَ النَّاسِ مَن يقولُ ربَّنا آتنا في الدُّنْيا وما لهُ في الآخرةِ منْ خلاقٍ (٢٠٠) ومنهُم من يقولُ ربَّنا آتنا في الدُّنْيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئكَ لهُمْ نصيبٌ مّمَّا كسبُوا واللَّهُ سريعُ الْحسابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ـ٢٠٢].

ثم إنه تعالى أرشد عن دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة، وذمَّ من لا يسأله إلا فى أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال: ﴿فمنَ النَّاسِ من يقولُ ربَّنا آتنا في الدُّنْيا وما لهُ في الآخرةِ منْ خلاقٍ﴾ أى من نصيب ولاحظ، وتضمن هذا الذم التنفير عن التشبه بمن هوكذلك، قال ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف (أى: فى الحج) فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا، فأنزل الله فيهم: ﴿فمنَ النَّاسِ من يقولُ ربَّنا آتنا في الدُّنْيا وما لهُ في الآخرةِ منْ خلاقٍ﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال: ﴿ومنهُم مَّن يقولُ ربَّنا آتنا في الدُّنْيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير فى الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة فى الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولامنافاة بينها، فإنها كلها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا.

وأما الحسنة فى الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه فى الدنيا من اجتناب

المحارم والآثام، وترك الشبـهات والحرام، وقال القاسم عـبد الرحمن: من أعطى قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وجسـدًا صابرًا، فقد أُوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، ووُقى عذاب الـنار، ولهذا وردت السنَّة بالترغيب فى هذا الدعـاء. فقال البخارى عن أنس بن مـالك: كان النبى -ﷺ- يقول: «**اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»، وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه. وعن أنس أن رسول الله -ﷺ- دعا رجـلاً من المسلمين قد صـار مثل الفرخ، فقـال له رسول الله-ﷺ- : «**هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟** قال: نعم، كنت أقول: اللهم مـا كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا، فقال رسول الله -ﷺ-: **سبحان الله، لا تطيقه أو لا تستطيـعه، فهـلا قلت: ربنا آتنا فى الدنيا حـسنة وفى الآخرة حـسنة وقنا عذب النار، قال فدعا الله فشفاه**» انفرد بإخراجه مسلم.

٢ـ تزيين الحياة الدنيا للكافرين:

قال الله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [البقرة:٢١٢].

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنـيا للكافرين، الذين رضوا بها واطمأنوا إليهـا، وجمعوا الأمـوال ومنعوها عن مصـارفها التى أُمـروا بها، مما يرضى الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذيـن أعرضوا عنها، وأنفقوا مـاحصل لهم منها فى طاعة ربهم، وبذلوه ابتغاء وجه الله، فلهـذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معـادهم، فكانوا فوق أولئك فى مـحشرهم ومنشـرهم ومسيـرهم ومأواهم، فاسـتقـروا فى الدرجات فى أعلى عليـين، وخلد أولئك فى الدركات فـى أسفل سافلين، ولهـذا قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ أى يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيـرًا جزيلاً بلا حصر ولا تعداد فى الدنيا والآخرة، كمـا جاء فى الحـديث: «**ابن آدم أنفق أُنفق عليك**»، وقال النبى -ﷺ- : «**أنفقْ بلالاً ولا تخش من ذى العرش إقلالاً**»، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾ [سبأ:٣٩]، وفى الصحيح: «**أن مَلَكَيْن ينزلان من السماء صبيحة كل يوم**

فيقـول أحدهما: **اللهم أعط منفـقًا خلفًا، ويقول الآخـر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»، وفى الصـحيح: «**يقـول ابن آدم: مـالى مـالي، وهل لك من مـالك إلا مـا أكلت فـأفنيت، وما لبـست فأبليـت، وما تصـدقت فأمـضيت، ومـا سوى ذلك فـذاهب وتاركه للناس**». وفى مسند الإمام أحـمد عن النبى -ﷺ- أنه قال: «**الدنيا دار مَنْ لا دار له، ومال مَنْ لا مال له، ولها يجمع مَنْ لا عقل له**».

٣ـ الشهوات:

قال الله تعـالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّـهَوَاتِ مِنَ النِّسَـاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيـرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

يخبر تعالى عما زيِّـن للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فـبدأ بالنساء لأن الفـتنة بهنّ أشد، كـما ثبت فى الصـحيح أنه -ﷺ- قال: «**ما تركت بعـدى فتنة أضرَّ على الرجـال من النساء**». فأما إذا كـان القصد بهنَّ الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مـرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالتـرغيب فى التـزويج والاستكثار منـه، وأن خير هذه الأمـة من كان أكثرها نساءً، وقوله -ﷺ-: «**الدنيا مـتاع وخير مـتاعها المرأة الصـالحة، إن نظر إليها سرَّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله**»(١). وقوله فى الحديث الآخر: «**حُبِّبَ إليَّ النساء والطِّيب، وجُعلت قرة عينى فى الصلاة**».

وحبُّ البنين تارة يكون للتـفاخـر والزينة فهـو داخل فى هذا، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثيـر أمة محمد -ﷺ- ممَّن يعبد الله وحده لا شـريك له، فهذا محـمود ممدوح كمـا ثبت فى الحديث: «**تزوَّجوا الودود الولود فـإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**».

وحب المال كـذلك، تارة يكون للفـخر والخـيلاء والتكبر على الضـعفـاء والتجبر على الفقراء فهـذا مذموم، وتارة يكون للنفقة فى القربات وصلة الأرحام

(١) أخرجه النسائى، روى بعضه مسلم فى صحيحه.

والقرابات ووجوه البـر والطاعات فهذا شـرعًا، وقد اختلف المفسـرون فى مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قال الضحاك وغيره.

وحب الخيل على ثلاثة أقسام: تارة يكون ربطها أصحـابها معدَّة لسبيل الله متى احتاجـوا إليها غزوا عليها، فهـؤلاء يثابون، وتارة تربط فخرًا ونواء[1] لأهل الإسلام فهذه علـى صاحبها وزر، وتارة للتعـفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله فى رقابها فهذه لصاحبها ستر.

وأما المسوَّمة: فـعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: المسوَّمة الراعية، والمطهـَّمة الحسان. وقال مـكحول: المسـوَّمة الغـرَّة والتحـجيل. وقـيل غيـر ذلك. وقوله تعـالى: ﴿وَالأَنْعَامِ﴾ يعنى الإبل والبـقـر والغنم، ﴿وَالْحَرْثِ﴾ يعنى الأرض المتَّـخَـذة للغراس والزراعة. وقال الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة عن النبى -ﷺ- قال: «**خير مال امرئ له مـهرة مأمورة، أو سكة مأبورة**» المأمورة الكثيرة النسل، والسكة النخل المصطف، والمأبورة الملقحة.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى إنما هذا زهرة الحيـاة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة، ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أى حسن المرجع والثواب. قال عمر بن الخطاب: لما نزلت ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ قلت: الآن يا رب حين زيَّنتهـا لنا، فنزلت: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ﴾ أى قل يا مـحمـد للناس أأخبـركم بخيـر مما زيِّن للناس فى هذه الحـياة الدنيـا من زهرتها ونعـيمـها الذى هوزائل لا محالة؟ ثم أخـبر عن ذلك فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى تنخرق بين جوانبها وأرجـائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخـمر والماء وغير ذلك، مما لا عـين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى ماكثين فيهـا أبدًا لا يبغون عنها حولاً ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أى: من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس، وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى يحلُّ عليهم رضوانه فلا يـسخط عليهم بعده أبدًا، ولهـذا قال تعـالى فى الآية الأخـرى التى فى براءة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

(١) مفاخرة ومعارضة.

[التوبة:٧٢]، أى أعظم مما أعطاهم من النعيم المقـيم، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى يعطى كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء.

٤ـ الدنيا والموت:

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

يخبر تعالى إخبارًا عامًا يعمُّ جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعـالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْـهَـا فَـانٍ (٢٦) وَيَبْـقَىٰ وَجْـهُ رَبِّكَ ذُو الْجَـلالِ وَالإِكْـرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧] فهو تعالى وحـده الحى الذى لا يموت، والجن والأنس يموتون، وكذلك الملائكة وحـملة العرش وينفرد الواحـد الأحد القهـار بالديمومة والبـقاء فيكون آخرًا كما كان أولاً، وهذه الآية فيهـا تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حـتى يموت، فإذا انقـضت المدة وفرغت النطفـة التى قدر الله وجودها من صلب آدم وانتـهت البرية أقام الله القيـامة وجازى الخلائق بأعـمالها جليلها وحقـيرها، كثيرها وقليلها، كـبيرها وصغيرها، لا يظلم أحـدًا مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أى مَنْ جُنِّبَ النار ونجا منهـا وأُدخل الجنة فقـد فاز كل الفـوز، وعن أبى هريرة قال: قـال رسول الله ـ ﷺ ـ: «موضع سوط فـى الجنة خير من الدنيا ومـا فيها، اقـرءوا إن شئتم ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾» رواه ابن أبى حاتم، وأصله فى الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها، وأنها دنيـئة فانية قليلة زائلة، كمـا قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٦،١٧]، وقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص:٦٠]، وفى الحديث: «والله ما الدنيا فى الآخـرة إلا كما يـغمس أحدكم أصـبعه فى اليمِّ فلينـظر بمَ ترجع إليه».
وقال قتـادة: هى متاع متروكة أوشـكت ـ والله الذى لا إله إلا هو ـ أن تضمحلَّ عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

٥ـ نعيم الكفار زائل:

قال الله تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٨].

يقول الله تعالى: لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعمَّا قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمدُّ لهم فيما هم فيه استدراجًا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ [غافر: ٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]، أي قليلاً، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾. عن عبد الله بن عمر قال: إنما سمَّاهم الله الأبرار لأنهم برُّوا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقًا. وعن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾، ويقول: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، أخرجه ابن جرير.

٦ـ متاع الدنيا قليل:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ أي آخرة المتقي خير من دنياه، ﴿وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ أي من أعمالكم، بل توفونها أتمّ

الجزاء، وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض على الجهاد. وقال ابن أبي حاتم عن هشام: قال: قرأ الحسن ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ قال: رحم الله عبدًا صحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه.

وقال ابن معين: كان أبو مصهر ينشد:

ولا خيرَ في الدُّنيا لمن لم يكن له   من الله في دار المقام نصيب

فإن تُعْجِب الدُّنيا رجالاً فإنها   متاعٌ قليل والزوال قريب

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجو منه أحد منكم كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، المقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتومًا ومقامًا مقسومًا، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفًا، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء، وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة، أي لا يغني حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا يَنَلْنَهُ   ولو رام أسباب السماء بسلَّم

ثم قيل: المشيَّدة هي المشيدة، كما قال: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥]، وقيل: بل بينهما فرق وهو أن المشيدة بالتشديد هي المطولة، وبالتخفيف هي المزينة بالشيد وهو الجَصُّ.

٧- عند الله ثواب الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤].

أى يا من ليس له همة إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك، كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الآية [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآية [الإسراء: ١٨].

وقوله: ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ ظاهر فى حصول الخير فى الدنيا والآخرة، أى بيده هذا وهذا، فلا يقتصرنَّ قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية فى الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذى بيده الضر والنفع، وهوالله الذى لا إله إلا هو، الذى قدَّ قسم السعادة والشقاوة بين الناس فى الدنيا والآخرة، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

٨ـ الكفار رضوا بالدنيا ولم يؤمنوا بالله:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذى كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولايرجون فى لقائه شيئًا، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ الآية. قال الحسن: والله ما زينّوها ولا رفعوها حتى رضوا بها، وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء بما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

٩ـ عقاب الكفار فى الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

ذكر الله تعـالى عقاب الكفـار وثواب الأبرار، فقـال بعد إخبـاره عن حال المشركـين وما هم عليه من الكفـر والشرك: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى بأيدى المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ﴾ أى المدَّخر مع هذا الخزى فى الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾ أى من هذا بكثير، كما قال رسول الله -ﷺ- للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**»، وهو كما قال - صلوات الله وسلامه عليه - فإن عذاب الدنيا له انقضاء وذاك دائم أبداً فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا، ووثاق لا يُتصورَّ كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥،٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً﴾ [الفرقان:١١،١٢].

١٠ـ الحياة الطيبة:

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

هذا وعد مـن الله تعالى لمن عـمل صالحًا، وهو العـمل المتابع لـكتاب الله وسنة نبـيه -ﷺ- من ذكر أو أنثى مـن بنى آدم وقلبه مؤمن بـالله ورسوله، بأن يُحييـه الله حياة طيبـة فى الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عـمله فى الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحـة من أى جهة كانت. وقد روى عن ابن عباس: أنها هى السـعادة. وقال الحـسن ومجاهد وقـتادة: لا يطيب لأحد حـياة إلا فى الجنة. وقال الضحـاك: هى الرزق الحلال والعبادة فى الدنيا. والصحـيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله -ﷺ- قال: «**قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه**»، وفى رواية: «**قد أفلح من هُديَ للإسلام وكان عيشه كفافًا وقَنع به**»[1].
وقال الإمـام أحمد: حدثنا يزيد، حـدثنا همام عن يحيى عن قـتادة عن أنس بن مالك قـال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إن الله لا يظلم المؤمن حسنـة يعطى بها فى**

---

(١) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى.

الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَم بحسناته فى الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُعْطَى بها خيرًا»(١).

١١ـ ليس كلُّ من يطلب الدنيا تحصل له:

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨، ١٩].

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النِّعم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أى فى الدار الآخرة ﴿يَصْلاهَا﴾ أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أى فى حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفانى على الباقى ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبعدًا مقصيًا حقيرًا ذليلاً مُهانًا. وفى الحديث: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»(٢).

وقوله ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أى طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول - ﷺ - ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى قلبه مؤمن، أى مصدِّق بالثواب والجزاء ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

١٢ـ المال والبنون زينة الحياة الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٥، ٤٦].

يقول تعالى: ﴿واضرب﴾ يا محمد للناس ﴿مثل الحياة الدنيا﴾ فى زوالها

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم فى صحيحه.

(٢) أخرجه أحمد عن عائشة مرفوعًا.

وفنائها وانقضائها ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿أصبح هشيما﴾ يابسًا ﴿تذروه الرياح﴾ أي تفرّقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿وكان الله على كل شيء مقتدرا﴾ أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال.

وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ الآية [يونس:٢٤]، وقال في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الآية [الحديد:٢٠]، وفي الحديث الصحيح: «الدنيا خضرة حُلوة».

وقوله: ﴿المال والبنون زينةُ الحياة الدنيا﴾ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ﴾ [آل عمران:١٤] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥]، أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وقال ابن عباس: ﴿الباقيات الصالحات﴾ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهكذا سُئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن ﴿الباقيات الصالحات﴾ ماهي؟ قال: هي: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ورُوي عن سعيد بن المسيب قال: الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات فقلت: الصلاة والصيام، فقال: لم تُصب، فقلت: الزكاة والحج، فقال: لم تُصب، ولكنهن الكلمات الخمس، لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة

إلا بالله. عن أبى هريرة قال: قـال رسول الله -ﷺ-: «**سبحـان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر هنّ الباقيات الصالحات**»(١).

وفى الحديث: «**أما إنه سيكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فمَنْ صدَّقهم بكذبهم ومـالأهم على ظلمهم فليس مـنى ولست منه، ومن لم يصدِّقـهم بكذبهم ولم يُمالئهم على ظلمهم فهـو منى وأنا منه، ألا وإن سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر من الباقيات الصالحات**»(٢).

وقال ابن عباس: قوله ﴿**والباقيات الصالحات**﴾ قال: هى ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله -ﷺ- والصلاة والصيام والحج والصدقة والعتق والجـهاد والصلة وجميع أعمال الحـسنات، وهن الباقيات الصالحات الـتى تبقى لأهلها فى الجنة ما دامت السـماوات والأرض، وعنه: هى الكلام الطيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هى الأعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير رحمه الله.

١٣- المعيشة الضنك لمن أعرض عن طاعة الله:

قال الله تعالى: ﴿**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ**﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منهـا جميعًا، أى من الجنة كلكم ﴿**بعضكم لبعض عدو**﴾ آدم وذريته، وإبليس وذريتـه، وقوله ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**﴾ قال: أبو العـالية: الأنبياء والرسل والبـيان ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ**﴾ قال ابن عباس: لا يضل فى الـدنيا ولا يشقى فى الآخرة ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي**﴾ أى خالف أمرى وما أنزلته على رسـولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ

---

(١) أخرجه ابن جرير عن أبى هريرة.
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند.

من غيره هداه، ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ أى ضنكًا فى الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين، والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك، فلا يزال فى ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة. قال ابن عباس: ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ قال: الشقاء، وعنه: أن قومًا ضلالاً أعرضوا عن الحق، وكانوا فى سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكًا، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والشقة به اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك. وقال الضحاك: هو العمل السيء والرزق الخبيث، وروى سفيان بن عيينة عن أبى سعيد فى قوله: ﴿معيشة ضنكا﴾ قال: يضيق عليه فى قبره حتى تختلف أضلاعه فيه.

وعن أبى هريرة عن رسول الله -ﷺ- قال: «**المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويفسح له فى قبره سبعون ذراعًا، وينوَّر له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيما أُنزلت هذه الآية ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: عذاب الكافر فى قبره، والذى نفسى بيده إنه لَيُسلَّطُ عليه تسع وتسعون تنينًا، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس ينفخون فى جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون**»[1]. وروى البزار عن أبى هريرة عن النبى -ﷺ- فى قوله الله عز وجل ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «**المعيشة الضنك الذى قال الله أنه يُسلَّطُ عليه تسع وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة**».

قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ قال مجاهد والسدى: لا حجة له. وقال عكرمة: عمى عليه كلُّ شيء إلا جهنم. ويحتمل أن يكون المراد أنه يُبعث أو يُحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الإسراء:٩٧] الآية، ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أى فى الدنيا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ

(١) الحديث رواه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مرفوعًا، وفى رفعه نظر. قال ابن كثير: رفعه منكر جدًا.

آياتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ أى لما أعرضت عن آيات الله وتناسيتها وأعرضت عنها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك: ﴿فاليوم نساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه فليس داخلاً فى هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى، عن سعد بن عبادة -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- قال: «ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقى الله يوم يلقاه وهو أجذم»(١).

١٤- لا تنظر إلى من هو فوقك من العباد فى أمور الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

يقول تعالى لنبيه محمد -ﷺ-: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك وقليل من عبادى الشكور، وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ يعنى الأغنياء، فقد آتاك خيراً مما آتاهم. ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله -ﷺ- فى تلك المَشْربة التى كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعًا على رمال حصير، وليس فى البيت إلا صُبْرة من قَرَظ(٢) واهية معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله -ﷺ-: «ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه! فقال له: أو فى شك يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا»، فكان -ﷺ- أزهد الناس فى الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا فى عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئًا لغد.

عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد أن رسول الله -ﷺ- قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا. قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول

---

(١) الحديث أخرجه أحمد عن سعد بن عبادة.

(٢) صبرة: مجموعة قرظ: ورق السَّلم، وهو شجر شائك يُستعمل ورقه فى دبغ الجلود.

الله؟ قال: بركات الأرض». وقال قتادة والسدى: ﴿زهرة الحياة﴾ يعنى زينة الحياة الدنيـا. وقال قـتادة: ﴿لنفـتنهم فـيـه﴾ لنبتليـهم. وقوله: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليـها﴾ أى استنقذهم من عـذاب الله بإقام الصـلاة واصبـر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦]، وقوله: ﴿لا نسـألك رزقا نحن نرزقك﴾: يعنى إذا أقمت الـصلاة آتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كـما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢،٣]، ولهـذا قال: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾. وقال الثورى: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أى لا نكلفك الطلب. وقال ابن أبى حاتم عن ثابت قـال: كـان النبى -ﷺ- إذا أصـابه خصـاصـة نادى أهله: «يا أهلاه صلوا صلوا». قال ثابت: وكـانت الأنبيـاء إذا نزل بهم أمر فـزعوا إلى الصـلاة. وقال رسول الله-ﷺ-: «يقول الله تعـالى: يا ابن آدم، تفرَّغ لعـبادتى أمـلأ صدرك غنى وأسدَّ فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسدَّ فقرك»(١). وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله-ﷺ- يقول: «من كانت الدنيا همَّـه فرَّق الله عليه أمره وجعـل فقره بين عينيـه، ولم يأته من الدنيا إلا ماكتب له، ومن كـانت الآخرة نيَّـته جـمع الله أمـره، وجعل غناه فى قـلبه، وأتتـه الدنيـا وهى راغمـة». وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى: وحُسن عاقبة فى الدنيا والآخرة وهى الجنة لمن اتقى الله.

١٥ـ الحياة الدنيا لهو ولعب:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنـيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيـها لهو ولعب ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ الحياة الدائمة، الحق الذى لا زوال له ولا انقضاء، بل هى مستمرة أبد الآباد، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مرفوعًا.

١٦ـ خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾[الشورى: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ ﴾ أى لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا. وقال قتادة: وكان يُقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك: وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا». وقوله عز وجل: ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره، مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، كما جاء فى الحديث المروى[1]: «إن من عبادى من لا يُصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

١٧ـ حكمة الله تعالى فى تفاوت أرزاق الخلق:

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الزخرف: ٣١ـ٣٥].

﴿ وَقَالُوا ﴾ أى كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس، ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أى هلاَّ كان إنزال هذه القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم؟ ﴿ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ ﴾ يعنون مكة والطائف[2]. وقد ذكر غير واحد من السلف أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى.

(١) المراد بالحديث المروى أى المحكى عن الله عز وجل وهو المشهور بالحديث القدسى.
(٢) قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والسدى ومحمد بن كعب القرظى وابن زيد.

وعن مـجاهـد: يعنون عتبـة بن ربيـعة بمكة وابن عـبـد ياليل بالطائف. وقـال السدى: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة بن عـمرو الثقفى. والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان. قال تعالى ردًا عليهم فى هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أى ليس الأمر مردودًا إليهم بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيـث يجعل رسالاته، فـإنه لا ينزلها إلى عـلى أزكى الخلق قلبًا ونفـسًا، وأشرفهم بيـتًا، وأطهرهم أصلاً. ثم قـال عز وجل مبينًا أنه قد فـاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة فـقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقوله جلت عظمته: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أى ليُسخِّر بعضـهم بعضًا فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا. ثم قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى رحمـة الله بخلقه خير لهم ممـا بأيديهم من الأموال ومتاع الحـياة الدنيا. ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: لولا أن يعـتقـد كثـيـر من الناس الجهلة أن إعطـاءنا المال دليل على محـبـتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أى سلالم ودرجًا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أى يصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أى أغلاقًا على أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أى جميع ذلك يكون فضة ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أى ذهبًا. قال ابن عـباس والسدى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى إنما ذلك من الدنيا الفـانية الزائلة الحقيـرة عند الله تعالى، أى يعجل لهم بحـسناتهم التى يعملونهـا فى الدنيا مآكل ومـشارب، ليوافـوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعـالى حسنة يجزيهم بهـا. ثم قال سبحـانه وتعالى: ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهـم.

ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله -ﷺ- حين رآه على رمال حصير قد أثر بجنبه فابتدرت عيناه بالبكاء وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هم فيه وأنت صفوة الله من خلقه؟ وكان رسول الله -ﷺ- متكئًا فجلس وقال: **«أو فى شك أنت يا ابن الخطاب؟»** ثم قال -ﷺ-: **«أولئك قـوم عـجلت لهم طيـباتهم فى حـياتهم الدنيـا»**، وفى رواية: **«أما ترضى أن تكون لهـم الدنيا ولنا**

الآخرة». وفى الصحيحين أن رسول الله -ﷺ- قال: «**لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة**»، وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها، قال رسول الله -ﷺ-: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء أبدًا**»(١).

١٨- اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا:

قال الله تعالى: ﴿**فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ**﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

﴿**فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا**﴾ أى أعرض عن الذى أعرض عن الحق واهجره، وقوله: ﴿**وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ أى وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ**﴾ أى طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه. وفى الدعاء المأثور: «**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا**». وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ**﴾ أى هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته.

١٩- الحياة الدنيا متاع فان:

قال الله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد: ٢٠].

يقول تعالى موهنًا أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها: ﴿**أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾ أى إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجة عن سهل بن سعد، وقال الترمذى: حسن صحيح.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران:١٤]، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهوالمطر الى يأتى بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾[الشورى:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أى يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث وكما يعجب الزراع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أى يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعدما كان خضراً نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا، أى يصير يبسًا متحطمًا، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان يكون كذلك فى أول عمره وعنفوان شبابه غضًا طريًا لين الأعطاف، بهى المنظر، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيراً، ضعيف القوى، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[الروم:٥٤]، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أى وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا عذاب شديد، أو مغفرة من الله ورضوان، وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أى هى متاع فان، أى يغترُّ بها من يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة، قال رسول الله -ﷺ-: «موضعُ سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرءوا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾» (١).

٢٠ـ توسيع الله تعالى على العبد الرزق إنما هو للامتحان:

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:١٥ـ٢٠].

---

(١) أخرجه ابن جرير، وهو ثابت فى الصحيح دون زيادة.

يقول تعالى منكراً على الإنسان إذا وسَّع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥،٥٦]، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، قال الله تعالى: ﴿كَلا﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ولمن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر، وقوله تعالى: ﴿بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام، كما جاء في الحديث: «**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحْسَنُ إليه، وشرُّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيمٌ يساءُ إليه**»(١). وقال -ﷺ-: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام**»(٢)، ﴿وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحثُّ بعضهم على بعض في ذلك ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ يعني الميراث ﴿أَكْلاً لَّمًّا﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي كثيراً فاحشاً.

خاتمة

٢١- كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل:

عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «**أخذ رسول الله -ﷺ- بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل**». وكان ابن عمر -رضي الله عنهما- يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. رواه البخاري.

جاء في كتاب (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلي ما مختصره:

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك.
(٢) أخرجه أبو داود.

«. . . وهذا الحديث أصل فى قصر الأمل فى الدنيا، فإن المؤمن لا ينبغى له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا فيطمئن فيها، ولكن ينبغى أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يعنى جهازه للرحيل. وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون أنه قال: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، وكان النبى -ﷺ- يقول: «**مالى وللدنيا، إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب قال**[1] **فى ظل شجرة ثم راح وتركها**». ومن وصايا المسيح عليه السلام لأصحابه أنه قال لهم: اعبروها ولا تعمروها. وروى عنه أنه قال: من ذا الذى يبنى على موج البحر دارًا، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارًا، ودخل رجل على أبى ذر فجعل يقلب بصره فى بيته فقال: يا أبا ذر أين متاعكم؟ فقال: إن لنا بيتًا نتوجه إليه، فقال: إنه لابد لك من متاع ما دمت ها هنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا ها هنا.

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطنًا فينبغى للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين:

إما أن يكون كأنه غريب مقيم فى بلدة غربة همُّه التزود للرجوع إلى وطنه، أو أن يكون كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة، فلهذا وصىَّ النبى -ﷺ- ابن عمر أن يكون فى الدنيا على أحد هذين الحالين:

فأحدهما: أن يُنزل المؤمن نفسه كغريب فى الدنيا يتخيل الإقامة لكن فى بلد غربة فهو غير متعلق القلب ببلد الغربة بل قلبه متعلق بوطنه الذى يرجع إليه، وإنما هو مقيم فى الدنيا ليقضى مرمة جهازه الرجوع إلى وطنه. قال الفضيل بن عياض: المؤمن فى الدنيا مهموم حزين همُّه مرمة جهازه، ومن كان فى الدنيا كذلك فلا همَّ له إلا التزود بما ينفعه عند العودة إلى وطنه، فلا ينافس أهل البلد الذى هو غريب بينهم فى عزِّهم، ولا يجزع من الذل عندهم. قال الحسن: المؤمن كالغريب لا يجزع من ذلِّها ولا ينافس فى عزها، له شأن وللناس شأن.

---

(١) قال: من القيلولة، أى نام فى ظل شجرة وقت اشتداد الحر فى وقت القيلولة وهى نصف النهار.

الحال الثاني: أن ينزل المؤمن نفسه في الدنيا كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، وإنما هو سائر في قطع منازل السفر حتى ينتهي به السفر إلى آخره وهو الموت، ومن كانت هذه حاله في الدنيا فهمَّته تحصيل الزاد للسفر، فليس له همة للاستكثار من طلب متاع الدنيا، ولهذا وصى النبي -ﷺ- جماعة من أصحابه أن يكون بلاغهم من الدنيا كزاد الراكب. قيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة. وقال الحسن: إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك. وقال: ابن آدم، إنما أنت بين راحلتين مطيتين يوضعانك، يوضعك الليل إلى النهار والنهار إلى الليل، حتى يسلمانك إلى الآخرة، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطرًا. وقال: الموت معقود بنواصيكم.

وقال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره. كيف يفرح من يقود عمره إلى أجله وتقوده حياته إلى موته. وقال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال الفضيل: أتعرف تفسيره تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليُعدَّ للسؤال جوابًا، فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة، قال: ما هي؟ قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذْتَ بما مضى وما بقي.

وصية ابن عمر:

وأما وصية ابن عمر فهي مأخوذة من هذا الحديث الذي رواه، وهي متضمنة لنهاية قصر الأمل، وأن الإنسان إذا أمسى لم ينتظر الصباح وإذا أصبح لم ينتظر المساء، بل يظن أن أجله يدرك قبل ذلك، طرق أحدهم باب أخ له فسأل عنه فقيل له: ليس هو في البيت فقال: متى يرجع؟ فقالت له جارية من البيت: مَنْ كانت نفسه في يد غيره مَنْ يعلم متى يرجع؟.

ولأبى العتاهية:

وما أدرى وإن أملت عمرًا لعلى حين أصبح لست أمسي
ألم تر أن كل صباح يوم وعمرك فيه أقصر منه أمس

وهذا البيت أخذه مما رُوى عن أبى الدرداء الحسن أنهما قالا: ابن آدم، إنك لم تزل فى هدم عمرك مذ أُسقطت من بطن أمك. ومما أنشد بعض السلف:

إنَّا لَنفرحُ بالأيام نقطعُها وكلُّ يوم مضى يُدْنى من الأجَل
فاعملْ لنفسك قبل الموتِ مجتهداً فإنما الربحُ والخسرانُ فى العَملِ

قوله: «وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك». يعنى اغتنم الأعمال الصالحة فى الصحة قبل أن يحول بينك وبينها السقم، وفى الحياة قبل أن يحول بينك وبينها الموت. وفى رواية: «**فإنك يا عبد الله لا تدرى ما اسمك غداً**» يعنى لعلك غداً من الأموات دون الأحياء. وقد روى معنى هذه الوصية عن النبى -ﷺ- من وجوه. ففى صحيح البخارى عن ابن عباس عن النبى -ﷺ- قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ**». وفى صحيح الحاكم عن ابن عباس أن رسول لله -ﷺ- قال لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**». وقال غنيم بن قيس: كنا نتواعظ فى أول الإسلام: ابن آدم اعمل فى فراغك قبل شغلك، وفى شبابك لكبرك، وفى صحتك لمرضك، وفى دنياك لآخرتك، وفى حياتك لموتك. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى -ﷺ- : «**بادروا بالأعمال ستًا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخاصة أحدكم وأمر العامة**». وفى الترمذى عنه عن النبى -ﷺ- قال: «**بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنتظرون إلا إلى فقر مُنس أو غنى مُطغ أو مرض مفسد أو هرم مفند أو موت مجهز أو الدجال، فشرٌ غائبٌ منتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمرُّ**» والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال فبعضها يشغل عنه، إما فى خاصة الإنسان كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضها عام كقيام الساعة وخروج الدجال، وكذلك الفتن المزعجة، كما جاء فى حديث آخر: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم**»

وبعض هذه الأمور العامة لا ينفع بعدها عـمل، كما قال تعالى: ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي -ﷺ- قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا».

وفي المسند عن عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو ومعاوية عن النبي -ﷺ- قال: «لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طُبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل». وروى عن عائشة قالت: إذا خرج أول الآيات طرحت الأقلام وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال. خرجه ابن جرير الطبري.

وكذا قال كثير بن مرة، ويزيد بن شريح وغيرهما من السلف: إذا طلعت الشمس من مغربها طُبع على القلوب بما فيها وترفع الحفظة الأعمال وتُؤمر الملائكة أن لا يكتبوا عملاً، وقال سفيان الثوري: إذا طلعت الشمس من مغربها طوت الملائكة صحائفها ووضعت أقلامها. فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها ويُحال بينها وبينه، إما بمرض أو موت أو بأن يدركه بعض هذه الآيات التي لا يقبل معها عمل. قال أبو حازم: إن بضاعة الآخرة كاسدة يوشك أن تُنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليها ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية.

قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر:٥٤-٥٨]. انتهى من كتاب (جامع العلوم والحكم).

الباب الثاني

النـــار

قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

١ـ أهوال يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج: ١، ٢].

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه، ومُخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وأحوالها. وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة، هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[الزلزلة: ١ـ٢]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة. عن علقمة فى قوله ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قال: قبل الساعة[1]. وعن عامر الشعبى قال: هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة. وقد أورد الإمام ابن جرير فى حديث الصور عن أبى هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر. قال أبو هريرة: يا رسول الله، وما الصور؟ قال: قرن، قال: فكيف هو؟ قال: قرن عظيم يُنفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول:**

(١) ذكره ابن جرير وابن أبى حاتم عن إبراهيم عن علقمة.

انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها، ولا يفتر، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾[ص:١٥]، فتسير الجبال فتكون ترابًا، وتُرج الأرض بأهلها رجًّا، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾[النازعات:٦-٨]، فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح، فيمتد الناس على ظلالها، فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولي الناس مُدبرين ينادي بعضهم بعضًا، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[غافر:٣٢، ٣٣]، فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمرًا عظيمًا، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خُسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها ثم كُشطت عنهم، قال رسول الله -ﷺ-: والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك. قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[النمل:٨٧]، قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يُرزقون، ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه الله على شرار خلقه، وهو الذي يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]. وهذا الحديث دلَّ على أن الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، أُضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث منها:

(١) الحديث رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم.

قال البخارى عند تفسير هذه الآية: عن أبى سعيد الخدرى قال: قال النبى -ﷺ-: «ويقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تُخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: يا رب وما بَعْثُ النار؟ قال: من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشقَّ ذلك على الناس حتى تغيَّرت وجوههم، قال النبى -ﷺ-: من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود، إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبَّرنا، ثم قال: ثُلث أهل الجنة،فكبَّرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبَّرنا» أخرجه البخارى ومسلم.

وعن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا: أما عند الميزان حتى يقلَّ أو يخفَّ فلا، وأما عند تطاير الصحف إما يُعْطَى بيمينه وإما يُعطى بشماله فلا، وحين يخرج عَنُقٌ من النار فيطوى عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق: وُكِّلْتُ بثلاثة وُكِّلْتُ بثلاثة وُكِّلْتُ بثلاثة، وُكِّلْتُ بمن ادعى مع الله إلهًا آخر، ووُكِّلتُ بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووُكِّلْتُ بكل جبار عنيد، قال: فينطوى عليهم ويرميهم فى غمرات جهنم، ولجهنم جسر أرقُّ منَ الشعر وأحدُّ من السيف عليه كلاليب وحسَك يأخذان من شاء الله، والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: يا رب سلِّم سلِّم، فناجٍ مسلم، ومخدوش مسلم، ومكوَّر فى النار على وجهه»(١).

والأحاديث فى أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أى أمر عظيم وخطب جليل. والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب:١١]، ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عائشة مرفوعًا.

هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسراً له: ﴿ **تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ** ﴾ أى فتشغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها والتي هى أشفق الناس عليه فتدهش عنه فى حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿ **كُلُّ مُرْضِعَةٍ** ﴾ ولم يقل (مرضع)، وقال: ﴿ **عَمَّا أَرْضَعَتْ** ﴾ أى عن رضعيها وفطامه، وقوله: ﴿ **وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا** ﴾ أى قبل تمامه لشدة الهول ﴿ **وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى** ﴾ أى من شدة الأمر الذى قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم وغابت أذهانهم، فمن رآهم حَسِبَ أنهم سُكارى ﴿ **وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾.

٢ـ اللسان والنيران:

قال الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ [ق:١٦-٢٢].

يخبرتعالى عن قدرته على الإنسان بأن علمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفسه من الخير والشر، وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**إن الله تعالى تجاوز لأمتى ما حدَّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل**». وقوله عز وجل: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ**﴾ يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إله من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿**وَنَحنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ**﴾ كما قال فى المحتضر ﴿**ونحن أقرب إليه منكم ولكنْ لا تبصرونَ**﴾ يعنى ملائكته، فالملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لَمَّة،ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ**﴾ يعنى الملَكيْن اللذين يكتبان عمل الإنسان ﴿**عنِ اليمينِ وعنِ الشمال قَعيد**﴾ أى مترصد، ﴿**مَا يَلْفظ**﴾ أى ابن آدم ﴿**مِنْ قَوْل**﴾ أى ما يتكلم بكلمة ﴿**إلاَّ لَدَيه رَقيبٌ عَتيدٌ**﴾ أى إلاَ ولها من يرقبها

معَـدّ لذلك يكتبهـا، لا يترك كلمة ولا حـركة، كما قـال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقد اختلف العلمـاء: هل يكتب الملـك كل شىءمن الكلام[١]، أو إنما يكتب مـا فيـه ثواب وعقاب[٢] على قولين، وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد روى الإمام أحمد عن بلال بـن الحارث المزنى -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضـوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغـت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقـاه**»[٣]، فكان علقـمة يقـول: كم من كـلام قد منـعنيه حـديث بلال بن الحارث. وقـال الأحنف بن قيس: صـاحب اليمـين يكتب الخير وهو أمـين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها.

وقال الحسن البصرى وتلا هذه الآية ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يا ابن آدم، بُسطتْ لك صـحيفـة، ووُكِّلَ بك ملكانِ كريمـان أحدهما عـن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل مـا شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا متَّ طُويت صحيفتك وجُعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقال لك: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ثم يقول: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

وقال ابن عباس: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل مـا تكلم به من خيـر أو شـر حتى إنه ليكتـب قولَه: أكلتُ، شـربت، ذهبت، جئت، رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه

(١) وهو قول الحسن وقتادة.

(٢) وهو قول ابن عباس.

(٣) رواه أحمد والترمذى، والنسائى وابن ماجة.

من خير أو شر وألقى سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾ . وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْه تَحِيد**﴾ يقول عز وجل: وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أى كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه، ﴿**ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْه تَحِيد**﴾ أى هذا هو الذى كنت تفرُّ منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص ولافكاك ولا خلاص، **والصحيح** أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو، وقيل: الكافر، وقيل غير ذلك. رُوى أنه لما أن ثقل أبو بكر -رضي الله عنه- جاءت عائشة -رضي الله عنها- فتمثلت بهذا البيت:

لَعمرُكَ ما يُغنى الثَّراءُ عن الفتى ... إذا حَشْرَجتْ يومًا وضاق بها الصدْرُ

فكشف عن وجهه وقال -رضي الله عنه- ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْه تَحِيد**﴾ . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «**سبحان الله إن للموت لسكرات**».

وفى قوله: ﴿**ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْه تَحِيد**﴾ قولان: **أحدهما:** أن (ما) ها هنا موصولة، أى الذى كنت منه تحيد بمعنى: تبتعد وتفرُّ قد حلَّ ونزل بساحتك. **والقول الثانى:** أن (ما) نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ولا الحيد عنه.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿**ونُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يومُ الوَعِيد**﴾ قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور وذلك يوم القيامة، وفى الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يُؤذن له. قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فقال القوم: حسبنا والله ونعم الوكيل**». ﴿**وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيد**﴾ أى ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير، لما روى عن يحيى بن رافع قال:

سمعت عثمـان بن عفان -رضي الله عنه- يخطب فقرأ هذه الآية ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فقـال: سائق يسوقـها إلى الله تعالى، وشـاهد يشهدعليـها بما عملت، وكـذا قال مـجاهد وقتـادة، وقال أبو هريرة: السـائق الملك، والشهـيد العمـل، وكذا قال الضـحاك والسـدى، وقال ابن عـباس: السـائق من الملائكة، والشهيـد الإنسان نفسه يشهد على نـفسه وبه قال الضحاك أيضًـا. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ قيل: إن المراد بذلك الكافـر، وقيل: إن المراد بذلك كل أحـد من بر وفاجـر، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيـا كالمنام، وهذا اختيار ابن جرير[1]، والظاهر من السياق أن الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يعنى من هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى قوى، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مسـتبصرًا حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامـة على الاستقامة، لكن لا ينفعـهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[مريم:٣٨]، وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة:١٢].

٣- امتلاء جهنم أعاذنا الله منها:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾[ق:٢٣-٣٠].

يقول تعـالى مخـبرًا عن الملك الموكل بعـمل ابن آدم، أنه يشهـد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أى معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان، وقـال مجـاهد: هذا كلام المـلك السائق يقـول: هذا ابن آدم الذى وكلنى به قـد أحضرته، وقـد اختار ابن جرير أنه يعم السـائق والشهيد، وله اتجـاه وقوة، فعند

(١) وهو منقول عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

ذلك يحكم الله تعالى فى الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقد اختلف النحاة فى قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ فقال بعضهم: هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أتى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق معارض له بالباطل مع علمه بذلك، ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أى لا يؤدى ما عليه من الحقوق، لا بر ولا صلة ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾ أى فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد، وقال قتادة: معتد فى منطقه وسيره وأمره ﴿مُّرِيبٍ﴾ أى شاك فى أمره، مريب لمن نظر فى أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أى أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. عن أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وُكِّلْتُ اليوم بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومَنْ جعل مع الله إلهًا آخر، ومَنْ قتل نفسًا بغير نفس، فتنطوى عليهم فتقذفهم فى غمرات جهنم»(١).

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو الشيطان الذى وُكِّلَ به ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافرًا يتبرأ منه شيطانه فيقول ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: ما أضللته ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: بل كان هوفى نفسه ضالاً معاندًا للحق، كما أخبر سبحانه فى قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم:٢٢] الآية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدى الحق تعالى، فيقول الإنسى: يا رب هذا أضلَّنى عن الذكر بعد إذ جاءنى، ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى عن منهج الحق، فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أى عندى ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أى قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبراهين، ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قال مجاهد:

---

(١) أخرجه أحمد.

يعنى قد قضـيت ما أنا قاض، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: لست أُعذِّب أحدًا بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحدًا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ يخبر تعالى أنه يقول لجـهنم يوم القيامة: هل امتـلأت؟ وهى تقول: هل من مزيد؟ أى هل بقى شىء تزيدوننى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث.

روى البخارى عند تفسـير هذه الآية عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**يلقى فى النار وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط**». وروى الإمام أحـمد عن أنـس ـ رضي الله عنه ـ قال: قـال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا تزال جـهنم يُلقى فيـهـا وتقول هل من مـزيد؟ حتى يـضع رب العزة قـدمه فـيهـا فيـنزوى بعضـها إلى بعض وتقـول: قط قط وعزتك وكـرمك، ولا يزال فى الجنة فضل حتى يُنشيء الله لها خلقًا آخر فيسكنهم الله تعالى فى فضول الجنة**»[1].

حديث آخر: وروى البخارى عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثرت بالمتكبـرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفـاء الناس وسقطهم؟ قال الله عز وجل: للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتليء حتى يضع رجله فيـها فـتقول: قط قط، فـهنالك تمتليء وينزوى بعـضها إلى بعض لا يـظلم الله عز وجل من خلقـه أحـدًا، وأمـا الجنة فإن الله عـز وجل ينشـيء لها خلقًـا آخـر**»[2].

حديث آخر: روى مسلم فى صحـيحه عن أبى سعيد الخـدرى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**احتجت الجنة والنار فقـالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكـينهم، فقضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى، وقال للنار: إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها**»[3].

---

(١) أخرجه أحمد، ورواه مسلم فى صحيحه بنحوه.
(٢) أخرجه البخارى.
(٣) تفرد به الإمام مسلم.

وعن عكرمة ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وهل فىَّ مدخل واحد؟ قد امتلات. وقال مجاهد: لا يزال يقـذف فيها حتى تقول قد امتلأت فـتقول: هل من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحـو هذا. فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾ إنما هو بعد مـا يضع عليها قدمـه فتنزوى وتقول حـينئذ: هل بقى فىَّ مزيد يسع شيئًا؟ قال العوفى عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة. والله أعلم.

فائدة: جاء فى كتاب (التخويف من النار) لابن رجب الحنبلى: روى عطية عن ابن عبـاس قال: «الجنة فى السمـاء السابعـة، ويجعلها الله حـيث يشاء يوم القيـامة، وجـهنم فى الأرض السابعـة» خرَّجـه أبو نعيم، وروى ابن أبى الـدنيا بإسناده عن قتادة قال: «كانوا يقولون: إن الجنة فى السماوات السبع، وإن جهنم لفى الأرضين السبع».

٤- لا يُقبل من أهل النار فداء:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ٨-١٨].

يقول تعالى: العـذاب واقع بالكافرين ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾، قال ابن عباس ومجاهد، أى كدُرْدى الزيت، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أى كالصوف المنفوش، قال مجاهد وقـتادة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أى لا يسأل القريب قريبه عن حاله، وهو يراه فى أسوأ الأحوال فـتشغله نفسه عن غيره، قال ابن عباس، يعرف بعـضهم بعضًا ويتعارفون بينهم ثم يفـر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تـعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ

عن والده شيئًا﴾ [لقمان:٣٣]، وكقـوله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، وقوله تعالى: ﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه (١١) وصاحبته وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤويه (١٣) ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (١٤) كلا﴾ أى لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الذى كان فى الدنيا حشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدى من عذاب الله به، قال مجاهد والسدى ﴿فصيلته﴾ قبيلته وعشيرته، وقال عكرمة: فخذه الذى هو منه. وقوله تعالى: ﴿إنها لظى﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿نزاعة للشوى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، وعن ابن عباس ﴿نزاعة للشوى﴾ الجلود والهام. وقال أبو صالح ﴿نزاعة للشوى﴾ يعنى أطراف اليدين والرجلين. وقال الحسن البصرى: تحرق كل شىء فيه ويبقى فؤاده يصيح. وقال الضحاك: تبرى اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئًا، وقوله تعالى: ﴿تدعو من أدبر وتولى (١٧) وجمع فأوعى﴾ أى تدعو النار إليه أبناءها الذين خلقهم الله لها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطيرُ الحَبَّ، وذلك أنهم كانوا ممن أدبر وتولى، أى كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴿وجمع فأوعى﴾ أى جمع المال بعضه على بعض فأوعاه أى أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه فى النفقات ومن إخراج الزكاة، وقد ورد فى الحديث: «ولا توعى فيوعى الله عليك»، وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كسبًا، يقول: سمعت الله يقول: ﴿وجمع فأوعى﴾ وقال الحسن البصرى، يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا، وقال قتادة فى قوله: ﴿وجمع فأوعى﴾ قال: كان جموعًا قمومًا للخبيث.

٥- القيامة كأنك تراها:

قال رسول الله -ﷺ- : «مَنْ سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت﴾ و﴿إذا السماء انفطرت﴾ و﴿إذا السماء انشقت﴾

أخرجه أحمد.

قال الله تعـالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١-١٤].

قال ابن عباس: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يعنى أظلمت. وقال العوفى عنه: ذهبت. وقال مجاهد: اضمحلت وذهبت. وقال قتادة: ذهب ضوؤها. وقال سعيد بن جبير: ﴿كُوِّرَتْ﴾ غورت. وقال زيد بن أسلم: تقع على الأرض. وقال ابن جرير: الصواب من القول عندنا فى ذلك أن التكوير جمع الشىء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض. فمعنى قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ جمع بعضها إلى بعض ثم لُفَّت فرمى بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها. روى عن ابن عباس أنه قال: يكوِّر الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله ريحًا دبورًا فتضرمها نارًا[1].

وروى البخارى عن أبى هريرة عن النبى -ﷺ-: «**الشمس والقمر يكوَّران يوم القيامة**». وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أى انتثرت، كما قال تعالى: ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ وأصل الانكدار الانصباب. قال أُبىُّ بن كعب: ستٌّ آيات قبل يوم القيامة: بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم فى بعض، ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أهملها أهلها، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم[2]. وقال ابن عباس: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أى تغيَّرت، وعن يزيد بن أبى مريم

(١) أخرجه ابن أبى حاتم.
(٢) أخرجه ابن جرير.

مرفوعًا، «انكدرت فى جهنم، وكل من عُـبِدَ من دون الله فهو فى جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمه، ولو رضيا أن يُعْبَدا لدخلاها» رواه ابن أبى حاتم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أى زالت عن أماكنها ونُسفت فتُركت الأرض قاعًا صفصفًا، وقوله ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ عشار الإبل. قال مجاهد: ﴿عُطِّلَت﴾ تركت وسيبت، وقال أبى بن كعب: أهملها أهلهـا، وقال الربيع بن خيثم: لم تحلب وتخلَّى عنها أربابها. والمعنى فـى هذا كله متقارب، والمقصود أن العشار من الإبل وهى خيارها والحوامل منها، واحـدتها عشراء، قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفـاع بها بما دهمهم من الأمر العظيم الهائل، وهو أمر يوم القيامة ووقوع مقدماتها. وقـيل: بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها كذلك لا سبـيل لهم إليها. وقد قـيل فى العشار: إنهـا السحاب تعطَّل عن المسـير بين السماء والأرض لخراب الدنيا، والراجح أنها الإبل. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أى جُمـعت، كما قـال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، قال ابن عباس: يحـشر كل شىء حتى الذباب. وقال عكرمة: حشْرها موتها. وعن ابن عبـاس قال: حشر البهائم موتها وحـشـر كل شىء الموت غـيـر الجن والإنس[١]. وعن الربيع بن خـيـثم ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قـال: أتى عليـها أمـر الله. وعن أبى بن كـعب أنه قـال: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص:١٩]، أى مجموعة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال ابن عبـاس: يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعـرها وتصير ناراً تأجج، وفى سنن أبى دواد: «لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غـاز، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً» الحديث. وقال مجاهد: ﴿سُجِّرَتْ﴾ أُوقِّدت. وقـال الحسن: يبست. وقـال الضحاك وقـتادة: غاض مـاؤها فذهب فلم يبق فـيها قطرة. وقـال الضحـاك أيضًا: ﴿سُجِّرَتْ﴾ فُجِّرتْ. وقال السدى: فُتحت وصيِّرت.

---

(١) أخرجه ابن جرير.

وقوله تـعالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُـوسُ زُوِّجَت﴾ أى جُـمع كل شىء إلى نظيـره، كقوله تعالى: ﴿احْشُروا الذين ظَلَمُوا وأزواجَهُم﴾ أى الضرباء كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله. روى النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب خطب الناس فقرأ: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَت﴾ فقال: تزوجـها أن تؤلف كل شيعة إلى شيـعتهم، يُقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصـالح، ويُقرن بين الرجل السوء مع الرجل السـوء فى النار، فـذلك تزويج الأنفس[1]. وعن ابن عـباس فى قـوله تعـالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَت﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجًا ثلاثة. وقال مجاهد ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَت﴾ قال: الأمثال من الناس جمع بينهم. واختاره ابن جرير. وقـال الحسن البـصرى وعكرمـة: زُوِّجَت الأرواح بالأبدان وقـيل: زُوِّج المؤمنون بالحور العين، وزوِّج الكافرون بالشياطين[2].

وقوله تـعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَت﴾ الموءودة هى التى كانت أهل الجاهليـة يدسُّونها فى التراب كـراهية البنات، فيوم القيـامة تسأل الموءودة على أى ذنب قُتلتْ، ليكون ذلك تـهديدًا لقاتلها، فـإنه إذا سئُل المظلوم فمـا ظن الظالم إذن؟ وقال ابن عـباس: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَت﴾ أى سألت أى طالبت بدمها. وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة، فقال الإمام أحمد عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله -ﷺ- فى ناس وهو يقول: «**لقـد همـمت أن أنهى عن الغـيلة فـنظرت فى الروم وفـارس فـإذا هم يـغـيلون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئًا**» ثم سألوه عن العزل فـقال رسول الله -ﷺ-: «**ذلك الوأد الخفى وهو الموءودة سُئلت**»[3].

وروى الإمام أحمد عن سلمـة بن يزيد الجعفى قال: انطلقت أنا وأخى إلى رسول الله -ﷺ- فقلنا: يا رسـول الله إن أمنا مليكة كانت تصـل الرحم وتقرى الضيف، وتفعل، هلكت فى الجاهلـية فهل ذلك نافعها شيئًـا؟ قال: لا قلنا فإنها كانت وأدت أختا لنا فى الجاهلية فهل ذلك نافـعها شيئًا؟ قال: «**الوائدة والموءودة فى النار، إلا أن يدرك الوائدة الإسلامُ فـيعفـو الله عنها**»[4]. وفى الحديث: «**النبى**

(١) أخرجه ابن أبى حاتم.
(٢) حكاه القرطبى فى التذكرة.
(٣) أخرجه أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذى بنحوه.
(٤) أخرجه أحمد والنسائى.

في الجنة، والشهيد في الجنة والمولود في الجنة، والموءودة في الجنة»[(١)]. وعن قرة قال: سمعت الحسن يقول: قيل: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «الموءودة في الجنة»[(٢)]. وقال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ قال ابن عباس: هي المدفونة. وقال عبد الرزاق: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله -ﷺ- فقال: «يا رسول الله إني وأدت بنات لي في الجاهلية، قال: أعتق عن كل واحدة منهن رقبة، قال: يا رسول الله إني صاحب إبل، قال: فانحر عن كل واحدة منهن بدنة»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قال الضحاك: أُعطي كلُّ إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله، وقال قتادة: يا ابن آدم، تملي فيها ثم تُطوى، ثم تُنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قال مجاهد: اجتذبت. وقال السدي: كُشفت. وقال الضحاك: تنكشط فتذهب. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ قال السدي: أحميت. وقال قتادة: أُوقدت. قال: وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قال الضحاك: أي قُرِّبت إلى أهلها. وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو الجواب، أي إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال عمر لما بلغ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ قال: لهذا أُجري الحديث.

---

(١) أخرجه أحمد من حديث خنساء بنت معاوية الصريمية عن عمها قال: «قلت: يا رسول الله، مَنْ في الجنة؟ فقال: . . .» الحديث.

(٢) هذا من مراسيل الحسن ومنهم من قبله.

(٣) أخرجه عبدالرزاق والحافظ البزار بنحوه عن عمر بن الخطاب.

٦ـ من نوقش الحساب فقد عُذب:

قال الله تعـالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١ـ١٥].

يقول تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أى استمعت لربهـا وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقـاق، وذلك يوم القيامة ﴿وَحُقَّتْ﴾ أى وحق أن تطيع أمره لأنه العظيم الذى لا يمانع ولا يغالب، بل قد قهـر كل شيء. ثم قال: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أى بُسطت وفُـرشت ووسِّعت. وفى الحديث: «**إذا كان يوم القيـامة مدَّ الله الأرض مدَّ الأديم،حتـى لا يكون لبشر من الناس إلا مـوضع قدمـيه**»(١). وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أى ألقت مـا فى بطنها من الأمـوات وتخلت عنهم، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ كمـا تقدم، وقـوله : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أى إنك ساع إلى ربك سعيًا وعامل عملاً ﴿فَمُلاقِيهِ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**قال جبريل: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحـبب ما شئت فـإنك مفارقـه، واعمل ما شـئت فإنك ملاقـيه**»(٢). ومن الناس من يعيد الضـمير على قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ أى فمُلاق ربك، ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك. قال ابن عباس: تعمل عملاً تلقى الله به خيرًا كان أو شرًا. وقال قـتادة: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كـدحه فى طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله. ثم قال تـعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أى سهـلاً بلا تعسير أى لا يـحقق عليه جمـيع دقائق أعمـاله، فإن من

(١) أخرجه ابن جرير.
(٢) أخرجه أبو داود الطيالسى.

حوسب كذلك هلك لا محالة، روى الإمام أحـمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله -ﷺ-: «**مَنْ نُوقش الحـاسب عـُذِّب. قالت: فـقلت: أفليس قـال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العرض، مَنْ نُوقش الحاسب يوم القـيامة عُذِّب**»(١). وروى ابن جرير عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قـال رسول الله -ﷺ-: «**إنه ليس أحد يُحـاسبُ يوم القيـامة إلا مُعذَّبًا**». فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ **قال: ذاك العــرض، إنه مَنْ نُوقش الحـسـاب عـذِّب، وقـال بيــده على أصبـعـه كـأنه يَنكُت**»(٢). وفي روايةٍ عن عائشة قالت: «مَـنْ نُوقش الحساب ـ أو مَنْ حُوسب ـ عُذِّب. ثم قالت: إنما الحساب اليسير العرض على الله تعالى وهو يراهم»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي: ويرجع إلى أهله في الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ أي فرحًـا مغتـبطًا بما أعطاه الله عز وجل. وقـد روى الطبراني عن ثوبان مولى رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**إنكم تعملون أعمالاً لا تُعرف، ويوشك الغائـب أن يثوب إلى أهله فـمسروراً أو مكـظومًا**»(٤). وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي بشـماله من وراء ظهـره تثنى يده إلى ورائه، ويُعطَى كتابه بها كذلك ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أي خساراً وهلاكًا ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي فرحًا لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه فأعقبه ذلك الفرح اليسـير الحزن الطويل، ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي كان يعتـقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيـده بعد موته. قال ابن عبـاس وقتادة وغيـرهما: الحور هو الرجوع، قال الله: ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ يعني: بلى، سيعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإنه ﴿كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ أي عليمًا خبيراً.

٧ـ زلزلة الأرض يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ

(١) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي.
(٢) أخرجه الشيخان وابن جرير.
(٣) رواه ابن جرير.
(٤) أخرجه الطبراني.

يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ١-٨].

قال ابن عباس: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أى تحركت من أسفلها ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ يعنى ألقت ما فيها من الموتى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، وكقوله: ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ وفى الحديث: **«تلقى الأرضُ أفلاذَ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول: فى هذا قتلت. ويجيء القاطع فيقول: فى هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: فى هذا قُطعت يدي، ثم يَدَعُونَه فلا يأخذون منه شيئًا»**(١).

وقوله عز وجل ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ أى استنكر أمرها بعد ما كانت قارَّة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها، أى ثقلت الحال فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعدَّه لها، من الزلزال الذى لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما فى بطنها من الأموات من الأوَّلين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أى تحدث بما عمل العاملون على ظهرها، عن أبى هريرة قال: قرأ رسول الله -ﷺ- هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: **«أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»**(٢). وفى معجم الطبرانى: **«تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عاملٌ عليها خيرًا أو شرًا إلا وهى مُخْبِرَةٌ»**(٣).

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ قال البخارى: أوحى لها، وأوحى إليها، ووحى لها، ووحى إليها، وكذا قال ابن عباس: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أى أوحى إليها، والظاهر أن هذه مضمَّن بمعنى أذن لها، وقال ابن عباس: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة مرفوعًا.
(٢) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى.
(٣) أخرجه الحافظ الطبرانى.

أَخْبَارَهَا﴾ قال: قال لهــا ربها: قولى، فقالت. وقــال مجاهد: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أى أمرها، وقال القرطبى: أمرها أن تنشق عنهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أى يرجعون عن موقف الحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾ أى أنواعًا وأصنافًا ما بين شقى وسعيد، مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار، قال ابن جريج: يتصـدعون أشتاتًا فلا يجتمعون آخـر ما عليهم، وقال السدى ﴿أَشْتَاتًا﴾ فرقًا.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أى ليُجازَوْا بما عملوه فـى الدنيا من خير وشر، ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ روى البخـارى عن أبى هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: **«الخيل لـثلاثة: لرجل أجرٌ، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر»** الحديث، فسُـئل رسول الله -ﷺ- عن الحمر فقال: **«ما أنزل الله فيها شيـئًا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾»**[١]. وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبى -ﷺ- فقرأ عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قال: حسبى أن لا أسمع غيرها[٢]. وفى صحيـح البخارى عن عدى مـرفوعًا: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة»**. وله أيضًا فى الصحيح: **«لا تَحْقِرَنَّ من المعـروف شيئًا ولو أن تُفـرغ من دلوك فى إناء المسـتقي، ولو أن تلقى أخـاكَ ووجـهك إليه منبـسط»**[٣].

وفى الصحيح أَيَضًا: **«يا معشر النساء المؤمنات لا تحـقرن جارة لجارتها ولو فِرْسن شاة»**[٤] يعنى ظلفهـا. وفى الحديث الآخر: **«ردوا السائل ولو بظلف مـحرق»**.

وعن عائشة أن رسول الله -ﷺ- قال: **«يا عائشة، استترى من النار ولو بشق تمرة تسدّ من الجـائع مسـدَّها من الشبـعان»**[٥]. وروى عن عائشة أنهــا تصدَّقت بعنبة وقالت: كم فـيهـا من مثقـال ذرة. وروى ابن جرير عن عـبد الله بن عـمرو بن

(١) أخرجه الشيخان، واللفظ للبخارى.

(٢) أخرجه أحمد والنسائى.

(٣) أخرجه البخارى.

(٤) أخرجه البخارى أيضًا.

(٥) أخرجه أحمد.

العاص أنه قــال: لما نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق -رضي الله عنه- قاعــد، فبكى حــين أُنزلت، فقــال له رسول الله -ﷺ-: **«ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكينى هذه السورة، فقال له رسول الله -ﷺ-: لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لَخَلَقَ الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم»**(١).

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [الإنسان:٨]، كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشىء القليل إذا أعطوه فيجىء المسكين إلى أبوابهم، فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون: ما هذا بشىء إنما نؤجر على ما نعطى ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فرغبهم فى القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر، وحذَّرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾(٢) يعنى وزن أصغر النمل ﴿خَيْراً يَرَهُ﴾ يعنى فى كتابه ويسرُّه ذلك قال: يكتب لكل برٍّ وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حسنة عشر حسنات، فإذا كانت يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضًا بكل واحدة عشرًا ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله -ﷺ- قال: **«إياكم ومحقِّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهكلنَّه، وإن رسول الله -ﷺ- ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها»** أخرجه الإمام أحمد.

---

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم.

النار وما يقرّب إليها من قول أو عمل
اللهم أجرنا من النار ومن عذاب النار

٨ـ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة:

قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أما الوقود ما يُلْقى فى النار لإضرامها كالحطب ونحوه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، والمراد بالحجارة ههنا هى حجارة الكبريت، العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهى أشد الأحجار حراً إذا حُميت، أجارنا الله منها، وقال السدى فى تفسيره عن ابن مسعود ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أما الحجارة فهى حجارة فى النار من كبريت أسود يُعذَّبون به فى النار[1]. وقال مجاهد: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة. وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التى كانت تُعبد من دون الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[2] الآية. وإنما سيق هذا فى حرِّ هذه النار التى وعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]، وهكذا رجح القرطبى أن المراد بها الحجارة التى تُسعَّر بها النار تحمرُّ ويشتدُّ لهبها، قال: ليكون ذلك أشد عذابًا لأهلها.

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ الأظهر أن الضمير عائد إلى النار، ويحتمل عَوْدُه إلى الحجارة، كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين فى المعنى لأنهما متلازمان و﴿أُعِدَّتْ﴾ أى أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) حكاه القرطبى والرازى ورجحه على الأول، وقال ابن كثير، وهذا الذى قاله ليس بقوى.

لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّت﴾ أى أُرصدت وهيِّئت. وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها: «تحاجت الجنة والنار»، ومنها: «استأذنت النار ربها فقالت: رب أكل بعضى بعضًا فأذن لها بنفسين: نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف»، وحديث ابن مسعود: «سمعنا وَجْبَةً فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله -ﷺ-: «هذا حجر أُلْقِيَ به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» وهو مسند عند مسلم، وحديث صلاة الكسوف، وليلة الإسراء، وغير ذلك من الأحاديث المتواترة فى هذا المعنى، وقد خالفت المعتزلة بجهلهم فى هذا، ووافقهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس.

٩- عقاب كتمان ما أنزل الله:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[البقرة: ١٧٤-١٧٦].

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد -ﷺ- فى كتبهم التى بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى بذلك النزر اليسير فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدَّقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عونًا له على قتالهم، وباءوا بغضب على غضب وذمَّهم الله في كتابه في غير موضع، فمن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ أى: إنما يأكلون ما يأكلون فى مقابلة كتمان الحق نارًا

تأجج فى بطونهم يوم القيـامة، كما قـال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وفى الحديث الصحيح عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**إن الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم**».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أى يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذابًا أليمًا. عن أبى هريرة عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»[1]. ثم قال تعالى مخبرًا عنهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أى اعتاضوا عن الهدى - وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه - استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أى اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يخبر تعالى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذًا بالله من ذلك. وقيل: معنى قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى إنما استحقوا هذا العذاب الشديد، لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد -ﷺ- وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوًا، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته، فاستهزءوا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب

(١) رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه.

والنكال، ولهـذا قال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

١٠ـ آكل الربا يُبعث يوم القيامة مجنونًا يُخنق:

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة: ٢٧٥].

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدِّين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصدقات لذوى الحاجات والقرابات، فى جميع الأحوال والأوقات، شرع فى ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، وأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ أى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبُّط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا. وقال ابن عباس: آكل الربا يُبعث يوم القيامة مجنونًا يخنق. وحُكى عن عبد الله بن عباس وعكرمة والحسن وقتادة أنهم قالوا فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ يعنى لا يقومون يوم القيامة. وقال ابن جرير عن ابن عباس قال: يُقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، وقرأ: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ وذلك حين يقوم من قبره. وقال الرسول - ﷺ -: «أتيتُ ليلة أُسريَ بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجرى من خارج بطونهم، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: أكلة الربا»(١).

وعن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطويل: «فأتينا على نهر ـ حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم ـ وإذا فى النهر رجل يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وأحمد.

جمع الحجارة عنده فيَفْغَر له فاه فيُلقمه حجرًا، وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا»[1].

وقوله تـعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أى إنما جوزوا بذلك لاعـتراضهم على أحكام الله فى شـرعه، وليس هذا قياسًا منهم الربا على البيع، لأن المشركين لا يعـترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القـرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالـوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أى هو نظيره فلِمَ حُرِّم هذا وأُبيحَ هذا؟ وهذا اعتـراض منهم على الشرع، أى هذا مـثل هذا وقد أحل هذا وحـرم هذا. وقوله تعـالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ يحـتمـل أن يكون من تمام الكلام وردًا عليهم، أى ما قـالوه من الاعتراض مع علمهم بتفـريق الله بين هذا وهذا حكمًا، وهو العليم الحكيم الذى لا معقِّب لحكمه ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحهم وما ينفع عبـاده فيبيحه لهم وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل، ولهـذا قال: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى من بلغه نهى الله عن الربا فـانتهى حال وصول الشرع إليـه فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿**عفا الله عما سلف**﴾ وكما قال النبى -ﷺ- يوم فتح مكة: «**وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين، وأول ربا أضع ربا العـباس**»، ولم يأمرهـم بردِّ الزيادات المأخـوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾. قال سعيد بن جبير والسدى ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ ما كان أكل من الربا قبل التحريم، وقال ابن أبى حاتم عن أم يونس العاليـة بنت أبقع أن عائشة زوج النبى -ﷺ- قالت لهـا (أم بحنة) أم ولد زيد بن أرقـم: يا أم المؤمنين، أتعـرفـين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فـإنى بعتُه عبدًا إلى العطاء بثمـانمائة، فاحتاج فاشتـريته قبل محل الأجل بستمائة، فقـالت: بئس ما شريت وبئس ما اشتريت، أبلغى زيدًا أنه قـد أبطل جـهاده مع رسـول الله -ﷺ-، قـد بطل إن لم يتب، قـالت: قلت: أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة؟ قالت: نعم ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ

---

(١) رواه البخارى.

فانتهىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ وهذا الأثر مشهور، وهو دليل لمن حرَّم (مسألة العينة)[1] مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة في كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنَّة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي إلى الربا فقـعله بعد بلوغـه نهى الله عنه استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة، ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقـد قـال أبو داود عن جـابر قـال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال رسول الله -ﷺ-: «ومَنْ لم يذر المخـابرة فليـؤذن بحرب من الله ورسـوله»، وإنما حُرِّمـت (المخابرة) وهي المزارعة بـبعض ما يخـرج من الأرض، و(المزابنة) وهي اشتـراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، و(المحـاقلة) وهي اشتراء الحَبِّ في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حـرِّمت هذه الأشياء وما شاكلهـا حسمًا لمادة الربا، لأنه لا يُعْلَم التسـاوي بين الشيئـين قبل الجفـاف، ولهذا قال الفقـهاء الجهل بالمماثـلة كحقيقـة المفاضلة، ومن هذا حرموا أشـياء بما فهموا مـن تضييق المسالك المفضـية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه، وتفـاوت بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

وباب الربا من أشكل الأبواب على كـثيـر من أهل العلم، وقـد قال أمـير المؤمنين عـمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: ثلاث وددتُ أن رسـول الله -ﷺ- عهـد إلينا فيـهن عهدًا ننتـهي إليه: الجـد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا. يعني بذلك بعض المسائل التي فيهـا شائبة الربا، والشريعة شاهدة بأن كل حـرام فالوسيلة إليه مثـله، لأن ما أفضـى إلى الحرام حرام، كـما أن مـا لا يتم الواجب إلا به فـهو واجب، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «إن الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبـين ذلك أمور مشتبـهات، فمن اتقى الشبهـات استبرأ لدينه وعـرضه، ومن وقع في الشبهات وقـع في الحرام، كالراعي يرعى حـول الحمى يوشك أن يرتع فـيه». وفي السنن عن الحسن بن علي -رضي الله عنهما- قال: سـمعـت رسول الله -ﷺ- يقول: «دَع ما يُريبك إلـى ما لا يُريبك»، وفي

(١) العينة: أن يبيعه شـيئًا إلى أجل ثم يشتريه منه نقدًا بأقل مما باعه، وفي هذا شـبهة التحايل على أكل الربا، نسأل الله السلامة.

الحديث الآخر: «**الإثم ما حاك فى القلب، وترددت فيه النفس، وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**»، وفى رواية: «**استـفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفـتوك**». وقال ابن عباس: آخـر ما نزل على رسول الله -ﷺ- آية الربا. وعن أبى سعـيد الخدرى قال: حـدثنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فـقال: إنى لعلِّى أنهاكم عن أشـياء تصلح لكم، وآمركم بأشياء لا تصلح لكم، وإن من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قد مات رسول الله -ﷺ- ولم يُبيِّنه لنا، فـدعوا ما يريبـكم إلى ما لا يريبكم»[1]. وعن النبى -ﷺ- قال: «**الربا ثلاثة وسبـعون بابًا**». وعن أبى هريرة قـال: قال رسول الله -ﷺ-: «**الربا سبـعون جزءًا أيسـرها أن ينكح الرجل أمه**»[2]. وقال الإمام أحمـد عن أبى هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «**يأتى على الناس زمان يأكلون فـيـه الربا. قـال: قـيل لـه: الناس كلهم؟ قـال: مَنْ لم يأكله مـنهم ناله من غباره**».

ومن هذا القبـيل ـ تحريم الوسـائل المفضيـة إلى المحرمـات ـ الحديث الذى رُوِى عن عـائشة ـ رضي الله عنها ـ قـالت: لما نزلت الآيات من آخر سـورة البقـرة فى الربا قرأها رسـول الله، على الناس ثم حرَّم التجـارة فى الخمر. قـال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة، لما حُرِّم الربا ووسائله حُرِّم الخمر وما يفضى إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال عليـه السلام فى الحديث المتفق عليه: «**لعن الله اليهود حُرِّمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها**». وقوله -ﷺ-: «**لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه**»، وقالوا: وما يُشْهَد عليه ويُكْتَب، إلا إذا أظهر فى صورة عـقد شرعى ويكون داخله فـاسدًا، فالاعتبـار بمعناه لا بصورته، لأن الأعـمال بالـنيات، وفى الصـحـيح: «**إن الله لا ينظر إلى صـوركم ولا إلى أمـوالكم، وإنمـا ينظر إلى قلوبكم وأعـمـالكم**». وقـد صنف الإمـام العـلامـة (أبوالعباس بن تيـمية) كتابًا فى إبطال التحليل تضـمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى فى ذلك وشفى، فرحمه الله ورضى عنه.

---

(١) رواه ابن ماجة وابن مردويه.

(٢) رواه ابن ماجة والحاكم عن ابن مسعود، وزاد الحاكم: «وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم».

١١ـ لا ينفع الكافرين مال ولا بنون:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]. وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه، كما قال تعالى: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أى حطبها الذى تُسْجَر به وتُوقَدُ به، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] الآية.

وعن أم الفضل أن رسول الله -ﷺ- قام ليلة بمكة فقال: «**هل بلَّغت؟**» يقولها ثلاثًا، فقام عمر بن الخطاب ـ وكان أوَّاهًا ـ فقال: اللهم نعم، وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر فقال النبى -ﷺ-: «**لَيَظهرنَّ الإيمانُ حتى يُردَّنَّ الكفرُ إلى مواطنه، ولَيَخُوضنَّ رجال البحار بالإسلام، ولَيأتينَّ على الناس زمان يقرءون القرآن فيقرؤنه ويعلمونه، فيقولون: قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذى هو خير منا؟ فما من أولئك من خير. قالوا: يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك هم وقود النار**»[1].

١٢ـ لا فداء يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه.

قوله تــعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ أى من مات على الكفر فلن يُقــبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًــا فيما يراه قُربة، كـما سُئل النبى -ﷺ- عن عبد الله بن جدعــان ـ وكان يُقـرى الضيف ويفكُّ العـانى ويُطعم الطعام ـ هل ينفـعه ذلك؟ فقال: «لا. إنه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفـر لى خطيئتى يوم الدين»، وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضًا ذهبًا مـا قُبل منه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:١٢٣]، وقال: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم:٣١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٣٦]، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبًا، بوزن جبالها وتلالها وترابهــا ورمالها وسهلها ووعرها وبرِّها وبحرها.

عن أنس بن مالك أن النبى -ﷺ- قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم، فيـقول الله: قد أردت مـنك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فـى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئًا فأبيت إلا أن تشرك**»[١].

طريق آخر: وقــال الإمام أحــمد عن أنس قــال: قال رســول لله -ﷺ-: «**يُؤتى بالرجل من أهل الجنة فـيقول له: يا ابن آدم كـيف وجدت منزلك؟ فيـقول: أى رب خيـر منزل، فيـقول: سَلْ وتَمنَّ؟ فيـقول: ما أسـأل ولا أتمنى إلا أن تردَّنى إلى الدنيا فأُقـتلَ فى سبيلك عشر مرار، لما يرى من فـضل الشهادة. ويُؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: يا رب شر منزل، فيقول له: أتفـتدى منى بقلاع الأرض ذهبًا؟ فيقول: أى رب نعم، فـيقول: كذبت قـد سـألتك أقل من ذلك وأيسـر فـلم تفـعل، فُيـردُّ إلى النار**»[٢]، ولهــذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أى وما لهم من أحـد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه أحمد.

فائدة: ثبت فى الصحيحين أن رسول الله -ﷺ- قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا ربِّ أكل بعضى بعضًا، فأذن لها بنفسين، نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف، فأشدُّ ما تجدون فى الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون فى الصيف من حرِّها».

١٣ـ البخل والنار:

قال الله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أى لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه فى دينه وربما كان فى دنياه. ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، قال رسول الله -ﷺ-: «من آتاه الله مالاً فلم يُؤدِّ زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شُجاعًا[١] أقرع له زبيبتان يطوِّقه، يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى بشدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾»[٢] إلى آخر الآية.

حديث آخر: عن ابن عمر عن النبى -ﷺ- قال: «إن الذى لا يؤدى زكاة ماله يَمْثُلُ له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان ثم يلزمه يطوقه يقول: أنا مالك أنا كنزك؟»[٣].

حديث آخر: عن عبد الله بن مسعود عن النبى -ﷺ- قال: «ما من عبد لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له شجاعًا أقرع يتبعه يفرُّ منه فيتبعه فيقول: أنا كنزك، ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾»[٤].

(١) شُجاعًا وشجاعًا: نوع من الحيات.
(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة.
(٣) رواه أحمد والنسائى.
(٤) رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة.

وقال العـوفى عن ابن عـباس: نزلت فى أهل الكتـاب الذى بخلوا بما فى أيديهم من الكتب المنزلة أن يبيِّنوها، رواه ابن جـرير. والصحيح الأول وإن دخل هذا فى معناه. وقد يقال: إن هذا أولى بالدخول والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ أى ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [الحديد:٧]، فإن الأمور كلهـا مرجعها إلى الله عز وجل، فـقدموا من أمـوالك ما ينفـعكم يوم معـادكم ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أى بنياتكم وضمائركم.

١٤ـ النار لمن أكل مال اليتيم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

أى إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج فى بطونهم يوم القيـامة، وفى الصحـيحيـن عن أبى هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: **«اجتنبوا السبع الموبـقات. قيل: يا رسـول الله، وما هنَّ؟ قال: الشـرك بالله، والسحـر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»**. وقال السدى: يُبعث آكل مال اليتيم يوم القيامـة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسـامعه وأنفه وعينيـه، يعرفه كلٌ من رآه بآكل مـال اليتـيم. وقـال ابن مردويه عن أبى برزة أن رسـول الله -ﷺ- قال: **«يُبعث يوم القـيامـة القوم من قبـورهم تأجج أفواههم ناراً. قـيل: يا رسول الله من هم؟ قال: ألم تر أن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية»**. وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ-: **«أحرِّج مال الضعيفين: المرأة واليتيم»**(١) أى أوصيكم باجتناب مالهما».

١٥ـ الله لا يظلم خلقه:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا

(١) رواه ابن مردويه من حديث أبى هريرة.

(٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٠-٤٢].

يخبر جلّ ثناؤه بأنه سيوفيهم أجورهم، ولا يظلم خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء:٤٧] الآية، وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان:١٦] الآية، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة:٧،٨].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله -ﷺ- في حديث الشفاعة الطويل وفيه: «فيقول الله عز وجل، ارجعوا فمَنْ وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيُخرجون خلقًا كثيرًا»، ثم يقول أبو سعيد: اقرأوا إن شئتم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية.

وقال ابن أبي حاتم: قال عبد الله بن مسعود: يُوتىَ بالعبد أو الأمة يوم القيامة فيُنادي منادٍ على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها، ثم قرأ: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾، فيغفر الله من حقه ما يشاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئًا، فينصب للناس فيقول: ائتوا إلى الناس حقوقهم، فيقول: يا رب فنيت الدنيا من أين أُوتيهم حقوقهم؟ فيقول: خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر مظلمته، فإن كان وليًا لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يُدخله بها الجنة، ثم قرأ علينا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾. وإن كان عبدًا شقيًا. قال الملك: رب فنيت حسناته وبقي طالبون كثير، فيقول: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكًا إلى النار. ورواه ابن جرير. ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح. وروى عن سعيد بن جبير في قوله ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾: فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبدًا.

وقد يستدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال: «يا رسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء؟ قال: نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»، وقد يكون هذا خاصًا بأبي طالب من دون الكفار، بدليل ماروا أنس أن رسول الله -ﷺ- قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَم بها في الدنيا فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة»(١). وقال الحسن وقتادة: ﴿ويؤْتِ من لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى الجنة، نسأل الله رضاه والجنة. وروى ابن أبى حاتم عن أبى عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول: سمعت رسول الله-ﷺ- يقول: «إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة» فقال أبو هريرة: والله بل سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة» ثم تلا هذه الآية: ﴿وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ يقول تعالى مخبرًا عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه، فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد يعنى الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر:٦٩] الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل:٨٩] الآية. روى البخارى عن عبد الله بن مسعود قال: قال لى رسول الله -ﷺ-: «اقرأ عليَّ. فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت سورة النساء حتي أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ فقال: حسبك الآن، فإذا عيناه تذرفان».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أى لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس.

يحلُّ بهم من الخزى والفضيحة والتوبيخ، كقوله: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ [النبأ:٤٠] الآية، وقوله ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولايكتمون منه شيئًا. عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له: سمعت الله عز وجل يقول - يعنى إخباره عن المشركين يوم القيامة - إنهم قالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام:٢٣]، وقال فى الآية الأخرى: ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ فقال ابن عباس: أما قوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا فلنجحد فقالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾[1]. وقال عبد الرزاق عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف عليَّ فى القرآن، قال: ما هو؟ أشك فى القرآن؟ قال: ليس هو بالشك ولكن اختلاف، قال: فهات ما اختلف عليك من ذلك، قال: أسمع الله يقول: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام:٢٣]، وقال: ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ فقد كتموا، فقال ابن عباس: أما قوله ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لايغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره ولا يغفر شركًا جحد المشركون فقالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ رجاء أن يغفر لهم فختم على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك ﴿يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾ .

وقال الضحاك: إن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال: يا ابن عباس، قول الله تعالى: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾ وقوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فقال له ابن عباس: إنى أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت: ألقى على ابن عباس متشابه القرآن، فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة فى بقيع واحد، فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئًا إلا ممن وحَّده، فيقولون: تعالوا

---

(١) أخرجه ابن جرير.

نجحد، فـيسألهم فيـقولون: ﴿واللَّه ربِّنا ما كنَّا مشركين﴾ قال: فيـختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم، وتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين، فعند ذلك يتمنون لو أن الأرض سُوِّيت بهم ﴿ولا يكتمون اللَّه حديثا﴾. أخرجه ابن جرير عن الضحاك.

١٦ـ تبديل جلود أهل النار:

قال الله تعـالى: ﴿إنَّ الَّذين كفروا بآياتنا سوْف نُصْليهمْ نارًا كُلَّما نضجتْ جلُودُهُم بدَّلْناهُمْ جلُودًا غيْرها ليذُوقُوا الْعذاب إنَّ اللَّه كان عزيزًا حكيمًا﴾ [النساء:٥٦].

يخبـر تعالى عمـا يعاقب به فى نار جهنم من كـفر بآياته وصدَّ عن رسله فقال: ﴿إنَّ الَّذين كفرُوا بآياتنا﴾ الآية، أى ندخلهم نارًا دخـولاً يحيط بجـميع أجرامهم وأجـزائهم، ثم أخبر عن دوام عقوبتـهم ونكالهم فقال: ﴿كُلَّما نضجتْ جلودهم بدَّلْناهم جلودا غيـرها ليذُوقُوا الْعذاب﴾ قال الأعمش عـن ابن عمر: إذا احترقت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها بيضًا أمثال القراطيس. وعن الحسن فى قوله ﴿كُلَّما نضجتْ جلودهم﴾ الآية قال: تنضجهم فى اليوم سبعين ألف مرة، ثم قيل لهم، عودوا فعـادوا. عن ابن عمر قال: قرأ رجـل عند عمر هذه الآية: ﴿كُلَّما نضجتْ جلودُهم بدَّلْناهم جلودا غيْرها﴾ فقال عمر: أعـدها علىَّ، فأعادها، فقال معـاذ بن جبل، عندى تفسـيرها: تبدَّل فى سـاعة مائة مـرة، فقال عـمر: هكذا سمعت رسول الله -ﷺ-. وقال الربيع بن أنس: مكتوب فى الكتاب الأول أن جلد أحـدهم أربعون ذراعًـا، وسنُّه سبعـون ذراعًا، وبطنه لو وضع فـيه جـبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بُدِّلُوا جلودًا غيرها.

وقد ورد فى الحديث مـا هو أبلغ من هذا، قال الإمام أحمـد عن ابن عمر عن النبى -ﷺ- قال: «**يعظُم أهل النار فى النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مـسيرة سبـعمائة عام، وإن غِلَظَ جلده سـبعون ذراعًا، وإن ضـرسه مثل أُحُد**».

١٧ـ جزاء القتل العمد النار وغضب الجبار:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء:٩٣].

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذى هو مقرون بالشرك بالله فى غير ما آية فى كتاب الله، حيث يقول سبحانه فى سورة الفرقان: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الفرقان:٦٨] الآية، وقال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [الأنعام:١٥١] الآية.

والآيات والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جدًا، فمن ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله -ﷺ- : **«أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء»**، وفى حديث آخر: **«لَزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»**، وفى الحديث الآخر: **«من أعان على قتل المسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله»**. وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدًا. وقال البخارى عن المغيرة بن النعمان قال: سمعت ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ هى آخر ما نزل وما نسخها شىء. وقال فى هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى آخرها قال: نزلت فى أهل الشرك. وقال ابن جرير عن سعيد ابن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام ثم قتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم ولا توبة له، فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من ندم.

وروى سالم بن أبى الجعد قال: كنا عند ابن عباس بعد ما كُفَّ بصره، فأتاه رجل فناداه: يا عبد الله بن عباس ما ترى فى رجل قتل مؤمنًا متعمدًا؟ فقال: جزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا. قال: أفرأيت إن تاب وعمل عملاً صالحًا ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: ثكلته أمه وأنَّى له التوبة والهدى؟ والذى نفسى بيده لقد سمعت نبيكم -ﷺ- يقول: **«ثكلته أمه قاتل مؤمن متعمدًا، جاء يوم القيامة أخذه بيمينه أو بشماله تشجب أوداجه من قِبَلِ عرش الرحمن، يلزم قاتله بشماله وبيده الأخرى رأسه يقول: يا رب سَلْ هذا فيم قتلني؟ وأيم الذى نفس عبد الله بيده، لقد أُنزلت هذه الآية فما**

نسختها من آية حتى قُبض نبيكم -ﷺ- **وما نزل بعدها من برهان»**[1]. وعن ابن مسعود عن النبى -ﷺ- قال: «**يجيء المقتول متعلقًا بقاتله يوم القيامة آخذًا رأسه بيده الأخرى فـيقول: يا رب سل هذا فيم قتلنـي؟ قال: فيقول: قتـلته لتكون العزة لك. فيقـول: فإنها لي. قال: ويجيء آخر مـتعلقًا بقاتله فيـقول: رب سل هذا فيم قتلني؟ قال: فيقول: قتلته لتكون العـزة لفلان، قال: فإنها ليست له، بؤ بإثمه، قال: فيهوى فى النار سبعين خريفًا**»[2].

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن أبى إدريس قـال: سمعت معاوية -رضي الله عنه- يقول: سمعت النبى -ﷺ- يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كـافرًا، والرجل يقـتل مـؤمنًا متعمـدًا**». والذى عليه الجـمهـور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، ، فإن تاب وأناب وخشع وضلع وعمل عملاً صالحًا بدَّل الله سيئـاته حسنات، وعوَّض المقتول من ظلامته. قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ - إلى قوله - ﴿ **وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا** ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠] الآيات، وهذا خبـر لا يجوز نسخـه وحمله على المشركـين، وحمل هـذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحـتاج حـمله إلى دليل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾[الزمر:٥٣] الآية وهذا عـام فى جميـع الذنوب من كفـر وشرك ونفـاق وقتل وفسق وغير ذلك، وكل من تاب تاب الله عليه، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء:٤٨]، فهذه الآية عامـة فى جميع الذنوب مـا عدا الشـرك وهى مـذكورة فـى هذه السورة الكريـمة بعـد هذه الآية وقبلها، لتقـوية الرجاء، والله أعلم، وثبت فى الصحيحين خـبر الإسرائيلى الذى قتل مـائة نفس ثم سـأل عالمًا: هل لى من توبة؟ فـقال: ومن يحـول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يُعـبد الله فيه، فهاجـر إليه فمات فى الطريق، فقـبضته

(١) أخرجه ابن جرير عن سالم بن أبى الجعد.

(٢) رواه أحمد والنسائى. ومعنى (بؤ) أى ارجع بإثمه.

ملائكة الرحمة، كما ذكرناه غير مرة، وإن كان هذا فى بنى إسرائيل فلأن يكون فى هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التى كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة.

فأما الآية الكريمة وهى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية فقد قال: أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، وكذا كل وعيد على ذنب. لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول هذا الجزاء إليه على قولى أصحاب الموازنة والإحباط، وهذا أحسن ما يسلك فى باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. وبتقدير دخول القاتل فى النار، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا تؤبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحًا ينجو به فليس بمخلَّد فيها أبدًا، بل الخلود هو المُكْثُ الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله -ﷺ- : «**أنه يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان**». وأما حديث معاوية: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أوالرجل يقتل مؤمنًا متعمداً**» فعسى للترجى، فإذا انتفى الترجى فى هاتين الصورتين لانتفى وقوع ذلك فى أحدهما وهو القتل، لما ذكرنا من الأدلة.

وأما من مات كافراً فالنص أن الله لا يغفر له ألبتة، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين وهى لا تسقط بالتوبة، ولكن لابد من ردها إليهم. ولا فرق بين المقتول والمسروق منه والمغصوب منه وسائر حقوق الآدميين فإن الإجماع منعقد على أنها لاتسقط بالتوبة ولكن لابد من ردها إليهم فى صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلابد من المطالبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ورفع درجته فيها ونحو ذلك، والله أعلم.

ثم لقاتل العمد أحكام فى الدنيا وأحكام فى الآخرة، فأما فى الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾

الآية [الإسراء:٣٣]، ثم هم مُـخيَّـرون بين أن يقـتلوا، أو يعـفوا، أو يأخـذوا دية مغلظة: أثلاثًا، ثلاثون حـقَّة وثلاثون جذعة وأربعـون خلفة، كما هو مـقرر فى كتب الأحكام، واختلف الأئمة: هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعـين، أو إطعام، على أحد القولين، كما تقدم فـى كفارة الخطأ على قولين، فالشافـعى وأصحابه وطائفة من العلماء يقـولون: نعم يجب عليه لأنه إذا وجبت عليه الكفـارة فى الخطأ فلأن تجب عليـه فى العمد أولى، فطردوا هذا فى كـفارة اليمين الغمـوس. وقال أصحاب الإمام أحمد وآخـرون: قتل العمدُ أعظم من أن يكفَّر فـلا كفارة فيـه، وكذا اليميـن الغموس، وقد احـتج من ذهب إلى وجوب الكفارة فى قتل العـمد بما رواه الإمام أحمد عن واثلـة بن الأسقع قال: أتى النبى -ﷺ- نفر من بنى سليم فقالوا: إن صـاحبًا لنا قد أوجب، قال: **«فَلْيَعْتِقْ رقبة يفدى الله بكل عضو منها عضواً منه من النار»**.

١٨ـ من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[النساء:٢٩، ٣٠].

وأورد ابن مردويه عند هذه الآيـة الكريمة عن أبى هريرة قال: قـال رسول الله -ﷺ-: **«من قتل نفسـه بحديدة فحديدته فى يده يَجَأ بها بطنه يوم الـقيامة فى نار جهنم خالداً مخلَّدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بسُمٍّ فسمُّه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدًا مخلداً فيها أبدًا»**. وفى الصحيحين: **«من قتل نفسه بشيء عُذِّب به يوم القيامة»**. وفى الصحيـحين عن جندب بن عبد الله البجلى قـال: قال رسول الله -ﷺ-: **«كان رجل ممن قـبلكم وكان به جُرح فأخـذ سكينًا نحر بها يده فـما رقأ الدم حـتى مات، قال الله عز وجل: عـبدى بادرنى بنفسه حـرَّمتُ عليه الجنة»**، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾أى ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتديًا فيه ظالمًا فى تعاطيه، أى عالمًا بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد.

١٩- النار لمن كان فى شق والشرع فى شق:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أى ومن سلك غير طريق الشريعة التى جاء بها الرسول -ﷺ- فصار فى شق والشرع فى شق وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له. وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقًا، فإنه قد ضمنت لهم العصمة فى اجتماعهم من الخطأ، تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة فى ذلك، ومن العلماء من ادَّعى تواتر معناها، والذى عول عليه الشافعى رحمه الله فى الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروى والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك، ولهذا توعَّد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أى إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها فى صدره ونزينها له استدراجًا له، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وجعل النار مصيره فى الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

٢٠- إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٧].

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أى يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ. قال ابن عباس: أى فى أسفل النار، وقال غيره النار دركات كما أن الجنة درجات وقال سفيان الثورى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: فى توابيت ترتج عليهم، وعن أبى هريرة قال: ﴿الدَّرْكِ الأَسْفَلِ﴾ بيوت لها أبواب تُطْبَقُ عليهم فتوقَد من تحتهم ومن فوقهم. قال ابن جرير عن عبد الله بن مسعود: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: فى توابيت من نار تطبق عليهم أى مغلقة مقفلة، ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أى ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب.

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم فى الدنيا تاب عليه وقَبِلَ ندمه إذا أخلص فى توبته وأصلح عمله واعتصم بربه فى جميع أمره، فقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أى بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قلَّ. قال ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل أن رسول الله -ﷺ- قال: «أخلص دينك يكفكَ القليل من العمل». ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى من زمرتهم يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عمَّن سواه وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ أى أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أى من شكر شكر له، ومن آمن قلبه به علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء. ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾[الأنعام:٩٤]، أى فى العبادة، لهم فيكم قسط فى استحقاق العبادة لهم، ثم قال تعالى: ﴿لقد تقطَّع بينكم﴾ قُرِىء بالرفع أى شملكم، وبالنصب أى تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل، ﴿وضلَّ عنكم﴾ أى ذهب عنكم ﴿ما كنتم تَزْعُمونَ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد، كقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦].

٢١ـ أهل النار يلعن بعضهم بعضًا:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٣٨، ٣٩].

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أى من أمثالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أى من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أى: مع أمم، وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أى اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ﴾ أى أخراهم دخولاً وهم (الأتباع)لأولاهم وهم (المتبوعون) لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أى أضعف عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية [الأحزاب:٦٧، ٦٨]، وقوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أى قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه، كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ الآية [النحل:٨٨]، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [النحل:٢٥]، ﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾ أى قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدى: لقد ضللتم كما ضللنا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم فى حال محشرهم فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ الآيات [سبأ:٣١].

٢٢ـ روح الكافر وانقطاع الدنيا وإقبال الآخرة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١].

وقوله تعالى: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء(١)، وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم باب السماء(٢)، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله -ﷺ- فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلْحَد، فجلس رسول الله -ﷺ- وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود يَنْكُتُ به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثًا ـ ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملَك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما يسيل القَطْرُ فى السِّقَاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض، فيصعدون بها فلا يمرُّون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمُّونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيُفتح له، فيشيِّعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى علِّيينَ وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتُهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارة أخري، قال: فتعاد روحه، فيأتيه ملَكان يُجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟**

---

(١) قاله مجاهد وسعيد بن جبير، ورواه العوفى عن ابن عباس.

(٢) رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال السدى.

فيقول: هو رسول الله -ﷺ-، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدَّقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا من الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويُفسح له قبره مدَّ البصر، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول له: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول:رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما يُنتزَع السفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُسمَّى بها في الدنيا،حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله -ﷺ-: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلي، فتُطرح روحه طرحًا. ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١]، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان يجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول:هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويُضيِّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك

الخبيث، **فيقول: رب لا تُقم الساعة**. وقد قال ابن جريج: لا تُفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير. قال الحسن البصرى: حتى يدخل البعير فى خرق الإبرة[1]. وقرأ ابن عباس: بضم الجيم وتشديد الميم، يعنى الحبل الغليظ في خرق الإبرة، وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفى رواية أنه قرأ: ﴿**حَتَّىٰ يَلِجَ الْجُمَّلُ**﴾ يعنى قلوس السفن وهي الحبال الغلاظ. وقوله: ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ**﴾ المراد: الفرش ﴿**وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**﴾ اللحف، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدى ﴿**وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾.

٢٣ـ النار لمن صدَّ عن سبيل الله ولمن منع الزكاة:

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

قال السدى: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى ﴿**لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ**﴾ [المائدة: ٦٣]، والرهبان: عبَّاد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا**﴾ [المائدة: ٨٢]، والمقصود التحذير من علماء السوء وعبّاد الضلال. قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى، وفى الحديث الصحيح: «**لَتركبنَّ سُنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة. قالوا: اليهود والنصاري؟ قال: فَمَنْ؟**»، وفى رواية: «**فارس والروم؟ قال: فمن الناس إلا هؤلاء؟**». والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم،

---

(١) هذا قول جمهور السلف منهم أبو العالية والضحاك وابن مسعود، ورواه العوفى عن ابن عباس.

ولهذا قـال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ذلك بأنهم يأكلون الدنيـا بالدين، ومناصـبـهم ورياستـهم فى الناس يأكلون أمـوالهم بذلك، كمـا كان لأحبار اليـهود على أهل الجاهلية خـراج وهدايا وضراب تجىء إليهم فلمـا بعث الله رسوله -ﷺ- استـمروا على ضلالهم وكـفرهم وعنادهم طمعًـا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسـات فأطفأها الله بنور النبـوة وسلبهم إياها، وعوَّضهم الذلَّ والصَّغارَ، وباءوا بغضب من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى وهم مع أكلهم الحرام يصدُّون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطـل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخيـر، وليسوا كمـا يزعمون، بل هم دعاة إلى النار ويوم القـيامة لا يُنصرون. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، هؤلاء هم القسم الثـالث من رؤوس الناس، فإن الناس عـالة على العلماء وعلى العُـبَّاد وعلى أرباب الأمـوال، فإذا فـسدت أحـوال هؤلاء فسـدت أحوال الناس، كما قال ابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوكُ وأحـبارُ سـوء ورهـبانُها

وأما الكنز، فـقال ابن عمر: هو المال الذى لا تُؤدَّى زكاتـه. وعنه قال: ما أُدِّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدَّى زكاته فهو كنز[1]. وقال عمـر بن الخطاب: أيما مال أُدِّيت زكـاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً فى الأرض، وأيمـا مال لم تؤدَّ زكاته فهو كنز يُكوى به صـاحبه وإن كان على وجه الأرض، وروى البخارى عن خالد بـن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله ابن عمر فقـال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلهـا الله طهرة للأموال، وكذا قال عمـر بن عبد العزيز، وعراك بن مالك، نسخـها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية [التوبة: ١٠٣].

قال الإمام أحمد عن ثوبان قـال: لما نزل فى الذهب والفضة ما نزل قالوا: فأى المال نتخذ؟ قـال عمر فأنا أعلمكم ذلك، فأوضع على بعـير فأدركه وأنا فى

(١) ورُوى هذا عن ابن عباس وجابر وأبى هريرة وغيرهم.

أثره، فقــال: يا رسول الله، أىُّ المال نتخــذ؟ قال: «**قلبًا شــاكرًا، ولســانًا ذاكرًا، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة**».

حديــث آخر: روى ابن أبى حاتم عــن ابن عباس قــال: لما نزلت هذه الآية ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ**﴾ الآية، كَبُــرَ ذلك على المسلميــن، وقالوا: ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالاً يبقى بعده، فــقال عمر: أنا أفرِّج عنكم، فانطلق عــمر واتبــعه ثوبان، فــأتى النبى -ﷺ- فــقال: يا نبى الله، إنه قــد كَبُــرَ على أصــحابك هذه الآية، فــقال رســول الله -ﷺ-: «**إن الله لم يفــرض الزكــاة إلا ليطيِّب بها ما بقى من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم**» قال: فكبَّــر عمر، ثم قــال له النبى -ﷺ-: «**ألا أُخــبرك بخــيــر مــا يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، التى إذا نظر إليها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته**»[1].

وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ أى يقال لهم هذا الكلام تبكيــتًــا وتقريعًــا وتهكمًــا، كــما قــال تعــالى: ﴿**ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ [الدخان: ٤٩]، أى هذا بذاك وهذا الذى كنتم تكنزون لأنفــسكم، ولهذا يــقال: من أحب شيئًا وقدَّمه على طاعــة الله عُذِّب به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضــا الله عنهم عُــذِّبوا بها، وكــانت أضــر الأشيــاء عليــهم فى الدار الآخــرة، فيــحمى عليــها فى نار جــهنم وناهيك بحــرِّها، فتكوى بهــا جبــاههم وجنوبهم وظهورهم. قال عــبد الله بن مسعود: والذى لا إله غيــره لا يكوى عبد يكنز فيــمسُّ دينار دينارًا ولا درهم درهمًا، ولكن يوسع جلده فــيوضع كل دينار ودرهم على حدته. وقــال طاووس: بلغنى أن الكنز يتحول يوم القــيامة شجــاعًا يتبع صــاحبه وهــو يفرُّ منه ويقول: أنا كنزك لا يدرك مــنه شيئًــا إلا أخذه. وفى صحيح مــسلم عن أبى هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «**ما من رجل لا يؤدى زكاة مــاله إلا جعل لــه يوم القيــامة صفــائح من نار، فــيُكوى بها جــبينه وجــبهــته وظهره، فى يوم كــان مقداره خمــسين ألف سنة، حتى يقضى بين العــباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**»

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم فى المستدرك وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

٢٤. قل نار جهنم أشد حراً:

قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

يقول تعالى ذامًا المنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله -ﷺ- في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، قال الله تعالي لرسوله -ﷺ-: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر بل أشد حرًا من النار، كما قال رسول الله -ﷺ-: «نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم. قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال: فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً»(١). وعن أبي هريرة عن النبي -ﷺ- قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت في البحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»(٢). وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودَّت، فهي سوداء كالليل المظلم». وعن أنس قال: تلا رسول الله -ﷺ- ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيَضَّت، وألف عام حتى احمرَّت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل لا يضيء لهبها»(٣). والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة.

وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ

(١) رواه البخاري ومسلم ومالك عن أبي هريرة.
(٢) أخرجه أحمد، قال ابن كثير: إسناده صحيح.
(٣) أخرجه ابن مردويه.

جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، وقال تعالى هنا: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أى لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر، ليتقوا به من حر جهنم الذى هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الشاعر:

كالمستجير من الرَّمضاءِ بالنارِ

ثم قال تعالى جل جلاله متوعدًا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً﴾ الآية، قال ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبدًا، وقال الحافظ الموصلى عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «**يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أن سفنًا أُزْجِيَتْ فيها لَجَرَتْ**»(١).

٢٥ـ فرعون يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار:

قال الله تعالى: ﴿**ولقد أرْسَلْنا مُوسى بآياتنا وسُلطان مُبين إلى فرعونَ وملئه فاتَّبعوا أمْرَ فرعونَ وما أمرُ فرعون برَشيد يَقْدُمُ قومَه يومَ القيامة فأوردهمُ النارُ وبئسَ الوردُ المَوْرُودُ وأُتْبِعُوا فى هذه لَعْنَةً ويومَ القيامة بئس الرِّفْدُ المَرْفُودُ**﴾ [هود:٩٦ـ٩٩].

يقول تعالى مخبرًا عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه ﴿**فاتَّبعوا أمْرَ فرعون**﴾ أى منهجه ومسلكه وطريقته فى الغى ﴿**وما أمرُ فرعون برَشيد**﴾ أى ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا وكان فى مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم ﴿**يَقْدُمُ قومَه يومَ القيامة فأوردهمُ النارُ وبئس الوِرْدُ المَوْرُود**﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين فى العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿**لكلٍّ ضعفٌ ولكنْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ

---

(١) رواه ابن ماجة والحافظ الموصلى.

ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية [الأحزاب:٦٨]، وقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان. وقال ابن عباس: لعنة الدنيا والآخرة[١]، وهو كقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤٢].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠٠، ١٠١].

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجّى المؤمنين قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى﴾ أي أخبارهم ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أي عامر ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي هالك، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي إذ أهلكناهم، ﴿وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ قال مجاهد وقتادة: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبلك القرون الظالمة المكذّبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. وفي الصحيحين عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إن الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته، ثم قرأ -ﷺ-: ﴿وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إذا أخذ القُرى وهي ظالمةٌ﴾» الآية.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ

(١) وكذا قال الضحاك وقتادة.

مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٣ ـ ١٠٥].

يقول تعالى: إن فى إهلاكنا للكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿لآيَةً﴾ أى عظة واعتبارًا على صدق موعودنا فى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الآية [إبراهيم:١٣]، ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ أى أولهم وآخرهم، كقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]، ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أى عظيم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل وتُحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة، وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أى ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم، ضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة، ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أى لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ﴾ أى يوم يأتى يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله، كقوله: ﴿لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]، وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم»، وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أى فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]، ثم بيَّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

٢٦ـ الخلود فى النار:

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٦، ١٠٧].

يقول تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال ابن عباس: الزفير فى الحلق، والشهيق فى الصدر، أى تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ قال ابن جرير: من عادة

العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض. وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار. يعنون بذلك كله أبدًا، فخاطبهم جلَّ ثناؤه بما يتعاوفونه بينهم فقال: ﴿خالدينَ فيها ما دامت السَّموات والأرض﴾ قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس، لأنه لابد فى عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يومَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾[إبراهيم:٤٨]، ولهذا قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ما دامت السَّموات والأرض﴾ قال: يقول سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه، ما دامت تلك السماء وتلك الأرض، وعن ابن عباس قال: لكل جنة سماء وأرض. وقال ابن أسلم: ما دامت الأرض أرضًا والسماء سماءً. وقوله: ﴿إلا ما شاء ربُّك إن ربك فعَّال لما يريد﴾[هود:١٠٧]، كقوله: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٢٨]، وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة نقل كثيراً منها ابن جرير رحمه الله، واختار أن الاستثناء عائد على(العصاة) من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط وقال يومًا من الدهر: لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله -ﷺ- ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا، وقال السدى: هى منسوخة بقوله: ﴿خالدين فيها أبدًا﴾

٢٧ـ فريق فى الجنة وفريق فى السعير:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحدةً ولاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَنْ رَحِمَ ربُّك ولذلك خَلَقَهُم وتَمَّتْ كلمةُ ربِّك لأملأنَّ جهنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[هود:١١٨،١١٩].

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[يونس:٩٩]، وقوله: ﴿ولاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَنْ رَحِمَ ربُّك﴾أى ولا يزال الخلف بين الناس

فى أديانهم واعتقــادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. قال عكرمة: مـختلفين فى الهدى. وقوله: ﴿إلا مَنْ رَحِمَ ربُّكَ﴾ أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أُمروا به من الدين، أخبـرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبى وخـاتم الرسل والأنبياء فاتبـعوه وصدَّقوه وآزروه، ففـازوا بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم الفرقـة الناجية. وقال عطاء ﴿ولاَ يَزَالُونَ مُخْتَلفِينَ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس ﴿إلاَ مَنْ رَحِمَ ربُّكَ﴾ يعنى الحنيفية، وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجمـاعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيـته أهل الفرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم. وقوله: ﴿ولذلك خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصرى: وللاختـلاف خلقهم. وقال ابن عبـاس: خلقهم فريقين كـقوله: ﴿فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ﴾، وعن ابن عباس قال: للرحمـة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. ويرجع مـعنى هذا القول إلـى قوله تعـالى: ﴿ومَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإنس إلاَّ لِيَعْبُدُون﴾ [الذريات:٥٦]، وللرحمة وللاختلاف خلقهم كـما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله: ﴿ولاَ يَزَالُونَ مُخْتَلفِينَ﴾ قال: الناس مخـتلفون على أديان شتى ﴿إلا مَنْ رَحِمَ ربُّكَ﴾ فـمن رحم ربك غـيـر مخـتلف، فـقـيل له: لذلك خلقـهم، قـال: خلق هؤلاء لجنتــه، وخلق هؤلاء لـناره، وخلق هؤلاء لعـذابه، وقـال ابن وهب: سألت مـالكًا عن قوله تـعالى: ﴿ولاَ يَزَالُونَ مُخْتَلفِينَ إلا مَنْ رَحِمَ ربُّك ولذلك خَلَقَهُمْ﴾ قال: فريق فى الجنة وفـريق فى السعير. وقد اخـتار هذا القول ابن جرير. وقوله: ﴿وتَمَّت كلمةُ ربك لأملأنَّ جـهنَّمَ من الجنَّة والناس أجمعين﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستـحق الجنة، ومنهم من يستـحق النار، وأنه لابد أن يملأ جـهنم من هذين الثقلين (الجن والإنس) وله الحـجة البالغة والحكمـة التامة، وفى الصحـيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لى لا يدخلنـى إلا ضـعـفـاء الناس وسـقطهم، وقـالت النار: أُوثرت بـالمتكبـرين والمتـجبـرين، فقـال الله عز وجل للجـنة: أنت رحمـتى أرحم بك من أشاء، وقـال للنار، أنت عذابى أنتـقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فـأما الجنة فلا يزال فيـها فضل حـتى ينشيء الله لها خلقًـا يسكن فضل الجنة، وأمـا النار فلا تزال تقـول: ﴿هل من مـزيد﴾ حـتى يضع عليـهـا رب العـزة قـدمه فـتـقـول: قط قط وعزتك**».

٢٨- النار لمن أنكر المعاد:

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

يقول تعالى لرسوله محمد -ﷺ-: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا، ثم هم بعد هذا يكذبون في أنه سيعيد العالم خلقًا جديدًا، فالعجب من قولهم ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي يُسحبون بها في النار ﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ماكثون فيها أبدًا لا يحولون عنها ولا يزولون.

٢٩- أفعال المنافقين التي أوردتهم النار:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّثَ كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمن خان» ولهذا قال: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل ﴿ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾

وقال أبو العالية: هى ست خصال فى المنافقين إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يُوصل، وأفسدوا فى الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث خصال: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا.

٣٠ـ إهلاك الظالمين:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٣ـ١٧].

يخبر تعالى عما توعَّدت به الأمم الكافرة رسلَهم من الإخراج من أرضهم والنفى من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ الآية [الأعراف:٨٨]، وكما قال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [النمل:٥٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أى: وعيدى، هذا لمن خاف مقامى بين يدى يوم القيامة، وخشى من وعيدى وهو تخويفى وعذابى، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧ـ٣٩]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقوله:

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أى: استنصرت الرسل ربها على قومهم[1]، وقال ابن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال:٣٢]، ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر: واستفتح رسول الله -ﷺ- واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾الآية [الأنفال:١٩].

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: متجبر فى نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾[ق:٢٤، ٢٥]. وفى الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادى الخلائق فتقول: إنى وُكِّلتُ بكلِّ جبارٍ عنيد» الحديث.

وقوله: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[الكهف:٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها: (وكان أمامهم ملك) أى: من وراء الجبار العنيد جهنم، أى: هى له بالمرصاد يسكنها مخلَّداً يوم المعاد، ويُعرَض عليها غدواً وعشيًا إلى يوم التناد، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أى: فى النار ليس له شراب إلا من حميم وغسَّاق، فهذا حار فى غاية الحرارة، وهذا بارد فى غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾[ص:٥٧، ٥٨]، قال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفى رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم.

وفى حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار». وفى رواية: «عصارة أهل النار». وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة عن النبى -ﷺ- فى قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ قال: «يُقرَّب إليه فيتكرهه، فإذا أُدنِىَ منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دبرهِ». يقول الله

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة.

تعالى: ﴿وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾ [محمد:١٥]، ويقول: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ [الكهف:٢٩].

وقوله: ﴿يتجرعه﴾ أى: يتغصصه ويتكرهه أى: يشربه قهراً وقسراً لا يضعه فى فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ ، ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أى: يردده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذى لا يستطاع ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أى: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. قال عمر بن ميمون بن مهران: من كل عظم وعصب وعرق. وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره. وقال إبراهيم التيمى: من موضع كل شعرة أى: من جسده حتى من أطراف شعره. وقال ابن جرير: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أى: من أمامه وخلفه. وفى رواية: عن يمينه وشماله ومن فوقه ومن تحت أرجله ومن سائر أعضاء جسده. وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ قال: أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم ليس منها نوع لا يأتيه الموت منه لو كان يموت ولكن لا يموت، لأن الله تعالى يقول: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ [فاطر:٣٦]، وقوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أى: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أى: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (٦٤) طلعها كأنه رءوس الشياطين (٦٥) فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون (٦٦) ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم (٦٧) ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ [الصافات:٦٤-٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم، وتارة فى شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون (٤٣) يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن:٤٣،٤٤]، وقال تعالى: ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب (٥٥) جهنم يصلونها فبئس المهاد (٥٦) هذا فليذوقوه حميم وغساق (٥٧) وآخر من شكله أزواج﴾ [ص:٥٥-٥٨] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم وتكراره وأنواعه وأشكاله مما لا يحصيه إلا الله عز وجل جزاءً وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت:٤٦].

٣١ـ أهل النار لا ينفعهم جزع ولا صبر:

قال الله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

يقول تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أى: برزت الخلائق كلها بَرُّها وفاجرها لله الواحد القهار، أى: اجتمعوا له فى براز من الأرض وهو المكان الذى ليس فيه شى يستر أحدًا ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل قالوا لهم ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أى: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى: فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقال القادة لهم: ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن حقَّ علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أى: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أوجزعنا منه. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله عز وجل تعالوا نبك ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا فلما رأوا أنه لاينفعهم قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم يُرَ مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ الآية.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ

لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

٣٢- إبليس لعنه الله يقوم خطيبًا في أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المومنين الجنات وأسكن الكافرين الدركات، فقام إبليس لعنه الله يومئذ خطيبًا ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم وغبنًا إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدًا حقًا وخبرًا صدقًا وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلا تَلُومُونِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] اليوم ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتمونى بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أى بنافعكم ومنقذكم ومُخَلِّصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أى: بنافعىَّ بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة: أى بسبب ما أشركتمونى من قبل. قال ابن جرير: يقول إنى جحدت أن أكون شريكًا لله عز جل، وهذا الذى قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ

يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴿٥﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف:٥،٦]، وقال: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾ [مريم:٨٢].

وقوله: ﴿إن الظالمين﴾ أى: فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم. والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا. قال الشعبى: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس يقول تعالى لعيس بن مريم: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ [المائدة:١١٦]، قال: ويقوم إبليس لعنه الله فيقول: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ الآية.

٣٣ـ قلوب أهل النار تصل إلى حناجرهم من شدة الخوف:

قال الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴿٤٢﴾ مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ [إبراهيم:٤٢، ٤٣].

يقول تعالى: لاتحسبن الله ـ يا محمد – غافلاً عما يعمل الظالمون، أى: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غفل عنهم، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عليهم عداً ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أى: من شدة الأهوال يوم القيامة. ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مهطعين﴾ أى: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مهطعين إلى الداع﴾ الآية [القمر:٨]، وقال تعالى: ﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له﴾ [طه:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعا﴾ الآية [المعارج:٤٣]، وقوله: ﴿مقنعي رءوسهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعى رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أى: أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أى: خاوية خالية ليس فيها شىء لكثرة الوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم

خالية، لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: هى خراب لا تعى شيئًا لشدة ما أخبر به تعالى عنهم.

ثم قال تعالى لرسوله -ﷺ-: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٦].

يقول تعالى مخبراً عن قول الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾، كقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ الآية [المؤمنون: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴾ الآيتين [المنافقون: ٩]، وقال تعالى مخبراً عنهم فى حال محشرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾ الآية [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ الآية [فاطر: ٣٧]، قال تعالى ردًا عليهم فى قولهم هذا: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أى أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك. قال مجاهد وغيره: ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أى: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ الآية [النحل: ٣٨]، ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم معتبر لم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ [القمر: ٥]، وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصرى، ووجه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئًا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم، ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ

الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء:٣٧]، والقول الثـانى فى تفسيـرها ما رواه على بن أبى طلحة عن ابن عـباس ﴿ **وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** ﴾ يقول: شركـهم، كقـوله: ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ** ﴾ الآية [مريم: ٩٠]، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

٣٤ـ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات:

قال الله تعالى: ﴿ **فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨].

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً ﴿ **فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ** ﴾ أى: من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشـهاد، ثم أخبر تعـالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شـىء أراده ولايغالب، ذو انتقام ممن كفـر به وجحده، ﴿ **فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [الطور:١١]، ولهذا قال: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ** ﴾ أى: وعده هذا حاصل يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض، كما جاء فى الصـحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول لله -ﷺ-: «**يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقيِّ ليس فيها مَعْلَمٌ لأحد**»، وقال الإمام أحمد عن عائشـة أنها قـالت: أنا أول الناس سأل رسـول الله، عن هذه الآية: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ** ﴾ قالت: قلـت: أين الناس يومئـذ يا رسول الله؟ قال: «**على الصراط**»(١).

وقال الإمام مسلم بن الحجاج فى صـحيحه عن ثوبان مولى رسول الله -ﷺ- قال: كنـت قائمًا عـند رسول الله -ﷺ- فجـاءه حبـر من أحبـار يهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعتـه دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعنى؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟ فقال اليهـودى: إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله، فقـال رسول الله -ﷺ-: «**إن اسـمى محـمـد سمَّانى به أهلى**». فقـال اليهودى: جئت أسـألك، فقال رسول الله -ﷺ-: «**أينفعك شيـئًا إن حدثتُك؟**.

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجة، وقال الترمذى: حسن صحيح.

فقال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله -ﷺ- بعود معه فقال: سَلْ. فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تُبـدَّل الأرض غيـر الأرض والسمٰوات؟ فـقال رسـول لله -ﷺ-: هم فى الظلمـة دون الجسـر. قال: فـمن أول الناس إجـازة؟ فقـال: فقـراء المهاجرين. فقال اليهودي: فمـا تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: زيادة كبد النون. قال: فما غذاؤهم فى أثرها؟ قال:ينُحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها. فقال: فما شـرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تُسمَّى سلسبيلاً. قال: صدقت. قال: وجـئت أسـألك عـن شيء لا يعـمـله أحـد من أهـل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجـلان، قال: أينفـعك إن حـدَّثتك؟ قال: أسـمع بأذني. قـال: جئت أسـألك عن الولد. قال: ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فـإذا اجتمعا فعلا منيٌّ الرجل منيِّ المرأة كان ذكـرًا بإذن الله تعالي، وإذا علا منيُّ المرأة منـيَّ الرجل كان أنثى بإذن الله. قال اليهودي: لقد صـدقت وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله -ﷺ-: لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه وما لى علم بشيء منه حتى أتانى الله به».

وروى أبو جعفر بن جرير الطبرى عن عـمرو بن ميمون يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: أرض كالفضة البيضـاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئـة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعى، حفـاة عراة كما خُلقوا. قال: أراه قال: قيامًـا حتى يُلجمهم العرق. وعن عمرو بن مـيمون عن عبد الله عن النبى -ﷺ- فى قول الله عز وجل ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قـال: «أرض بيضاء لم يُسفك عليها دم، ولـم يعمل عليها خطيئة»(١). وقال الربيع عن أُبى بن كعب قال: تصير السمٰوات جنانًا. وقال الأعمش عن عبد الله بن مسعود: الأرض كلها نار يوم القـيامة، والجنة من ورائها ترى أكـوابها وكواعبـها، والذى نفس عبـد الله بيده إن الرجل ليـفيض عرقًـا حتى ترشح فى الأرض قـدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفـه، وما مسَّه السـحاب. قالوا: مم ذلك يا أبا عبـد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن كعب فى قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قال: تصير السمٰوات جنانًا ويصير مكان البحر نارًا وتبدَّل الأرض غيرها. وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أى: خرجت

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزار.

الخلائق جميعــها من قبورهم لله ﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى قهركل شىء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب.

٣٥- سرابيلهم من قطران:

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥١].

يقول تـعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ وتبرز الخلائق لديَّانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أى: بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧-٣٨]، والأصفاد هى القيود[1]، قال عمرو بن كلثوم:

فَآبُوا بالثياب بالسَّبايا وأُبْنا بالمُلوكِ مُصفَّدينا

وقوله: تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أى: ثيابهم التى يلبسونها من قطران، وهو الذى تهنأ به الإبل أى تطلى. قال قتادة: وهو ألصق شىء بالنار، وكان ابن عباس يقول: القطران هو النحاس المذاب[2]، أى: من نحاس حار قد انتهى حره. وقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]. وقال الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله -ﷺ-: «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تُتُبْ قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[3].

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد.
(٢) وهو مروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة.
(٣) أخرجه مسلم والإمام أحمد فى المسند.

وقوله: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ الآية [النجم:٣١]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:١]، ويحتمل أنه فى حال محاسبته لعبده سريع النجاز، لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان:٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ إحصاء، ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]، أى هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، كما قال فى أول السورة: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ الآية [إبراهيم:١]، ﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ أى ليتعظوا به، ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أى: ذوو العقول.

٣٦ـ الكفار فى النار يتمنون الإسلام ولكن هيهات:

قال الله تعالى: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ① رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ١-٣].

. . . . . وقوله تعالى: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إخبار عنهم على أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا فى الدنيا مسلمين. وقيل: المراد أن كل كافر يودُّ عند احتضاره أن لو كان مؤمنًا. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:٢٧]، وقال بعضهم: يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته

فيُخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[1]. وقال مجاهد: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك قال الله: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فعند ذلك قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. وقد ورد فى ذلك أحاديث مرفوعة، فقال: الحافظ الطبراني عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إن ناسًا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزي: ما أغنى عنكم قولكم (لا إله إلا الله) وأنتم معنا فى النار؟ فيغضب الله لهم فيُخرجهم فيُلقيهم في نهر الحياة، فيبرءون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة ويُسمَّوْنَ فيها الجهنميين».

الحديث الثاني: عن أبي موسى الأشعرى -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلي، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها، فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأُخرجوا، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا، قال: ثم قرأ رسول الله -ﷺ-: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[2]».

وقوله ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠]، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات:٤٦]، ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ [الحجر:٣]، أى: عن التوبة والإنابة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أى: عاقبة أمرهم.

٣٧- أبواب جهنم:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٣، ٤٤].

---

(١) روى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك وقال: كانا يتأولان الآية: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ بذلك التأويل.

(٢) قاله مجاهد والحسن وقتادة.

أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ [هود:١٧]، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب[١] ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: قد كُتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه أجارنا الله منها، وكلٌّ يدخل من باب حسب عمله ويستقر فيدرك بقدر عمله. وعن على بن أبى طالب أنه قال: إن أبواب جهنم هكذا أطباق بعضها فوق بعض، فيمتلىء الأول ثم الثانى ثم الثالث، حتى تمتلىء كلها، وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق. وقال ابن جريج: سبعة أبواب أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية[٢]. وقال قتادة: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ هى والله منازل بأعمالهم، وقال الترمذى عن ابن عمر عن النبى -ﷺ- قال: «**لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سلَّ السيف على أمتي، أو قال على أمة محمد**»[٣]. وقال ابن أبي حاتم عن سمرة بن جندب عن النبى -ﷺ- فى قوله: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: «**إن أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾**».

٣٨- سجن النار لأهل البوار:

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ [الإسراء:٨].

أى مستقرًا ومحصرًا سجنًا لا محيد عنه قال ابن عباس: ﴿حَصِيراً﴾ أى: سجنًا. وقال الحسن: فراشًا ومهادًا. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلَّط الله عليهم هذا الحى محمد -ﷺ- وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

---

(١) فى اللباب: أخرج الثعلبى أن سلمان الفارسى لما سمع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر:٤٣] فرَّ ثلاثة أيام هاربًا من الخوف لا يعقل، فجىء به إلى النبى -ﷺ- فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية؟ فوالذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبى، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[الحجر:٤٥].

(٢) روى الضحاك عن ابن عباس نحوه، وكذلك روى عن الأعمش.

(٣) رواه الترمذى وقال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول.

٣٩ـ يوم القيامة كل إنسان حسيب نفسه:

قال الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٣، ١٤].

يقول تعـالى بعد ذكر الزمان وذكـر ما يقع فيه من أعـمال بنى آدم ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ ، وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كـما قال ابن عباس ومجـاهد وغيرهما: من خير وشـر، ويلزم به ويُجازى عليه، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٧، ١٨]، وقال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠ـ١٢]، والمقصود أن عـمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكـثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهارًا، صباحًا ومساءً. وقال الإمام أحمد عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَطائر كل إنسان فى عنقه».

وقوله: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ أى: نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القـيامة، إما بيمينه إن كان سـعيدًا وإما بشماله إن كـان شقيًا ﴿ مَنشُورًا ﴾ أى: مفتـوحًا يقرؤه هو وغيره، فـيه جميع عـمله من أول عمره إلى آخره ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة:١٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤]، أى: إنك تعلم أنك لم تُظلم ولم يُكتب عليك إلا ما قد عملت، لأنك ذكـرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيـئًا مما كان منه، وكل أحـد يقرأ كتابه من كـاتب وأُمى. وقوله: ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ إنما ذكر العنق لأنه عضو لا نظـير له فى الجسد، ومن أُلزم بشىء فيـه فلا محيـد له عنه، عن النبى ﷺ قال: «ليس من عمـل يوم إلا ويُختم عليه، فـإذا مرض العبـد قالت له الملائكة: يا ربنا عـبدك فلان قـد حبسـته، فيـقول الرب جل جلاله: اختـموا له على مثل عمله حـتى يبرأ أو يموت»[١]. وقال معمر عن قتادة ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال: عمله، ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قال:

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر، وإسناده قوى جيد، كذا قال ابن كثير.

نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصرى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكِّلَ بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجُعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشوراً ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ الآية، فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك، هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله.

٤٠ـ الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه:

قال الله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥].

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أى: عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجنى على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجنى جان إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾[فاطر:١٨]، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[العنكبوت:١٣]، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[النحل:٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم فى أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لايعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⁽⁸⁾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾[الملك:٨،٩]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٧١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر:٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يُدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه.

مسألة: (الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ما حكمهم):

بقي هنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديمًا وحديثًا، هي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ما حُكمهم، وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته. وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً ملخصًا من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان[1].

فصل

إذا تقرر هذا، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال: **أحدها:** أنهم في الجنة، واحتجوا بحديث سمرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين. **والقول الثاني: أنهم** مع آبائهم في النار، واستدل عليه بما رُوي عن عبد الله بن أبي قيس أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت: قال رسول الله -ﷺ-: «**هم تبع لآبائهم. فقلت: يا رسول الله بلا أعمال؟ فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين**»[2]. **والقول الثالث:** التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله -ﷺ-: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**» وهو في الصحيحين. ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف، وهذا القول يرجع إلى من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة، لأن الأعراف ليس لهم دار قرار ومآل أهلها إلى الجنة، والله أعلم. وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء في أنهم من أهل الجنة، وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله عز وجل.

٤١- إبليس وراء كل قول أو فعل يقرّب من النار:

قال الله تعالى: ﴿**قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا**﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

---

(١) اكتفيت فقط بذكر الفصل الملخص لأن فيه كفاية.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

لما سأل إبليس النظرة قال الله له ﴿اذْهَبْ﴾ فقد أنظرتك، كما قال في الآية الأخرى ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:٣٧،٣٨]، ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ قال مجاهد: وافرًا. وقال قتادة: موفورًا عليكم لا ينقص لكم منه. وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أي من استخفهم بذلك. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية الله عز جل. واختاره ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم، فإن الرَّجِلَ جمع راجل، كما أن الرَّكْب جمع راكب، ومعناه تسلَّط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدري، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا وتسوقهم إليها سوقًا وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذي يطيعونه، تقول العرب أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه، ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب، ومنه اشتقاق الجلبة وهي ارتفاع الأصوات، وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى. وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام. والآية تعمُّ ذلك كله. وقوله ﴿الْأَوْلَادِ﴾ يعني أولاد الزنا(١)، وقال ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهًا بغير علم. وقال الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد، مجَّسوا وهوَّدوا ونصَّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام. ، وجزأوا من أموالهم جزءًا للشيطان. وقال أبو صالح عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يُقال: كل مولود ولدته أنثى عُصِيَ الله فيه بتسميته بما يكره الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله،

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك.

أو بالزنا بأمه، أو بـقتله أو وأده، أو غيـر ذلك من الأمور التي يعـصي الله بفعله به، فقد دخل في مشاركـة إبليس فيه لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه، بمعنى دون معنى، فكل ما عُصِيَ الله فيه أو به، أو أُطيع الشيطان فـيه أو به، فهو مـشاركة. وهذا الذي قال متـجه وكل من السلف رحمهم الله فسَّر بعض المشاركـة. وفي الصحيحين أن رسول الله -ﷺ- قال: «**لو أن أحـدهم إذا أراد أن يأتي أهله قـال: باسم الله، اللهـم جنِّبنا الشـيطان وجنِّب الشـيطان ما رزقـتنا، فإنه إن يُقـدَّر بينهمـا ولد في ذلك لم يضره الشـيطان أبدًا**».

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية [إبراهيم:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إخبـار بتأييده تعـالى عباده المؤمنين وحـفظه إياهم وحراسـته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥] أي: حافظًا ومؤيِّدًا ونصيـرًا. وفي الحديث: «**إن المؤمن لُينضي شـياطينه كمـا ينضي أحدكم بعيره في السفر**»(١) ينضي: أي يأخذ بناصيته ويقهره.

[فائدة] قال رسول الله -ﷺ- : «**إن على الله عهـدًا لمَنْ شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال. قيل: يـا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار**» رواه مسلم.

وقال رسول الله -ﷺ- : «**... ومن مات وهو يشـرب الخمر سـقاه الله من نهر الغوطة، وهو ماء يجري من فروج المومسات ـ أي: الزانيات ـ يؤذي أهل النار ريح فروجهن**» [رواه الإمام أحمد].

٤٢ـ الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧].

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعًا.

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه، وأنه لا معقِّب له بأنه من يهده فلا مُضلَّ له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[الكهف:١٧]، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾[الإسراء:٩٧].

عن أنس بن مالك: قيل: يا رسول الله، كيف يُحشر الناس على جوههم؟ قال: «**الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم**»(١). وعن حذيفة بن أسيد قال: قام أبو ذر فقال: يا بنى غفار قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدوق حدثنى أن الناس يُحشرون على ثلاثة أفواج، فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار(٢).

وقوله ﴿عُمْيًا﴾أى: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾يعنى: لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون. وهذا يكون فى حال دون حال، جزاؤهم كما كانوا فى الدنيا بكمًا وعميًا وصمًا عن الحق، فجُوزوا فى محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، ﴿مَّأْوَاهُمْ﴾أى: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾أى: لهبًا ووهجًا وجمرًا، كما قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبا:٣٠].

٤٣ـ ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها سود:

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف:٢٩].

يقول تعالى لرسوله -ﷺ-: قل يا محمد للناس هذا الذى جئتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.

هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أى: أرصدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أى: سورها. وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة**»(١). وقال ابن عباس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال: حائط من نار. وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: المهل الماء الغليظ، مثل دردى الزيت. وقال مجاهد: هو كالدم والقيح. وقال عكرمة: هو الشيء الذى انتهى حرُّه. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها سود. وهذه الأقوال ليس شيء منه ينفى الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أى: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقرَّبه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه، كما جاء فى الحديث عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**ماء كالمُهل، قال: كعكر الزيت فإذا قرَّبه إليه سقطت فروة وجهه فيه**»(٢)، وعن النبى -ﷺ- فى قوله ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ﴾[إبراهيم:١٦، ١٧] قال: «**يُقرَّب إليه فيتكرَّهه، فإذا قُرِّب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطَّع أمعاءهم**». يقول الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾(٣). وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا فأُغيثوا بشجرة الزقوم، فيأكلون منها فاجتثت جلود وجوههم، فلو أن ماراً مرَّ بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يُصبُّ عليهم العطش فيستغيثون فيُغاثون بماء كالمهل، وهو الذى قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ أى: بئس هذا الشراب، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية:٥]، أى: حارَّة، كما قال

---
(١) أخرجه أحمد والترمذى فى صفة النار، وابن جرير فى تفسيره.
(٢) أخرجه أحمد والترمذى.
(٣) أخرجه عبد الله بن المبارك عن أبى أمامة مرفوعًا.

تعالى: ﴿وبين حميم آن﴾ [الرحمن:٤٤]، ﴿وساءت مرتفقا﴾ أى: وساءت النار منزلا مقبلاً ومجتمعًا وموضعًا للارتفاق، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إنها ساءت مستقرًا ومقاما﴾[الفرقان:٦٦].

٤٤ـ المشركون فى النار ينادون آلهتهم فلم يستجيبوا لهم:

﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا (٥٢) ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

يقول تعالى مخبرًا عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا ﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أى: فى دار الدنيا، ادعوهم اليوم ينقذوكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾[الأنعام:٩٤]، وقوله: ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾، كما قال: ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ [القصص:٦٤]، وقال: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾ [الأحقاف:٥]، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًا (٨١) كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا﴾ [مريم:٨١، ٨٢]، وقوله: ﴿وجعلنا بينهم موبقا﴾ قال ابن عباس: مهلكًا. وقال قتادة: موبقًا واديًا فى جهنم. وقال ابن جرير عن أنس بن مالك فى قوله تعالى ﴿وجعلنا بينهم موبقا﴾ قال: واد فى جهنم من قيح ودم. وقال الحسن البصرى: موبقًا عدواة. الظاهر من السياق ههنا أنه المهلك، ويجوز أن يكون واديًا فى جهنم أو غيره، والمعنى: أن الله تعالى بيَّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير، قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾[يس:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾ [يونس:٢٨]، وقوله: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها

مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣]، أي: أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهمّ والحزن لهم، فإن توقُّع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولابد لهم منها. وقال ابن جرير عن أبي سعيد عن رسول الله -ﷺ- قال: «**إن الكافر لَيَرى جهنم فيظنُّ أنها مواقعته من مسيرة أربعمائة سنة**».

٤٥- جهنم تعرض للكافرين قبل وصولهم إليها:

قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٠-١٠٢].

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم، أي: يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**يُؤتَى بجهنم تُقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك**»(١). ثم قال مخبراً عنهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: تغافلوا عن قبول الهدى واتباع الحق. كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]، وقال ههنا: ﴿وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم قال: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك وينتفعون به ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[مريم:٨٢]، ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعدَّ لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

٤٦- شرطا النجاة من النار الصواب والإخلاص:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي

(١) أخرجه مسلم عن ابن مسعود.

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦].

عن مصعب قال: سألت أبى، يعنى سعد بن أبى وقاص، عن قول الله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذَّبوا محمداً -ﷺ-، وأما النصارى فكفروا بالجنة قالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد -رضي الله عنه- يسمِّيهم الفاسقين[1]. وقال على بن أبى طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن على -رضي الله عنه- أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لأنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور:٣٩]، وقال فى هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أى: نخبركم ﴿بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ ثم فسرها فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾. أى: يعتقدون أنهم على شىء وأنهم مقبولون محبوبون. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أى: جحدوا آيات الله فى الدنيا، وبراهينه التى أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أى: لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير روى البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «إنه لَيأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾» وقال ابن أبى حاتم عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «يؤتى بالرجل الأكول الشَّروب العظيم فيوزن بحبَّة فلا يزنها، قال: ثم

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى باب التفسير.

قرأ: ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ »، وعن عبد لله بن بريدة عن أبيه قال: كنا عند رسول الله -ﷺ- فأقبل رجل من قـريش يخطر فى حُلَّة له، فلما قام على النبى -ﷺ- قال: «**يا بريدة، هذا ممَّن لا يقـيم الله له يوم القيـامة وزنًا**»[١]، وعن كعب قال: يؤتى يوم القيامـة برجل عظيم طويل فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرأوا: ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ »[٢]. وقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا ﴾ أى: إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسـبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوًا استهزأوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.

٤٧ـ النار لمن كذب على الله وافترى:

قال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم:٣٧].

تهديد ووعـيد شديد لمن كذب على الله وافـترى وزعم أن له ولدًا، ولكن أنظرهم الله تعـالى إلى يوم القيـامة وأجلهم حلمًـا فإنه الذى لايعـجل على من عصاه، كما جاء فى الصـحيحين عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلـون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم**»، وقد قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج:٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم:٤٢]، ولهذا قال ههنا: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم:٣٧] أى: يوم القيـامة. وقد جـاء فى الحديث الصحـيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول لله -ﷺ-: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأن محمداً عـبده ورسوله، وأن عيسـى عبد الله ورسوله وكلمته ألـقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل**».

٤٨ـ الموت يذبح بين الجنة والنار:

قال الله تعـالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي

(١) أخرجه الحافظ البزار.

(٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره.

ضلال مبين (٣٨) وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون (٣٩) إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ [مريم:٣٨-٤٠].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ أى: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يوم يأتوننا﴾ يعنى يوم القيامة ﴿لكن الظالمون اليوم﴾ أى: فى الدنيا ﴿فى ضلال مبين﴾ أى: لا يسمعون ولايبصرون ولا يعقلون، فحيث يُطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أى: أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿إذ قضى الأمر﴾ أى: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كل إلى ما صار إليه مخلَّداً فيه، ﴿وهم﴾ أى: اليوم ﴿فى غفلة﴾ عما أنذورا به يوم الحسرة والندامة ﴿وهم لا يؤمنون﴾ أى: لا يصدقون به. عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يُجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيُوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيُؤمر به فيُذبح. قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت فيُؤمر به فيُذبح. قال: ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. ثم قرأ رسول الله -ﷺ-: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وأشار بيده، ثم قال: أهل الدنيا فى غفلة الدنيا»(١).

وقال السدى عن ابن مسعود فى قوله ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أُتى بالموت فى صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادى مناد: يا أهل الجنة هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى أهل عليين ولا فى أسفل درجة فى الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادى مناد: يا أهل النار هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى ضحضاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه، ثم يُذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة هو

(١) رواه أحمدعن أبى سعيد الخدرى واللفظ له، وأخرجه الشيخان عن ابن عمر ولفظهما قريب من ذلك.

الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين، فيـفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد مـيتًا من فرح مـاتوا، ويشهق أهل النار شهـقة لو كان أحد مـيتا من شهقة ماتوا، فلذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ**﴾ يقول: إذا ذُبح الموت»(١). وقال ابن عباس: ﴿**يَوْمَ الْحَسْرَةِ**﴾ من أسماء يوم القـيامة، عظَّمـه الله وحذَّره عـباده. وقـال عبـد الرحمن بن زيد فى قـوله ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ قال: يوم القيـامة، وقرأ: ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾ [الزمر:٥٦]،

وقوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدَّس ولا أحد يدعى ملكًا ولاتصرفًا، بل هو الوارث لجميع خلقـه الباقى بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تُظلم نفس شيئًا ولاجناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

٤٩- واد فى جهنم من قيح ودم لمن أضاع الصلاة:

قال الله تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ [مريم:٥٩].

لما ذكر تعالى حـزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السـلام، ومن اتبعهم من القـائمين بحـدود الله وأوامره المؤدِّين فـرائض الله التاركـين لزواجره، ذكـر أنه ﴿**فخلف من بعدهم خلف**﴾ أى: قرون أخـر ﴿**أضـاعوا الصـلاة**﴾ أقـبلوا على شهوات الدنيا وملاذهـا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهـؤلاء سيلقون غيا، أى: خسارًا يوم القيامة. وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة ههنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتهـا كلها بالكلية. قاله محمد بن كعب القـرظى والسدى واختاره ابن جرير، ولهذا ذهب مـن ذهب من السلف والخلف والأئمة،كما هو مـشهور عن الإمام أحـمد، إلى تكفير تارك الصـلاة، للحديث: «**بين العبـد وبين الشرك ترك الصلاة**»(٢)، والحديـث الآخر: «**العـهد الـذى بيننا وبينهم الصـلاة فمـن تركهـا**

(١) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره.

(٢) الحديث أخرجه مسلم والترمذى عن جابر بلفظ: «بين الرجل وبين الشرك والكفر...».

فقـدكفـر»، وليس هذا محـل بسط هذه المسألة، وقال الأوزاعـى: إنما أضاعـوا المواقيت ولو كان تركًا كان كفرًا، وقيل لابن مسعود: إن الله يُكثر ذكر الصلاة فى القـرآن: ﴿فَـوَيْلٌ لِّلْمُـصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَـلاتِهِمْ سَـاهُونَ﴾ [الماعـون:٤،٥]، و﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَـلاتِهِمْ دَائِمُـونَ﴾ [المعـارج:٢٣]، و﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَـلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج:٣٤]، فقال ابن مسعود: على مواقـيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذلك الكفر. وقال مسروق: لا يُحاسب أحد على الصلوات الخمس فـيكتب من الغافلـين، وفى إفراطهن الهلكة، وإفـراطهن إضاعـتهن عن وقتهن. وقال الأوزاعى: قرأ عمر بن عبد العزيز ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ﴾ ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركهـا ولكن أضاعوا الوقت. وقال مجاهد: ذلك عند قيام الساعة وذهاب صـالح أمة محمد -ﷺ- ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة. وقال ابن جرير عن مجاهد: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ قال: هم فى هذه الأمـة يتراكبون تراكب الأنعـام والحمر فى الطرق، لايخافـون الله فى السماء، ولا يستحيـون من الناس فى الأرض. وقال كعب الأحبـار: والله إنى لأجد صفة المنافـقين فى كتاب الله عـز وجل: شرَّابين للقهوات، وترَّاكين للصلوات، لعابين بالكعبـات، رقادين عن العتمات، مفرطين فى الغدوات، وترَّاكين للجـماعات، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وقال الحسن البصرى، عطَّلوا المسـاجد ولزموا الضـيعـات وقال أبو الأشهب: أوحى الله إلـى داود عليه السلام: يا داود حذِّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولهـا عنى محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبـيدى إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتى.

وقوله: ﴿فسوف يَلْقَونَ غَيّاً﴾ قال ابـن عباس: أى: خـسرانًـا. وقال قتادة: شرًا. وقال: عبد الله بن مسعود ﴿فسوف يَلْقَونَ غَيّاً﴾ قال: وادٍ فى جهنم بعـيد القـعر خـبيث الطعم. وقـال الأعمش عن زياد عن أبى عـياض فى قـوله ﴿فسوف يَلْقَونَ غَيّاً﴾ قال: واد فى جهنم من قيح ودم.

٥٠ـ لا يبقى بر ولا فاجر إلا مرّ على النار:

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

روى الإمام أحمد عن أبى سمية قال: اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم: يدخلونها جميعًا ثم ينجى الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت: له: إنَّا اختلفنا فى الورود، فقال: يردونها جميعًا، وأهوى بأصبعه إلى أذنيه وقال: صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجًا من بردهم، ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا**».

وعن قيس بن أبى حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعًا رأسه فى حجر امرأته فبكى، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكى فبكيت، قال: إنى ذكرت قول الله عز وجل ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا أدرى أنجو منها أم لا، وكان مريضًا[١]. وقال ابن جرير عن أبى إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمى لم تلدنى، ثم يبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أُخْبِرْنا أنَّا واردوها ولم نُخْبَرْ أنَّا صادرون عنها. وعن الحسن البصرى قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها، قال: لا، قال: ففيم الضحك، قال: فما رئى ضاحكًا حتى لحق بالله، وقال عبد الرزاق: خاصم ابن عباس نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود الدخول، فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[الأنبياء: ٩٨] وردوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[هود: ٩٨]، أوردهم أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، فضحك نافع. وقال[٢]: عن مجاهد، قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يقال له أبو

---

(١) أخرجه عبد الرزاق.

(٢) أى: عبد الرزاق.

راشد، وهو نـافع ابن الأزرق، فقال لـه: يا ابن عبـاس، أرأيت قول الله ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾[مريم:٧١] قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا؟.

وعن عبد الله بن مسعود ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال رسول الله -ﷺ-: «يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم»(١). وقد رواه أسباط عن السدى عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: «يرد الناس جميعًا الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مرًا رجل نوره على موضع إبهامى قدميه يمرُّ فيتكفأ به الصراط، والصراط دَحْض مزلة، عليه حَسَك كحسك القتاد، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون به الناس»(٢). وقال ابن جرير عن عبد الله قوله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمرُّ الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم. ولهذا شواهد فى الصحيحين وغيرهما، عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت: كان رسول الله -ﷺ- فى بيت حفصة فقال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية، قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾؟ فقال رسول الله ﴿ثم ننجى الذى اتقوا﴾ الآية». وفى الصحيحين عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسُّه النار إلا تحلَّة القسم» يعنى الورود. وقال قتادة فى قوله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾: هو الممر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها، وورود المشركين أن يدخلوها، والزالون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم: يا الله سلِّم سلِّم. وقال السدى عن ابن مسعود فى قوله ﴿كان على ربك حتما

(١) رواه أحمد والترمذى.
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم.

﴿مَقْضِيًّا﴾ قال: قسمًا واجبًا. وقال مجـاهد: حتمًا، قال: قضاءً. وقوله ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: إذا مـرَّ الخلائق كلهم على النـار وسقط فـيهم من سـقط من الكفار العـصاة نجَّى الله تعالى المؤمنين المتـقين منها بحـسب أعمالهم، فـجوازهم على الصراط وسـرعتهم بقـدر أعمالهم التي كـانت في الدنيا، ثم يشفـعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقًا كثـيرًا قد أكلتهم النار إلا دارات وجـوههم، وهي مواضع السجـود، ولايبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله -ﷺ-، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾

٥١ـ الكافرون يستعجلون عذاب النار وهو يأتيهم بغتة:

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء:٣٨ـ٤٠].

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضًا بوقوع العذاب بهم، تكذيبًا وجحودًا وكـفرًا وعنادًا قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو تيقنوا أنها واقعـة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمـون حين يغشاهم العذاب من فـوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ﴾، فالعذاب محيط بهم مـن جميع جهاتهم ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم، كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[الرعد:٣٤]، وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي: تأتيهم النار بغتة أي: فجأة، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تذعرهم فيستسلمون لها، حائرين لا يـدرون ما يصنعون ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حيلة في ذلك ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر ذلك ساعة واحدة.

٥٢ـ الميزان يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد وإنما جُمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونـة فيه. وقوله: ﴿ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٠]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال رسول الله -ﷺ-: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»(١). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشرعليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مدّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يارب، قال: أفلك عذر أو حسنة؟ قال: فبُهت الرجل، فيقول: لا يارب، فيقول: بلي، إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فيقول: أحضروه، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلم، قال: فتُوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقُلت البطاقة، قال: ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم»(٢). وقال الإمام أحمد عن عائشة: أن رجلاً من أصحاب رسول الله -ﷺ- جلس بين يديه فقال: يا رسول الله إن لي مَمْلُوكِين يكْذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله -ﷺ-: «يُحسب ماخانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتُصَّ لهم منك الفضل الذي بقي قِبَلَك. فجعل الرجل يبكي بين يدي

(١) الحديث أخرجه الشيخان، وختم البخاري رحمه الله صحيحه بهذا الحديث الشريف.
(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

رسول الله -ﷺ- ويهتف، فقال رسول الله -ﷺ-«ما له لا يقرأ كتاب الله ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد شيئًا خيراً من فراق هؤلاء ـ يعنى عبيده ـ إنى أُشهدك أنهم أحرار كلهم»(١).

٥٣ـ المشركون وآلهتهم حصب جهنم:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾[الأنبياء:٩٨ـ١٠٠].

يقول تعالى مخاطبًا لأهل مكة من مشركى قريش: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾قال ابن عباس: أى: وقودها، يعنى كقوله: ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[التحريم:٦]، وفى رواية قال: ﴿ حصب جهنم ﴾يعنى حطب جهنم(٢). وقال الضحاك: ﴿ حصب جهنم ﴾أى: ما يرمى به فيها والجميع قريب.

وقوله ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾أى: داخلون، ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ يعنى لو كانت آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها، ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى: العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون، ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾[هود:١٠٦]، والزفير خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم، ﴿ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾.

قال ابن أبى حاتم عن ابن مسعود: إذا بقى من يخلد فى النار جُعلوا فى توابيت من نار فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يُعذَّب فى النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾.

٥٤ـ الكافرون يستعجلون العذاب وهو واقع بهم:

قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند.
(٢) وهو قول مجاهد وعكرمة وقتادة.

ربك كألف سنة مما تعدون ﴿٤٧﴾ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾ [الحج:٤٧، ٤٨].

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال:٣٢]، وقالوا: ﴿ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ [ص:١٦]. وقوله: ﴿ولن يخلف الله وعده﴾ أي: الذى قد ورد من إقامة الساعة، والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه، وقوله: ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ أي: لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لايفوته شيء وإن أجل وأنظر، لهذا قال بعد هذا: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾ [الحج:٤٨]. عن أبى هريرة أن الرسول -ﷺ- قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام»(١). وعن ابن عباس ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ [الحج:٤٧] قال: من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض. قال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ [السجدة:٥].

٥٥ـ النار لمن حارب النبى صلى الله عليه وسلم:

قال الله تعالى: ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾ [الحج:٥١].

قال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبى-ﷺ- . وقال ابن عباس: ﴿معاجزين﴾ مراغمين، ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ وهى النار الحرة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها.

(١) أخرجه ابن أبى حاتم الترمذى والنسائى، وقال الترمذى: حسن صحيح.

٥٦ـ ما يتمناه الكافر إذا رأى النار:

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾الآية [فاطر:٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور، ووقت العرض على الجبار، وهم في غمرات عذاب الجحيم، وقوله ههنا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كلا حرف ردع وزجر، أي: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ قال ابن أسلم: أي لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: سؤاله الرجوع ليعمل صالحًا هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رُدَّ لما عمل صالحًا ولكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨]. قال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل، فرحم الله امرءًا عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار. وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا قال الكافر رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا، يقول الله تعالى كلا كذبت. وكان العلاء بن زياد يقول: لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى. وقال قتادة: والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا

أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله. وعن أبى هريرة قال: إذا وُضع ـ يعنى الكافر ـ فى قبره فـيرى مقعده من النار. قال: فيـقول: رب ارجعون أتوب وأعمل صالحًا، قال: فيُقال: عمرت ما كنت تعمر، قال: فيضيق عليه قبره ويلتئم فهـو كالمنفوش ينام ويفـزع تهوى إليه هوام الأرض وحـيَّاتها وعقـاربها[١]. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنهـا قالت: ويل لأهل المعاصى من أهل القبـور، تدخل عليهم فى قبورهم حـيات سود أو دُهْم، حية عند رأسـه وحية عند رجليه، يقـرصانه حتى يلتقيـا فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الـذى قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠][٢]. قال مجاهد: البرزخ الحـاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقـال محمـد بن كعب: البرزخ مـا بين الدنيا والآخرة ليـسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربـون ولا مع أهل الآخرة يُجازون بأعمالهم. وقـال أبو صخر: البرزخ المقابـر لا هم فى الدنيا ولاهم فى الآخرة فهم مـقيمون إلى يوم يبـعثون. وفى قوله تـعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ تهديـد لهؤلاء المحتـضرين من الظـلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿من ورائهم جهنم﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقوله تـعالى ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أى: يسـتمـر به العذاب إلى يوم البـعث كما جـاء فى الحديث: «فلا يزال مـعذبًا فيـها» أى: فى الأرض.

٥٧ـ الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسب النبى صلى الله عليه وسلم:

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ـ١٠٤].

يخبـر تعالى أنه إذا نُفخ فى الصور نفـخة النشور، وقام الناس من القـبور ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى: لا تنفع الإنسان يومئذ قرابة ولايرثى

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة موقوفًا.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن عائشة موقوفًا.

والد لولده ولا يلوى عليـه، قال الله تعـالى: ﴿ولا يسأل حميم حميما ۝١٠ يبصرونهم﴾ [المعارج: ١٠]، أى: لا يسأل القريب قريبه وهـو يبصره، لو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهـره، ولو كان أعز الناس عليه فى الدنيا مـا التفت إليه ولاحمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه ۝٣٤ وأمه وأبيه ۝٣٥ وصاحبته وبنيه﴾ الآية [عبس: ٣٤-٣٦]، وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القـيامـة جمع الله الأولين والآخـرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلـمة فيجيء فليـأخذ حقه، قال: فيـفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صـغيراً. ومصداق ذلك فى كتـاب الله، قال الله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾(١). وروى الإمام أحمد عن المسور بن مـخرمـة -رضي الله عنه- قال: قـال رسول الله -ﷺ-: «**فاطمـة بضعـة منى يغيظنى ما يغيظها وينشطنى ما ينشطهـا. وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهري**»، وهذا الحديث له أصل في الصحـيحين: «**فاطمة بضـعة منى يريبنى ما يريبـها ويؤذينى ما آذاها**». وقد ذكـرنا فى مسند أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب من طرق مـتعـددة عنه -رضي الله عنه- أنه لما تزوج (أم كلثـوم) بنت على بن أبى طالب -رضي الله عنهما- قال: أما والله ما بى إلا أنى سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «**كل سبب ونسب فإنه منقطـع يوم القيـامة إلا سـببى ونسـبي**»(٢). وروى الحافـظ بن عساكر عن ابن عمر قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهري**».

وقوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ أى: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة. قال ابن عباس: ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أى: الذين فـازوا فنجـوا من النار وأدخلوا الجنة. ﴿ومن خفت موازينه﴾ أى: ثقلت سيئـاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أى: خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود.

(٢) رواه الطبرانى والبزار والبيهقى والحافظ الضياء فى المختارة، وذكر أنه أصدقها أربعين ألفًا إعظامًا وإكرامًا.

عن أنس بن مالك يرفعه قال: «**إن لله ملكًا موكلاً بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان، فإن ثَقُلَ ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق: شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا**»(١). قال تعالى: ﴿في جهنم خالدون﴾ أى: ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون، ﴿تلفح وجوههم النار﴾ كما قال تعالى: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ وقال تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ [الأنبياء: ٣٩] الآية. عن أبى هريرة عن النبى -ﷺ- قال: «**إن جهنم لما سيق لها أهلها، تلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب**»(٢). وعن أبى الدرداء -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله -ﷺ- فى قول الله تعالى ﴿تلفح وجوههم النار﴾ قال: «**تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم**»(٣). وقوله تعالى: ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال ابن عباس: يعنى عابسون، قال ابن مسعود ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال: ألم تر إلى الرأس المشيط الذى قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه. وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى -ﷺ- قال: ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال: «**تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته**»(٤).

٥٨ـ آخر كلام أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥-١٠٧].

هنا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التى أوبقتهم فى ذلك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتاب

(١) رواه الحافظ البزار وفى إسناده ضعف.
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة.
(٣) أخرجه ابن مردويه عن أبى الدرداء.
(٤) أخرجه أحمد والترمذى، وقال الترمذى: حسن غريب.

وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]. ولهذا قال: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها، ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أي: ارددنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١]. أي: لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

٥٩ـ جواب الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١١].

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار. يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي. قال ابن عباس ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكًا فلا يجيبهم أربعين عامًا، ثم يرد عليهم إنهم ماكثون، قال: هانت دعوتهم والله على (مالك) ورب (مالك)، ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم، قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق. وقال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم

أحدًا - يعـنى من جهنم - غـير وجـوههم وألوانهم، فيـجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول: يا رب، فيقـول الله: من عرف أحدًا فليخرجه، فيجيء الرجل من المؤمنين فينـظر، فلا يعرف أحـدًا فيناديه الرجل: يا فلان أنا فـلان، فيقـول: ما أعرفك، قال: فـعند ذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فعند ذلك: يقول الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منها أحد[1]. ثم قال تعالى مـذكرًا لهم بذنوبهم فى الدنيا وما كانـوا يستهزئون بعـباده المؤمنين وأوليائه، فقـال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى فسـخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضـرعهم إلىَّ ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أى حملكم بعضهم على أن أنسيتم معاملتى ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: من صنيعـهم وعبادتهم، كما قـال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾[المطففين: ٢٩، ٣٠] أى: يلمزونهم استهـزاءً، ثم أخبر تعالى عـما جازى به أولياءه وعـباده الصالحين فـقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أى: على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أى جعلتـهم من الفائزين بالسـعادة والسلامـة والجنة والنجاة من النار.

٦٠ـ أهل النار أضاعوا العمر القصير فى عصيان الكبير:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٦].

يقول تعالى منـبهًا لهم على ما أضاعـوه فى عمرهم القصـير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبـادته وحده ولو صبروا فى مدة الدنيا القصيـرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أى: كم كانت إقامتكم فى الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أى: الحاسبين، ﴿قَالَ

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود موقوفًا.

إن لبثتم إلا قليلا ﴾ أى: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿ **لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾ أى: لما آثرتم الفانى على الباقى، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ، ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا. وفى الحديث: «**إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأدخل أهل النار النار، قال: يا أهل الجنة كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، قال: لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم، رحمتى ورضوانى وجنتى امكثو فيها خالدين مخلدين، ثم قال: يا أهل النار كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، فيقول: بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم، نارى وسخطى امكثوا فيها خالدين مخلدين**»(١).

وقوله تعالى: ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾ أى: فظننتم أنكم مخلوقون عبثًا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا؟ وقيل: للعبث لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿ **وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ أى: لا تعودون فى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ [القيامة:٣٦] يعنى هملاً. وقوله: ﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ أى: تقدس أن يخلق شيئًا عبثًا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿ **لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم أى: حسن المنظر بهى الشكل، كما قال تعالى: ﴿ **أنبتنا فيها من كل زوج كريم** ﴾ [الشعراء:٧].

٦١- جحود أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٢٤) يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾ [النور:٢٤، ٢٥].

قال الله تعالى: ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ عن ابن عباس قال: إنهم - يعنى المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبقع بن عبد الكلاعى مرفوعًا.

إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثًا. وروى ابن أبى حاتم عن أنس ابن مالك قال: «كنا عند النبى -ﷺ- فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدرون مم أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مجادلة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تُجرنى من الظلم؟ فيقول: بلي، فيقول: لا أجيز عليَّ شاهدًا إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام عليك شهودًا، فيُختم على فيه ويُقال لأركانه انطقي، فتنطق بعمله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعدًا لكنَّ وسحقًا فعنكنَّ كنتُ أناضل»(١). وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهودًا غير متهمة من بدنك فراقبهم، واتق الله فى سرك وعلانيتك، فإنه لايخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل، ولا قوة إلا بالله، وقوله تعالى: ﴿يومئذٍ يوفّيهم الله دينهم الحق﴾ قال ابن عباس: ﴿دينهم﴾ أى: حسابهم، وكذا قال غير واحد. وقوله: ﴿ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين﴾ أى: وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذى لا جور فيه.

٦٢- تغيُّظ النار عند رؤية أهلها:

قال الله تعالي: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعة وأعتدنا لمن كذّب بالسّاعة سعيرا (١١) إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظا وزفيراً (١٢) وإذا أُلقوا منها مكانًا ضيّقًا مُقرّنين دعوا هنالك ثُبورا (١٣) لا تدعوا اليوم ثبورا واحدًا وادعوا ثبورًا كثيرًا﴾ [الفرقان:١١-١٤].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبوا بالسَّاعَةِ﴾ أى: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبًا وعنادًا، لأنهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿وأعتدنا﴾ أى: أرصدنا ﴿لمن كذّب بالساعة سعيرا﴾ أى: عذابًا أليمًا حارًا لا يطاق فى نار جهنم. وقوله: ﴿إذا رأتهم﴾ أى: جهنم ﴿من مكان بعيد﴾ يعنى فى مقام المحشر. قال السدى: من

(١) رواه مسلم والنسائى.

مسيرة مائة عام، ﴿سمعوا لها تغيظًا وزفيرا﴾ أي: حنقًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقًا وهي تفور﴾[الملك:٧] أي: حنقًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقًا وهي تفور ۝ تكاد تميز من الغيظ﴾[الملك:٧،٨] أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله. عن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم، فمرُّوا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، وينظر الربيع بن خيثم إليها، فتمايل الربيع ليسقط. فمرَّ عبد الله على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرا﴾[الفرقان: ١٢] فصُعق - يعني الربيع - وحملوه إلى أهل بيته، فرابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق -رضي الله عنه-. وعن مجاهد بإسناده إلى ابن عباس قال: إن الرجل لَيُجَرُّ إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليُجَرُّ إلى النار فيقولَ: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: فما كان ظنُّك؟ فيقول: أن تسعني رحمتُك، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل لَيُجرُّ فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف[(١)].

وقال عبيد بن عمير في قوله: ﴿سمعوا لها تغيظًا وزفيرا﴾ قال: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملَك مقرَّب ولا نبي مُرسَل إلا خرَّ لوجهه ترتعد فرائصه، حتى إن إبراهيم -عليه السلام- لَيَجثو على رُكْبتيه ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي[(٢)].

وقوله: ﴿وإذا أُلقوا منها مكانًا ضيِّقًا مُقرَّنين﴾[الفرقان: ١٣] قال: **«والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط»**، وقوله: ﴿مُقرَّنين﴾ يعني: مكتفين، ﴿دعوا هنالك ثبورًا﴾ أي: بالويل والحسرة والخيبة.

﴿لا تدعوا اليوم ثبورًا واحدًا﴾ الآية، روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **«أول مَنْ يُكسى حُلةً من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو ينادي: يا**

(١) ذكره ابن جرير رحمه الله في تفسيره، وقال ابن كثير: إسناده صحيح.
(٢) أخرجه عبد الرزاق.

ثبوراه، وينادون: يا ثبوراهم، حتى يقفوا علي النار، فيقول: يا ثبوراه، ويقولون: يا ثبوراهم، فيقال لهم: ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾»، عن ابن عباس: أي: لا تدعوا اليوم ويلاً واحدًا وادعوا ويلاً كثيرًا. وقال الضحاك: الثبور الهلاك. والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء: ١٠٢] أي هالكًا.

٦٣- عذاب النار دائم:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[الفرقان: ٦٥، ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا دائمًا، كما قال الشاعر:

إن يُعذِّبْ يكنْ غرامًا وإن يُعْـ ـطِ جزيلاً فإنه لا يُبالي

ولهذا قال الحسن في قوله ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت الأرض والسماوات ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: بئس المنزل منزلاً وبئس المقيل مقامًا. وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال: إن في النار لَجبابًا فيها حيات أمثال البُخت وعقارب أمثال البغال الدُّهُم، فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم فكشطت لحومهم إلى أقدامهم فإذا وجدت حرَّ النار رجعت. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن عبدًا في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان يا منَّان، فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فأتني بعبدي هذا، فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُكبين يبكون، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره، فيقول الله عز وجل: ائتني به فإنه في مكان كذا وكذا، فيجيء به، فيوقفه على ربه عز وجل فيقول الله عز وجل له: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان وشر مقيل، فيقول الله عز وجل: ردوا عبدي، فيقول: يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها، فيقول الله عز وجل: دعوا عبدي» أخرجه الإمام أحمد في المسند.

٦٤- عنق النار:

قال الله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٩١-١٠٤].

قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أى أظهرت وكشف عنها، وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ أى: ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئًا، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون. وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قال مجاهد: يعنى فدهوروا فيها، والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشك، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أى ألقوا فيها عن آخرهم، ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: يقول الضعفاء للذين استكبروا وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين وعبدناكم مع رب العالمين ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ أى ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ قال بعضهم، يعنى الملائكة، كما يقولون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف:٥٣]، وكذا قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أى: قريب. قال قتادة: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحًا نفع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع، ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك أنهم يتمنون أنهم يُردُّون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم لو رُدُّوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم

لكاذبون، وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار، ثم قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد ﴿لآية﴾ أي: لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين (١٠٣) وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

٦٥- صراخ أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور (٣٦) وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء فقال: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ كما قال تعالى: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾ [الأعلى: ١٣]، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون»، وقال عز وجل: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ [الزخرف: ٧٧]، فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، لكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ وقال عز وجل: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون (٧٤) لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥]، وقال جل وعلا: ﴿كلما خبت زدناهم سعيرا﴾، ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ [النبأ: ٣٠]، ثم قال تعالى: ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق.

وقوله جلت عظمته: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي: ينادون فيها يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم: ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ﴿لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٨]، فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، ولذا قال هنا: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعمارا، لو كنتم

ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به فى مدة عمركم؟ وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد ههنا، فروى أنه مقدار سبع عشرة سنة(١). وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعيَّر بطول العمر، قد نزلت هذه الآية ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة. وقال وهب ابن منبه ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ قال: عشرين سنة، وقال الحسن: أربعين سنة. وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله عز وجل(٢). روى ابن جرير عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول: العمر الذى أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أربعون سنة. وهذا هو اختيار ابن جرير. ثم روى عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ ستون سنة، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضًا لما ثبت فى ذلك من الحديث عن أبى هريرة -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- أنه قال: «**لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين سنة أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه**»(٣)، وروى البخارى عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله-ﷺ- : «**أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخَّر عمره حتى بلغ ستين سنة**»، وفى رواية: «**من أتت عليه ستون سنة فقد أعذرَ الله عز وجل إليه فى العمر**»(٤)، وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال فى ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم.

ولما كان هذا العمر الذى يعذر الله تعالى إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث عن أبى

---

(١) هذا قول على بن الحسين زين العابدين -رضي الله عنهما-.

(٢) وهذه رواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، وفى لفظ للنسائى: «من عمَّره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه فى العمر».

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم والإمام أحمد.

هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك**»(١).

وقوله تعالى: ﴿**وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**﴾ روى عن ابن عباس وعكرمة وقتادة أنهم قالوا: يعنى الشيب. وقال السدى وعبد الرحمن بن زيد: يعنى به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقرأ ابن زيد: ﴿**هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى**﴾[النجم:٥٦] وهذا هو الصحيح عن قتادة أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر، لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ [الزخرف:٧٨]، أى لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾[الإسراء:١٥] وقال تبارك وتعالى: ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ**﴾[الملك:٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿**فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾ أى فذوقوا عذاب النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

٦٦- شجرة الزقوم غذيت من النار ومنها خلقت:

قال الله تعالى: ﴿**أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ**﴾ [الصافات:٦٢-٧٠].

يقول الله تعالى: أهذا الذى ذكر من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿**أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**﴾ أى التى فى جهنم؟ وقوله عز وجل ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ**﴾ قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن فى النار شجرة والنار تأكل الشجر، فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**﴾ غُذِّيت

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجة، وقال الترمذى: حديث حسن غريب.

من النار ومنها خُلقت، وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جهل لعنه الله: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه؟ قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم، اختبارًا تختبر به الناس، من يُصدِّق منهم ممن يكذب، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى أصل منبتها فى قرار النار. ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها، وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو فى معناها، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]، روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ، تلا هذه الآية وقال: **«اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قُطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟»**(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى شرب الحميم على الزقوم. وعنه: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ مزجًا من حميم، وقال غيره، يعنى: يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم. عن أبى أمامة الباهلى -رضي الله عنه- عن رسول الله -ﷺ- أنه كان يقول: **«يُقرَّب - يعنى إلى أهل النار - ماءً فيتكرهه، فإذا أُدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فيه، فإذا شربه قَطَعَ أمعاءه، حتى تخرج من دبره»**(٢).

---

(١) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم.

وروى ابن أبى حاتم عن سعـيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النـار استغاثوا بشجـرة الزقوم، فـأكلوا منها فـاختلست جلود وجـوههم، فلو أن مارًا مـرَّ بهم يعرفهم لعرفهم بوجـوههم فيها، ثم يُصبُّ عليهم العطش فيستغيـثون فيُغاثون بماء كالمهل، وهو الذى قد انتـهى حرُّه، فإذا أدنوه من أفواههم اشتـوى من حره لحوم وجـوههم التى سقطت عنـها الجلود، ويُصـهر مـا فى بطونهم فـيمـشون تسـيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يُضربون بمقـامع من حديد فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور[1].

وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أى: ثم إن مردَّهم بعد هذا الفصل لإلى نار تـتأجج وجحـيم تتوقد وسـعير تتـوهج، كما قـال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾[الرحمن: ٤٤]، هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوى. وكان عبد الله[2] ـ رضي الله عنه ـ يقول: والذى نفسى بيده لا ينتصف النهـار يوم القيامة حتى يقـيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار، ثم قرأ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[الفرقان: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أى: إنما جـازيناهم بذلك لأنهم وجـدوا آباءهم على الضلالة، فاتبعوهم فيـها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال مجاهد: شبهـه بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

٦٧ـ أهل النار يعذبون بالشىء وضده:

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[ص: ٥٥ـ٦٤].

---

(١) هذا حديث موقوف، أخرجه ابن أبى حاتم.

(٢) المراد به ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهى رواية السدى عنه.

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء، ثنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم، فقال عز وجل: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل، المخالفون لرسول الله -ﷺ- ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أى: لسوء منقلب ومرجع، ثم فسره بقوله جل وعلا: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أى يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أما الحميم فهو الحار الذى قد انتهى حره، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أى: وأشياء من هذا القبيل، الشىء وضده يعاقبون بها. عن أبى سعيد -رضي الله عنه- عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «لو أن دلواً من غساق يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا»(١).

وقال كعب الأحبار: ﴿غساق﴾ عين فى جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية وعقرب وغير ذلك فيستنقع، فيؤتى بالآدمى فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه فى كعبيه وعقبيه، ويجر لحمه كله كما يجر الرجل ثوبه(٢). وقال الحسن البصرى: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ .ألوان من العذاب، كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يُعذَّبون به ويُهانون بسببه.

وقوله عز وجل: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أى: داخل ﴿مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أى: لأنهم من أهل جهنم ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أى: فيقول لهم الداخلون ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أى: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أى: فبئس المنزل

(١) أخرجه الإمام أحمد، ورواه الترمذى وابن جرير.
(٢) رواه ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار.

والمستقر والمصير ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾، كما قال عز وجل ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨]، أى: لكل منكم عذاب بحسبه. ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾؟ هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون فى زعمهم قالوا: ما لنا لا نراهم معنا فى النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبى جهل يقول: ما لى لا أرى بلالاً وعماراً وصهيبًا وفلانًا وفلانًا؟ وهذا ضرب مثل، وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾؟ يسألون أنفسهم بالمحال يقولون: أو لعلهم معنا فى جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات، وهو قوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أى: إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم فى بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحقٌ لا مرية فيه ولا شك.

٦٨ـ أهل النار يتقون العذاب بوجوههم لا بأيديهم:

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٤ـ٢٦].

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويقرع فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كمن يأتى آمنا يوم القيامة؟ كما قال الله عز وجل ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ

صراط مُّستقيم﴾؟ [الملك:٢٢]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت:٤٠]، واكتفى في هذه الآية بأحـد القسمين عن الآخر. وقوله جلت عظمته: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق. وقوله جل وعلا: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى بما أنزل بهم من العذاب والنكال، وتشـفى المؤمنين منهم، فليحذر المخـاطبون من ذلك فإنهم قد كذبوا أشـرف الرسل وخاتم الأنبياء -ﷺ-، والذى أعده الله جل جلاله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم فى الدنيا، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٦٩ـ أهل النار وجوههم مُسْوَدَّة:

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠].

يخبر تعالى عن يوم القـيامة أنه تسودُّ فيه وجوه وتبيض فـيه وجوه، تسود وجوه أهل الفـرقة والاختلاف وتبيض وجـوه أهل السنة والجماعة، قـال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِـيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى فى دعواهم له شـريكًا وولدًا ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أى بكذبهم وافترائـهم، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؟ أى أليست جـهنم كافيـة سجنًا ومـوئلاً، لهم فيهـا الخزى والهوان بسبب تكبرهم وتجبـرهم عن الانقياد للحق؟ وفى الحديث: «**إن المتكبرين يحشـرون يوم القيامة أشـباه الذرِّ فى صور الناس يعلوهم كل شيء من الصَّـغار، حتى يدخلـوا سجنًا من النارفى واد يقـال له (بولس) من نار الأنيار، ويُسْـقَوْنَ من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال**»(١).

٧٠ـ نفخة الصور ونفخة القيام:

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن عمرو بن شعيب.

ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون (٦٩) ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ [الزمر:٦٨-٧٠].

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله تعالى: ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله، كما جاء مصرحًا به مفسرا في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكن آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء. ويقول: ﴿ لمن الملك اليوم ﴾؟ [غافر:١٦]، ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى وهي النفخة الثالثة: نفخة البعث، قال الله عز وجل: ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أي: أحياء بعد ما كانوا عظامًا ورفاتًا صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة (١٣) فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات:١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ [الروم:٢٥].

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين - لا أدري أربعين يومًا أو أربعين عامًا أو أربعين ليلة**(١) **- ويبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه (عروة بن مسعود الثقفي)، فيظهر فيهلكه الله تعالي، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله تعالى ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، إن أحدهم لو كان في كبد جبل لدخلت عليه**». قال: سمعنا من رسول الله ﷺ: «**ويبقى شرار النار في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، قال:**

(١) الشك من الرواى وليس من لفظ النبوة، فتنبَّه.

فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلى أصغي ليتًا ورفع ليتًا، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيُصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صُعق، ثم يرسل الله تعالى ـ أو ينزل الله عز جل ـ مطرًا كأنه الطَّلّ أو الظل ـ شك نعمان ـ فتنبتُ منه الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فيومئذ تبعث الولدان شيبًا ويومئذ يُكشف عن ساق»(١). وروى البخارى عن أبى هريرة عن النبى -ﷺ- قال: «ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال-رضي الله عنه-أبيت، قالوا: أربعين سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت، ويُبلى كل شيء من الإنسان إلا عجَب الذنب فيه يُركَّب الخلق»(٢).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أى أضاءت يوم القيامة إذا تجلَّى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء، ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلَّغوهم رسالات الله إليهم ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ أى: الشهداء من الملائكة الحفظةعلى أعمال العباد من خير وشر ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أى: بالعدل: ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أى: من خير أو شر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

٧١ـ كيف يُساق أهل النار إلى النار:

قال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم فى صحيحه واللفظ له.
(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة. وعجب الذنب: العُصعُص.

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين (٧١) قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفــار، كيف يساقون إلى النار سوقًا عنيفاً، بزجر وتهــديد ووعيــد، كما قــال عز وجل: ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ [الطور: ١٣]، أي: يدفعــون إليها دفعــاً وهم عطاش ظماء، كما قــال جل وعلا فى الآية الأخرى: ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا (٨٥) ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وهم فى تلك الحــال صم وبكم وعمى، كــما قــال تعالى: ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾[الإسراء: ٩٧]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ أى: بمجــرد وصولهم إليــها فُـتحت لهم أبوابهــا سريعًــا لتعــجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل: ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾؟ أى من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ أى: يقيمون عليكم الحجج والبــراهين على صحة ما دعــوكم إليه، ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أى: ويحذرونكم من شــر هذا اليوم، فيقــول الكفار لهم ﴿ بلى ﴾ أى قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أى: ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشـقوة، كما قال عز وجل: ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير (٨) قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾[الملك: ٨، ٩]. وقوله تعالى: ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدلَّ على أن الكون شاهد عليهم بأنــهم يستحقون ما هم فيه، بما حكم العدل الخبير علــيهم به، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أى ماكثين فيها ولا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها، ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أى: فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم فى الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق، فبئس الحال وبئس المآل.

٧٢- أهل النار في قبورهم:

أرواحهم تُعرض على النار صباحًا ومساءً فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار.

قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وقد روى عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -ﷺ- دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهى تقول: أشعرت أنكم تُفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله -ﷺ- وقال: **«إنما يُفتن يهود»**. قالت عائشة: فلبثنا ليالى ثم قال رسول الله -ﷺ-: **«ألا إنكم تُفتنون فى القبور. قالت عائشة -رضي الله عنها- فكان رسول الله -ﷺ- بعدُ يستعيذ من عذاب القبر»**[١]. وروى البخارى عن عائشة -رضي الله عنها- أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر، فسألت عائشة -رضي الله عنها- رسول الله -ﷺ- عن عذاب القبر فقال -ﷺ-: **«نعم عذاب القبر حق. قالت عائشة -رضي الله عنها- فما رأيت رسول الله -ﷺ- بعدُ صلَّى صلاةً إلا تعوَّذ من عذاب القبر»**[٢]، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدًا.

وقال قتادة: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صباحًا ومساءً ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم، توبيخًا ونقمة وصغارٌ لهم. وقال ابن زيد: هم فيها يُغْدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة. وقال ابن أبى حاتم: عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم فى الجنه حيث شاءوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين فى أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت، فتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش، وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها[٣].

---

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود مرفوعًا.

وفى حديث الإسراء عن أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- عن رسول الله -ﷺ- قال فيه: «ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفَّدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يُعرضون على النار غدواً وعشيًا ﴿ويوم تقوم السَّاعةُ أَدْخلُوا آلَ فرعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب﴾ وآل فرعون كالإبل المسوَّمة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون». وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- قال: «ما أحسن محسن من مسلم أوكافر إلا أثابه الله تعالي. قال: قلنا يا رسول الله، ما إثابة الله الكافر؟ فقال: إن كان قد وصل رحمه أو تصدَّق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك. قلنا: فما إثابته فى الآخرة؟ قال -ﷺ-: عذابًا دون العذاب، وقرأ ﴿أَدْخلُوا آلَ فرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب﴾»[1].

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول لله -ﷺ-: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة»[2].

٧٣- تخاصم أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٧-٥٠].

يخبر تعالى عن تحاجِّ أهل النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من جملتهم ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة والسادة والكبراء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر

(١) أخرجه ابن أبى حاتم والبزار.
(٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

والضلال، ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار﴾ أى: قسطًا تتحملونه عنا ﴿قال الذين استكبروا إنا كل فيها﴾ أى: لا نتحمل عنكم شيئًا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾ أى: فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ [الأعراف:٣٨]، ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعاهم بل قد قال: ﴿اخسأوا فيها ولا تكلمون﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى فى أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم ﴿أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات﴾ ؟[غافر:٥٠] أى: أو ما قامت عليكم الحجج فى الدنيا على ألسنة الرسل؟ ﴿قالوا بلى قالوا فادعوا﴾ أى: أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم. ثم نخبركم أنه لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم ولهذا قالوا: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أى: لا يقبل ولا يستجاب.

٧٤- عذاب النار لا يخفف:

قال الله تعالى: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون (٧٤) لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون (٧٥) وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين (٧٦) ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون (٧٧) لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون (٧٨) أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون (٧٩) أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ [الزخرف:٧٤-٨٠].

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون (٧٤) لا يفتر عنهم﴾ أى: ساعة واحدة ﴿وهم فيه مبلسون﴾ أى: آيسون من كل خير، ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ أى: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقًا وما ربك بظلام للعبيد، ﴿ونادوا يا مالك﴾ وهو خازن النار ﴿ليقض علينا ربك﴾ أى: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما

قال تعالى: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وقال عز وجل: ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾ فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة ثم قال: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ أى لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها، ثم ذكر سبب شقوتهم وهومخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أى: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه وتصدُّ عن الحق وتأباه، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم، ولهذا قال ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أى سرهم وعلانيتهم ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضًا يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها.

٧٥- النار تغمر أهلها من جميع الجهات:

قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١١-١٦].

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل ويتخذون دينهم هزوًا ولعبًا ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أى يُدفعون ويُساقون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ قال مجاهد والسدى: يُدفعون فيها دفعًا ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: تقول لهم الزبانية ذلك تقريعًا وتوبيخًا ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا﴾ أى: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم

لم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يظلم الله أحدًا بل يجازي كلاً بعمله.

٧٦ـ لا تسأل الملائكة عن أهل النار بل يعرفونهم بعلامات تظهر عليهم:

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧ـ٤٥].

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة كما دلت عليه الآيات الواردة في معناه، كقوله تعالى: ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾. وقوله ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت﴾، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي: تذوب كما يذوب الدردي[1] والفضة في السبك، وتتلوّن كما تتلوّن الأصباغ التي يُدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -ﷺ-: «يُبعث الناس يوم القيامة والسماءُ تطشُّ عليهم»[2]، قال الجوهري: الطش المطر الضعيف. وقال ابن عباس: ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ كالأديم الأحمر، وعنه: كالفرس الورد. وقال أبو صالح: كالبرذون الورد، ثم كانت بعد كالدهان. وقال الحسن البصري: تكون ألوانًا. وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كدردي الزيت. وقال مجاهد: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كألوان الدهان، وقال عطاء الخراساني: كلون دهن الورد في الصفرة. وقال قتادة: هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذي ألوان. وقال أبو الجوزاء: في صفاء الدهن. وقال ابن جريج: تصير السماء كالدهن الذائب، وذلك حين يصيبها حر جهنم.

---

(١) الدردي: ما يركد في أسفل كل مائع كالشراب والدهان.

(٢) رواه الإمام أحمد.

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥،٣٦]، فهذا في حال، و«ثَمَّ» في حال، يُسأل الخلائق عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢،٩٣]، ولهذا قال قتادة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ قال: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا، فهذا قول ثان. وقال مجاهد في هذه الآية: لاتسأل الملائكة عن المجرمين بل يعرفون بسيماهم، وهذا قول ثالث، وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يُقادون إليها ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بعلامات تظهر عليهم، وقال الحسن وقتادة: يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون. **(قلت)**: هذا كما يُعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ أي: يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك، وقال ابن عباس: فيُؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يُكسر الحطب في التنور، وقال الضحاك: يُجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره، وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه ويفتل ظهره، وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عيانًا يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا. وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي: تارة يعذبون في الجحيم وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧١،٧٢].

وقوله تعالى: ﴿آنٍ﴾ أي: حار قد بلغ الغاية في الحرارة. قال ابن عباس: قد انتهى غليه واشتد حره. وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحرك بناصيته في ذلك الحميم حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس،

وهي كالتي يقول الله تعالى: ﴿في الحميم ثم في النار يسجرون﴾، فقوله ﴿حميم آن﴾ أي: حميم حار جدًا، ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته، وكان إنذاراه لهم عن عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي، قال ممتنًا بذلك على بريته: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

٧٧- أهل النار لا يروون من الحميم أبدا:

قال الله تعالى: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (٤١) في سموم وحميم (٤٢) وظل من يحموم (٤٣) لا بارد ولا كريم (٤٤) إنهم كانوا قبل ذلك مترفين (٤٥) وكانوا يصرون على الحنث العظيم (٤٦) وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون (٤٧) أو آباؤنا الأولون (٤٨) قل إن الأولين والآخرين (٤٩) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم (٥٠) ثم إنكم أيها الضالون المكذبون (٥١) لآكلون من شجر من زقوم (٥٢) فمالئون منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥) هذا نزلهم يوم الدين﴾ [الواقعة: ٤١-٥٦].

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال، فقال: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾ أي: أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿في سموم﴾ وهو الهواء الحار ﴿وحميم﴾ وهو الماء الحار ﴿وظل من يحموم﴾ قال ابن عباس: ظل الدخان[1]، وهذه كقوله تعالى: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب (٣٠) لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١]، ولهذا قال ههنا: ﴿وظل من يحموم﴾ وهو الدخان الأسود ﴿لا بارد ولا كريم﴾ أي ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر ﴿ولا كريم﴾ أي ولا كريم المنظر، وقال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم. قال ابن جرير: العرب تتبع هذه اللفظة في النفي فيقولون: هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم. ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال

---

(١) وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم.

تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أى كانوا فى الدار الدنيا منعَّمين مقبلين على لذات أنفسهم ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ أى يقيمون ولا ينوون توبة ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله. قال ابن عباس: الحنث العظيم الشرك[1]. وقال الشعبى: هو اليمين الغموس ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ يعنى أنهم يقولون ذلك مكذِّبين به مستبعدين لوقوعه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى هو موقت بوقت محدود لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ وهى الإبل العطاش واحدها أهيم والأنثى هيماء، ويقال: هائم وهائمة، قال ابن عباس ومجاهد: الهيم الإبل العطاش الظِّماء. وقال السدى: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً. ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أى هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال تعالى فى حق المؤمنين: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٧]، أى: ضيافة وكرامة.

٧٨ـ وصف الحائط الذى هو بين الجنة والنار:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد:١٣ـ١٥].

---

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة.

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القـيامة فى العرصات من الأهوال المزعجة والزلازل العظيمة والأمـور الفظيعة، وأنه لا ينجو يومئـذ إلا من آمن بالله ورسوله، وعمل بما أمر الله به، وترك ما عنه زجر.

روى ابن أبى حـاتم عن سليم بن عامـر قال: خـرجنا على جنازة فى باب دمشق ومعنا أبو أمامة البـاهلى، فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها قال أبو أمامة: أيهـا الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسـيتم فى منزل تقتسمون فـيه الحسنات والسيئـات وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا ـ يشيـر إلى القبر ـ بيت الوحدة، وبيـت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضـيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مـواطن يوم القيامـة، فإنكم فى بعض تلك المواطن حـتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيض وجـوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر، فيـغشى الناس ظلمـة شديدة، ثم يقـسم النور فيُـعطى المؤمن نوراً ويُترك الـكافر والمنافق فلا يُعطيان شيئًا، وهو المثل الذى ضـربه الله تعالى فى كتابه فقال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠]، فلا يسـتضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كـما لا يستـضىء الأعمى ببصـر البصيـر، ويقول المنافـقون والمنافقـات للذين آمنوا: ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، فيرجعون إلى المكان الذى قسـم فيه النور فلا يجدون شيئًـا فينصرفون إليهم وقد ضُرب بينهم بسور له باب ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الآية [الحديد: ١٣]، ويقـول سـليم ابن عامـر: فما يزال المنـافق مغـتراً حتى يقسـم النور ويميز الله بين المنافق والمؤمن(١).

---

(١) رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: ﴿**انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ**﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: ﴿**ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ**﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور، وروى الطبراني عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده وأما عند الصراط فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: انظرونا نقتبس من نوركم، وقال المؤمنون: ربنا أتمم لنا نورنا، فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً**».

وقوله تعالى: ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار، وقال عبد الرحمن ابن زيد: هو الذي قال الله تعالى: ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ**﴾ [الأعراف:٤٦]، وهكذا روى عن مجاهد وهو الصحيح، ﴿**بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ**﴾ أي الجنة وما فيها ﴿**وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ أي النار، والمراد بذلك سور يُضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أُغلق الباب، وبقى المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وشك وحيرة، ﴿**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ**﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ،ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ قالوا: بلى، أي: فأجاب المؤمنين المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا ﴿**وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ**﴾ [الحديد:١٤]، قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿**وَتَرَبَّصْتُمْ**﴾ أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت. وقال قتادة: ﴿**وَتَرَبَّصْتُمْ**﴾ بالحق وأهله ﴿**وَارْتَبْتُمْ**﴾ أي بالبعث بعد الموت. ﴿**وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ**﴾ أي قلتم: سيُغفر لنا، وقيل: غرتكم الدنيا ﴿**حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ**

الله﴾ أى ما زلتم فى هذا حتى جاءكم الموت ﴿وغركم بالله الغرور﴾ أى الشيطان. وقال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار. ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا أى بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم فى حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولاتذكرون الله إلا قليلاً، وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الذى أخبر الله تعالى به عنهم حين يقول: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة (٣٨) إلا أصحاب اليمين (٣٩) في جنات يتساءلون (٤٠) عن المجرمين (٤١) ما سلككم في سقر﴾[المدثر:٣٨-٤٢]، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ، ثم قال تعالى: ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ أى لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قبل منه، وقوله تعالى: ﴿مأواكم النار﴾ أى: هى مصيركم وإليها منقلبكم. وقوله تعالى: ﴿هي مولاكم﴾ أى: هى أولى بكم من كل منزل، على كفركم وارتيابكم وبئس المصير.

٧٩- قوا أنفسكم وأهليكم نارًا:

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (٦) يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ [التحريم:٦، ٧].

قال على -رضي الله عنه- فى قوله تعالى: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ يقول: أدبوهم وعلموهم، وقال ابن عباس: اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصى الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار. وقال مجاهد: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله. وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها. وقال الضحاك: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما

فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه. وفى معنى هذه الآية الحديث الشريف: «مروا الصبى بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها»(١). قال الفقهاء: وهكذا فى الصوم، ليكون ذلك تمرينا له على العبادة لكى يبلغ، وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر.

وقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وقودها: أى حطبها الذى يلقى فيها جثث بنى آدم ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل: المراد بها الأصنام التى تُعبد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، وقال ابن مسعود ومجاهد: هى حجارة من كبريت، أنتن من الجيفة. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أى طباعهم غليظة قد نُزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿شِدَادٌ﴾ أى تركيبهم فى غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج، كما روى ابن أبى حاتم عن عكرمة أنه قال: إذا وصل أول أهل النار إلى النار وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم سود وجوههم كالحة أنيابهم قد نزع الله من قلوبهم الرحمة، ليس فى قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة، لو طُيِّرَ الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر، ثم يجدون على الباب التسعة عشر، عرض صدر أحدهم سبعون خريفًا، ثم يهوون من باب إلى باب خمسمائة سنة، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول، حتى ينتهوا إلى آخرها(٢). وقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أى مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يُقبلَ منكم وإنما تُجزون اليوم بأعمالكم.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة موقوفًا.

٨٠- النار تغلى بأهلها كما يغلى الحب القليل فى الماء الكثير:

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٦-١١].

يقول تعالى: وأعتدنا ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى بئس المآل والمنقلب، ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ يعنى الصياح، ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ قال الثورى: تغلى بهم كما يغلى الحب القليل فى الماء الكثير، وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أى تكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم، ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ يذكر تعالى عدله فى خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أى لو كانت لنا عقول ننتفع بها لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، وفى الحديث: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»(١)، وفى حديث آخر: «لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة».

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبى البخترى الطائى.

٨١ـ أهل النار لا يستطيعون السجود يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، بيَّن متى ذلك كائن وواقع، فقال تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساقٍ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ يعنى: يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والبلاء والامتحان والأمور العظام. روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا»(١). وقال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة، وعن ابن مسعود ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: عن أمر عظيم، كقول الشاعر: شالت الحرب عن ساق(٢). وقال ابن جرير عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: شدة الأمر وجدَّه، وقال ابن عباس: قوله ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة، وقال العوفى عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال، وكشفه دخول الآخرة. ورُوى عن النبى ﷺ قال: « ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يعنى عن نور عظيم يخرون له سجدًا»(٣). وقوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أى فى الدار الآخرة وتكبرهم فى الدنيا، فعُوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دُعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عُوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة، إذا تجلَّى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكافرين أو المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرَّ لقفاه.

---

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما من طرق وله ألفاظ، وهو حديث مشهور.

(٢) رواه عنهما ابن جرير رحمه الله.

(٣) أخرجه ابن جرير عن أبى بردة بن أبى موسى مرفوعًا، ورواه أبو يعلى وفيه رجل يهم.

٨٢ـ أهل النار يعطون كتبهم بشمائلهم:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ [الحاقة: ٢٥ـ٣٧].

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أُعْطِيَ أحدهم كتابه فى العرصات بشماله فحينئذ يندم غاية الندم ﴿ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ قال الضحاك: يعنى موتة لا حياة بعدها. وقال قتادة: تمنى الموت ولم يكن شىء فى الدنيا أكره إليه منه، ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ أى لم يدفع عنى مالى ولا جاهى عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إلىَّ وحدى، فلا معين لى ولا مجير، فعندها يقول الله عز وجل ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أى يأمر الزبانية أن تأخذه عنفًا من المحشر فتغلّه، أى تضع الأغلال فى عنقه ثم تورده إلى جهنم فتصليه إياها، أى تغمره فيها. عن المنهال بن عمرو قال: إذا قال الله تعالى: خذوه، ابتدره سبعون ألف ملك، إن الملك منهم ليقول هكذا، فيُلقى سبعين ألفًا فى النار[1]. وقال الفضيل ابن عياض: إذا قال الرب عز وجل: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغُلَّ في عنقه، ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أى اغمره فيها، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا. وقال ابن عباس: بذراع الملَك. وقال العوفى عن ابن عباس: يسلك فى دبره حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : **«لو أن رضاضة مثل هذه ـ وأشار إلى جمجمة ـ أُرسلت من السماء إلى الأرض وهى مسيرة**

(١) رواه ابن أبى حاتم.

خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا الليل والنهار قبل أن تبلغ قعرها، أو أصلها»[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدى حقهم، فإن لله على العباد أن يوحِّدوه ولا يشركوا به شيئًا، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقُبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم». وقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أى ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى، لا ﴿حميم﴾ وهو القريب، ولا ﴿شفيع﴾ يُطاع، ولا طعام له ههنا ﴿إلا من غسلين﴾، قال قتادة: هو شر طعام أهل النار. وقال الضحاك: هو شجرة في جهنم. وقال ابن عباس: ما أدرى ما الغسلين؟ ولكني أظنه الزقوم[2]. وقال عكرمة عنه: الغسلين الدم والماء يسيل من لحومهم. وعنه: الغسلين صديد أهل النار.

٨٣ـ النار (سقر) لا تبقى من الدم والعظم واللحم شيئًا:

قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦-٣٠].

قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أى سأغمره فيها من جميع جهاته، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾؟ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم، ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أى تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك وهم فى ذلك لا يموتون ولا يَحْيَوْنَ. وقوله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد: أى للجلد. وقال أبورزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال ابن عباس، تحرق بشرة الإنسان. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أى من مُقدَّمى الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلُقُهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذى، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم.

. روى ابن أبى حاتم عن البراء فى قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: إن رهطًا من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله -ﷺ- عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم. فجاء رجل فأخبر النبى -ﷺ-، فأنزل الله تعالى ساعتئذ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فأخبر أصحابه[1]. وروى الحافظ البزار عن جابر ابن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: جاء رجل إلى النبى -ﷺ- فقال: يا محمد، غلب أصحابك، فقال: «بأي شيء؟ قال: سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا -ﷺ-، قال رسول الله -ﷺ-: أفغُلب قوم يُسألون عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا -ﷺ-؟ عليَّ بأعداء الله، لكنهم قد سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة، فأرسل إليهم فدعاهم، قالوا: يا أبا القاسم، كم عدة خزنة أهل النار؟ قال: هكذا، وطبّق كفّيه مرتين وعقد واحدة وقال لأصحابه إن سألتم عن تربة الجنة فهى الدرمك فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار، قال لهم رسول الله -ﷺ-: ما تربة الجنة؟ فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: خبزة يا أبا القاسم، فقال: الخبزة من الدرمك»[2].

٨٤ـ عِدّةُ أصحاب النار من الملائكة:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣١-٣٧].

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أى خزّانها ﴿إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ أى زبانية غلاظًا شدادًا، وذلك ردٌّ على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم،

(١) رواه ابن أبى حاتم.
(٢) رواه البزار وأحمد والترمذى.

فقال الله تعالى: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أى شديدى الخَلْق لا يُقاوَمُون ولايُغالبَون. وقد قيل: إن أبا الأشدين قال: يا معشر قريش، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر، إعجابًا منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد لا يتزحزح عنه. قال السهيلى: وهو الذى دعا رسول الله -ﷺ- إلى مصارعته وقال: إن صرعتنى آمنت بك، فصرعه النبى -ﷺ- مرارًا فلم يؤمن(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعةعشر اختبارًا منا للناس ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى يعلمون أن هذا الرسول حق، فإنه ينطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله. وقوله تعالى: ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ أى إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم -ﷺ-، ﴿ وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أى: من المنافقين، ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾؟ أى يقولون: ما الحكمة فى ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم أنهم تسعة عشر فقط، وقد ثبت فى حديث الإسراء فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة: «**فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم**»(٢).

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إنى أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لَضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولَخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى**

---

(١) نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد. قال ابن كثير: ولا منافاة بين ما ذكراه. والله أعلم.

(٢) أخرجاه فى الصحيحين.

الله تعالي. فقال أبو ذر: والله لوددتُ أني شجرة تُعْضَدُ»(١). وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف، إلا وفيه مَلَك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنَّا لم نشرك بك شيئًا»**(٢).

وعن ابن مسعود أنه قال: إن من السماوات سماءً ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة مَلَك أو قدماه قائم، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦](٣)، وروى محمد بن نصر عن عباد بن منصور قال: سمعت عدي بن أرطأة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله تعالى ملائكةً ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك تَقْطُر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجودًا منذ خلق الله السماوات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رءوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»**(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: النار التي وصفت ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي: ولَّى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي: أشرق ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي العظائم يعني النار، قال ابن عباس ومجاهد، ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى للحق، أو يتأخر عنها ويولِّي ويردَّها.

٨٥- أهل النار ما عبدوا ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه:

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

(٢) أخرجه الحافظ الطبراني.

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة.

(٤) أخرجه محمد بن نصر، قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

من الْمُصَلِّين (٤٣) ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٣٨-٤٧].

يقول تعالى مخبراً أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أى: معتقلة بعملها يوم القيامة ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى يسألون المجرمين وهم فى الغرفات، وأولئك فى الدركات قائلين لهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أى ما عبدنا ربنا ولا أحسنَّا إلى خلقه من جنسنا، ﴿وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أى نتكلم فيما لا نعلم، وقال قتادة: كلما غوى غاوٍ غوينا معه ﴿وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعنى الموت.

٨٦ـ شرر النار:

قال الله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لا ظَلِيلٍ ولا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٢٩-٣٤].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ يعنى لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب، ﴿لا ظَلِيلٍ ولا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أى ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ﴿ولا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ يعنى: ولا يقيهم حر اللهب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أى يتطاير الشرر من لهبها كالقصر قال ابن مسعود: كالحصون. وقال ابن عباس ومجاهد: يعنى أصول الشجر ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ أى كالإبل السود، قاله مجاهد والحسن واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس: ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ يعنى حبال السفن، وعنه: ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ قطع نحاس. عن عبد الرحمن بن عابس قال: سمعت ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للبناء

فنسميـه القصر ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ حبال السفن تُجـمع حتى تكون كأوساط الرجال[1]، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٨٧- جهنم مُعدَّة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ [النبأ:٢١-٣٠].

قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أى مرصدة مـعدَّة ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ﴿مَآبًا﴾ أى مرجعًا ومنقلبًـا ومصيرًا ونُزلاً. وقال الحسن وقتادة: لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار، فإن كان معه جواز نجا وإلا احتبس. وقوله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ أى ماكثين فيـها أحقابًا وهى جمع حقب وهو المدة من الزمان، وقد اختلفـوا فى مقداره، فقال ابن جرير، قال على بن أبى طالب لهلال الهجرى: ما تجـدون الحقب فى كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شـهرًا، كل شهر ثلاثون يومًا، كل يوم كألف سنة. وعن الحـسن والسدى: سـبعون سـنة. وعن عبـد الله بن عمرو: الحـقب أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون[2]. وقال بشير بن كعب ذكر لى أن الحقب الواحد ثلاثمائة اثنا عشر شهرًا كل حقب سبعون سنة كل سنة ثلاثمائة وستـون يومًا كل يوم كـألف سنة مما تعدون وقـال خالد بن مـعدان: هذه الآية، وقوله تعالى ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [هود:١٠٨]، فى أهل التوحيد[3]. قال ابن جرير: والصحيح أنها لا انقضاء لها، كما رُوى عن سالم: سمعت الحسن يُسأل عن قوله تعالى: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: أما الأحقـاب فليس لها عدة إلا الخلود فى النار، ولكن ذكروا أن الحقـب سبعون سنة، كل يوم منها كـألف سنة مما تعدون. وقال قتـادة: قال الله تعالى: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ وهو ما لا انقطاع له وكلما مضى حقب جاء حـقب بعده، وقال الربيع بن أنس: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ لا

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) رواهما ابن أبى حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير.

يعلم عـدة هذه الأحقاب إلا الله عـز وجل، وذكر لنـا أن الحقب الواحد ثـمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يومًا، كل يوم كألف سنة مما تعدون(١).

وقوله تعالى: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾ أى لا يجدون في جهنم بردًا لقلوبهم، ولا شـرابًا طيبًـا يتغـذون به، ولهذا قال تـعالى: ﴿إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، وقال أبوالعـالية: استثنى من البـرد الحميم، ومن الشراب الـغساق. وقـال الربيع بن أنس: فأمـا الحـميم فهـو الحار الذى قـد انتهى حـره وحمـوه، والغساق هو ما اجـتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجـروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه مـن نتنه. وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ أى هذا الذى صاروا إليه من هذه العـقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التى كـانوا يعملونها فى الدنيـا، ثم قال تعـالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أى لم يكونوا يعتقدون أن ثَمَّ دارًا يُجازون فيها ويُحاسبون، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أى وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسوله ﷺ فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة. وقوله ﴿كِذَّابًا﴾ أى تكذيبًا، وهومـصدر من غيـر الفعل. وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أى وقد علمنا أعمال العـباد وكتبناها عليـهم وسنجزيهم علـى ذلك إن خيـرًا فخـير وإن شـرًا فشـر. وقوله تعـالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ أى يقال لأهل النار: ذوقـوا ما أنتم فـيه فلن نزيدكم إلا عذابًا من جنسه وآخر من شكله أزواج. قال قتادة: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ فهم فى مزيد من العذاب أبدًا.

٨٨ ـ الغاشية من أسماء يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ١-٧].

---

(١) أخرجه ابن جرير.

الغاشية من أسماء يوم القيامة، لأنها تغشى الناس وتعمهم، روى عن عمرو بن ميمون أنه قال: «مر النبي -ﷺ- على امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ فقام يستمع ويقول: نعم قد جاءني». وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي ذليلة. وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها. وقوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أى قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية. عن أبى عمران الجونى قال: مرّ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بدير راهب، قال: فناداه، ياراهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكى، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل فى كتابه ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فذاك الذى أبكانى. قال ابن عباس: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ النصارى. وعن عكرمة والسدى: عاملة في الدنيا بالمعاصى، ناصبة فى النار بالعذاب والإهلاك. قال ابن عباس: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أى: حارة شديدة الحر، ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أى قد انتهى حرها وغليانها[1]. وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ قال ابن عباس: شجر من النار. وقال سعيد بن جبير: هو الزقوم، وعنه: إنها الحجارة. وقال البخارى: قال مجاهد: الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس، وهو سم. وقال قتادة: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه. وقوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ يعنى لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

٨٩- النار مطبقة على أهلها فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [البلد: ١٩، ٢٠].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أى أصحاب الشمال، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ أى مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ،ولا خروج لهم

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن والسدى.

منها، قال أبو هريرة: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾أي مطبقة. وقال ابن عباس: مغلقة الأبواب. وقال مجاهد: أصد الباب أي: أغلقه. وقال الضحاك: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾حيط لا باب له. وقال قتادة: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد. وقال أبو عمران الجوني: إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان، وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شرَّه، فأوثقوا بالحديد، ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم، أي: أطبقوها. وقال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدًا، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدًا، ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبدًا، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبدًا. أخرجه ابن أبي حاتم.

فائدة: ذكر ابن كثير أيضًا رحمه الله تعالى في سورة الهمزة ﴿في عمد ممددة﴾يعني الأبواب هي الممددة، وعنه: أدخلهم في عمد ممددة عليهم بعماد، في أعناقهم السلاسل، فسدَّت بها الأبواب، وقال قتادة: كنا نُحدَّث أنهم يُعذَّبون بعمد في النار. واختاره ابن جرير. وقال أبو صالح: ﴿في عمدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾يعني القيود الثقال.

٩٠- من الذي يدخل النار:

قال الله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٤-٢١].

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾قال مجاهد: أي توهج. وفي الحديث: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجل تُوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه» أخرجه البخاري. وفي رواية لمسلم: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا»(١).

(١) أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير.

وقوله تعالى: ﴿**لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى**﴾ أى: لا يدخلها إلا الشقى، ثم فسَّره فقال: ﴿**الَّذِى كَذَّبَ**﴾ أى: بقلبه ﴿**وَتَوَلَّى**﴾ أى: عن العمل بجوارحه وأركانه. عن أبى هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**لا يدخل النار إلا شقي. قيل: ومن الشقيُّ؟ قال: الذى لا يعمل بطاعة، ولا يترك لله معصية**»(١). وقال رسول الله -ﷺ-: «**كلُّ أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبي. قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى**»(٢).

وقوله تعالى: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى**﴾ أى وسيزحزح عن النار التقى النقى الأتقى، ثم فسره بقوله ﴿**الَّذِى يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**﴾ أى يصرف ماله فى طاعة ربه ليُزكِّى نفسه، ﴿**وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى**﴾ أى ليس بذله فى مكافأة من أسدى إليه معروفًا، وإنما دفعه ذلك ﴿**ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى**﴾ أى طمعًا فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يَرْضَى**﴾ أى ولسوف يرضى من اتَّصف بهذه الصفات.

خاتمة:

روى أبو هريرة عن النبى -ﷺ- قال: «**لايَلِجُ النارَ رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعودَ اللبنُ فى الضرع**»(٣).

﴿**رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه البخارى وأحمد عن أبى هريرة.

(٣) أخرجه النسائى والترمذى، وقال: حديث صحيح.

البـاب الثـالـث
الـجنـة

١- ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء:

قال الله تعـالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥].

لما ذكر تعالى ما أعدَّه لأعدائه من الأشـقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حـال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسلـه الذين صدقوا إيمانهم بأعـمالهم الصالحـة، وهذا معنى تسميـة القرآن مثـانى، على أصح أقوال العلماء كـما سنبسطه فى مـوضعه، وهو أن يذكـر الإيمان ويتبع بذكـر الكفر أو عكسه، أو حال السعـداء ثم الأشقياء أو عكسه، وحاصله ذكـر الشىء ومقابله، وأما ذكـر الشىء ونظيره فـذاك التشـابه كمـا سنوضحـه إن شاء الله. فلهـذا قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ فوصفها بأنها تجرى من تحتها الأنهار، أى: من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء فى الحديث أن أنهارها تجرى فى غير أخدود.

وقوله تـعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ قال السدى فى تفسيره: إنهم أُتوا بالثـمرة فى الجنة فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذى رزقنا من قـبل فى الدنيـا. وقال عكرمـة: ﴿ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ معناه مثل الذى كـان بالأمس. وقال آخرون: ﴿ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ من ثمار الجنة لشدة مـشابهة بعضه بعضًـا، لقوله تعالى: ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾.

وعن يحيى بن أبى كثير قال: يُؤتى أحدهم بـالصحفة من الشىء فيأكل منها، ثم يؤتى بأخرى فيقول: هذا الذى أُتينا به من قبل، فتقول الملائكة: كل فاللون واحد والطعم مختلف.

وقال ابن جرير بإسناده فى قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ يعنى فى اللون والمرأى وليس يشبه الطعم. وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب. وعن ابن عباس: لا يشبه شيء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء. وفى رواية: ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى. وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والبزاق والمنى والولد. وقال قتادة: مطهرة من الأذى والإثم. وعن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع النعيم فى مقام أمين، من الموت والانقطاع، فلا آخر له ولا انقضاء، بل فى نعيم سرمدى أبدى على الدوام.. والله المسئول أن يحشرنا فى زمرتهم، إنه جواد كريم، برٌّ رحيم.

٢- قصة آدم عليه السلام وشجرة الخلد:

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥، ٣٦].

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس، إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ما يشاء ﴿رَغَدًا﴾ أى: هنيئًا واسعًا طيبًا. وقد اختلف فى الجنة التى أُسكنها آدم أهى فى

(١) رواه ابن مردويه، والحاكم فى المستدرك، قال ابن كثير، والأظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم.

السماء أم في الأرض؟ فالأكثرون على الأول. وحكى القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنها في الأرض، وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.

وسياق الآية يقتضي أن حواء خُلقت قبل دخول آدم الجنة، ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة، كما قال السدي في خبر ذكره عن ابن عباس وعن ناس من الصحابة: «أُخرج إبليس من الجنة، وأُسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحيداً ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة، قال: ولِمَ خُلقت؟ قالت: لتسكن إليَّ، قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولِمَ حواء؟ قال: إنهاخُلقت من شيء حي».

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فهو إخبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختُلف في هذه الشجرة ما هي؟ فقال السدي عن ابن عباس: الشجرة التي نُهي عنها آدم عليه السلام هي الكرم، وتزعم يهود أنها الحنطة، وقال ابن جرير عن ابن عباس: الشجرة التي نُهي عنها آدم عليه السلام هي السنبلة. وقال ابن جرير بسنده: حدثني رجل من بني تميم أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم، والشجرة التي تاب عندها آدم، فكتب إليه أبو الجلد: سألتني عن الشجرة التي نُهي عنها آدم وهي السنبلة، وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم وهي الزيتونة. وقال سفيان الثوري عن أبي مالك ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: النخلة. وقال ابن جرير عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: التينة.

قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله عز جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل:

كانت شـجرة التين، وجـائز أن تكون واحدة منهـا، وذلك علم إذا عُلم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ يصح أن يكون الضمير فى قوله ﴿عَنْهَا﴾ عائدًا إلى الجنة، فـيكون معنى الكلام: فـأزلهمـا أى من قبل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أى بسببهـا، كما قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:٩]، أى يُصرف بسـببه من هو مـأفوك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أى من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنىء والراحة ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى إلى وقت مقدر ومقدار معين ثم تقوم القيامة.

وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى بأسانيده وأبى العالية ووهب بن منبه وغيـرهم هنا أخباراً إسرائـيلية عن قصة الحـية وإبليس، وكيف جـرى من دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته، وسنبـسط ذلك إن شاء الله فى سورة الأعراف فهناك القصة أبسط منها ههنا، والله الموفق[1].

فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التى أُخرج منها فى السماء كما يقوله الجمهور من العلمـاء، فكيف تمـكن إبليس من دخـول الجنة وقـد طرد من هناك؟ أجـاب الجمهور بأجـوبة، أحدها أنه مُنع من دخول الجنة مكرمًا، فأمـا على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع. ولهـذا قال بعضهم: كما فى التـوراة: إنه دخل فى فم الحية إلى الجنة. وقد قـال بعضهم: يحتـمل أنه وسوس لهمـا وهو خارج باب الجنة. وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهـما وهو فى الأرض وهما فى السماء. ذكرها الزمخشرى وغـيره، وقد أورد القرطبى ههنا أحاديث فى الحيـات وقتلهن، وبيان حكم ذلك، فأجاد وأفاد.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ

---

(١) راجع تفسير هذه القصة فى سورة الأعراف من كتاب (مخـتصر تفسير ابن كثير) للصابونى أثابه الله تعالى، جـ٢ ص٧-١٣.

تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ [الأعراف:٢٣]، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: أرأيت يا رب إن تبت وأصلحت؟ قال الله: «إذن أدخلك الجنة» فهى الكلمات. ومن الكلمات أيضًا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ [الأعراف:٢٣]، وعن مجاهد أنه كان يقول فى قول الله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ الكلمات: اللهم لا إله إلا نت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمتُ نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين»، «اللهم لا إلا إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ إنى ظلمتُ نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين»، «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فتبْ عليَّ إنك أنت التواب الرحيم».

وقوله تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ أى: إنه يتوب على من تاب وأناب، كقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ [التوبة:١٠٤]، وقوله: ﴿ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه﴾ [النساء:١١٠]، وقوله: ﴿ومن تاب وعمل صالحا﴾ [الفرقان:٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨].

يقول تعالى مخبرًا عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: إنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل، كما قال أبو العالية: الهدى الأنبياء والرسل والبينات البيان. وقال مقاتل بن حيان: الهدى محمد ﷺ، وقال الحسن: الهدى القرآن. وهذان القولان صحيحان، وقول أبى العالية أعم، ﴿فمن تبع هداي﴾ أى من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فلا خوف عليهم﴾ أى فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال فى سورة طه: ﴿ومن أعرض

عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [طه:١٢٤]، كما قال ههنا: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص. قال رسول الله -ﷺ-: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحمًا أُذن في الشفاعة» رواه مسلم. وذُكر هذا الإهباط الثاني لما تعلّق به ما بعده من المعنى المغاير للأول. وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير، كما يقال: قم قم. وقال آخرون: بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض. والصحيح الأول، والله أعلم.

٣ـ الجنة والبلاء:

قال الله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ [البقرة:٢١٤].

يقول تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ قبل أن تُبتلوا وتُختبروا وتُمتحنوا، كما فعل الذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال: ﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب،. قال ابن مسعود: ﴿البأساء﴾ الفقر، ﴿والضراء﴾ السقم، ﴿وزلزلوا﴾ خُوِّفوا من الأعداء زلزالاً شديداً وامتُحنوا امتحانًا عظيمًا، كما جاء في الحديث عن خبَّاب بن الأرت قال: «قلنا: يارسول الله ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا، فقال: إن من كان قبلكم كان أحدهم يُوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلُص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه ثم قال: والله لَيُتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، لكنكم قوم تستعجلون» رواه البخاري. وقال تعالى: ﴿الم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت:١-٣]، وقد حصل من هذا جانب

عظيم للصحابة -ﷺ- في يوم الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، ولما سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالاً يدال علينا وندال عليه، قال: كذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لها العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ أى سُنَّتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أى يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقُرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها، ولهذا قال: ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

٤- الجنة أعدت للمتقين:

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى كما أعدت النار للكافرين، وقد قيل: إن فى معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ تنبيهًا على اتساع طولها، كما قال فى صفة فرش الجنة ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أى فما ظنُّك بالظهائر؟ وقيل: بل عرضها كطولها لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى**

الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجَّر أنهار الجنة، وسقفها عرش الرحمن». وهذه الآية كقوله في سورة الحديد: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ الآية، وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي -ﷺ-: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال النبي -ﷺ-: «**فأين الليل إذا جاء النهار**».

وهذا يحتمل معنيين: **أحدهما**: أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث شاء الله عزَّ وجل، وهذا أظهر. **والثاني**: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشَّى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش، وعرضها كما قال الله عز وجل: ﴿**عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ والنار في أسفل سافلين، فلا تنافي بين كونها كعرض السماء والأرض وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾ أي: في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِراً وَعَلانِيَةً**﴾ [البقرة:٢٧٤]، والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قرابتهم وغيرهم بأنواع البر.

وقوله تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمَّن أساء إليهم، وقد ورد في بعض الآثار: «يقول تعالى: يا ابن ادم، اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أهلكك فيمن أهلك»(١)، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(٢).

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بـن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أيكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله، ما منَّا أحدٌ إلا ماله أحبُّ إليه من مـال وارثه، قال: اعلمـوا أنه ليس منكم أحد إلا مـالُ وارثه أحبُّ إليه من مـاله، ما لك من مـالك إلا مـا قدَّمت، ومـا لوارثك إلا ما أخَّـرت». قال: وقال رسول لله -صلى الله عليه وسلم-: «ما تعـدُّونَ الصرعـة فيكم؟ قلنـا: الذى لا تصرعـه الرجال، قال: لا، ولكن الذى يملك نفـسه عند الغضب». قال: وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أترون مـا الرقوب؟ قلنا: الذى لا ولد له، قـال: لا، ولكن الرقوب الذى لا يـقدم من ولده شيئًا»(١).

حديـث آخر: قال الإمـام أحمـد عن سهل بن مـعاذ بن أنس عن أبـيه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «من كظم غـيظًا وهو قادر عـلى أن ينفذه دعـاه الله على رؤوس الخلائق حتى يُخيِّره من أى الحور شاء».

حديث آخر: عن أبى هريرة -رضي الله عنه- فى قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال: «من كظم غـيظًا وهو قادر عـلى إنفاذه مـلأ الله جوفـه أمنًا وإيمانًا».

فقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أى لا يعملون غضبهم فى الناس بل يكفـون عنهم شـرهم ويحـتسبـون ذلك عند الله عـز وجل، ثم قـال تعـالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى مع كفِّ الشرِّ يعـفون عمن ظلمهم فى أنفـسهم، فلا يبقى فى أنفسـهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحـوال، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهـذا من مقامـات الإحسـان، وفى الحديث: «ثلاثٌ أقسم عليهنَّ: مـا نقص مال من صـدقة، وما زاد الله عـبداً بعفـو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». وروى الحاكم فى مـستدركه عن أبى بن كـعب أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «ومن سـرَّه أن يَشْرَفَ له البنـيان وتُرفع له الدرجـات فليـعف عمن ظلمـه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه»، وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله

(١) رواه أحمد وأخرجه البخارى (النصف الأول منه).

ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول: أين العافون عن الناس، هلمُّوا إلى ربكم وخذوا أجوركم، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة»(١).

وقوله تعالى: ﴿والَّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أى: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار، قال الإمام أحمد عن أبى هريرة -رضي الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «إن رجلاً أذنب ذنبًا فقال: رب إنى أذنبت ذنبًا فاغفره لي، فقال الله عز وجل: عبدى عمل ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبًا آخر فقال: رب إنى عملت ذنبًا فاغفره لى، فقال تبارك وتعالى: علم عبدى أنه له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبًا آخر فقال: رب إنى عملت ذنبًا فاغفره لي، فقال عز وجل: علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنبًا آخر فقال: رب إنى عملت ذنبًا فاغفره، فقال الله عز وجل: عبدى علم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، أُشهدكم أنى قدغفرت لعبدى فليعمل ما شاء». وعن على -رضي الله عنه- قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا نفعنى الله بما شاء منه، وإذا حدثنى عنه غيره استحلفته، فإذا حلف لى صدَّقته، وإن أبا بكر -رضي الله عنه- حدثنى وصدق أبو بكر، أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ ويُحسن الوضوء ثم يصلى ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له»(٢).

ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم فى صحيحه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله حده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء».

وعن أنس -رضي الله عنه- قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية ﴿والَّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ بكى، وعن أبى بكر

(١) أخرجه ابن مردويه.

(٢) رواه أحمد وأهل السنن وابن حبان.

-رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- قال: «عليكم بلا إلا إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»(١)، وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد عن النبى -ﷺ- قال: «قال إبليس: يا رب وعزتك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم، فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى».

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أى لا يغفرها أحد سواه، وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى تابوا من بعد ذنوبهم ورجعوا إلى الله عز وجل من قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مُقلعين عنها، ولوتكرر منهم الذنب تابوا منه، كما قال رسول الله -ﷺ-: «ما أصرَّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة»(٢)، ﴿وهم يعلمون﴾ أن من تاب تاب الله عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هويقبل التوبةعن عباده﴾، وكقوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحمياً﴾، ونظائر هذا كثيرة جداً.

ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به: ﴿أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم﴾ أى جزاؤهم على هذه الصفات ﴿مغفرةٌ من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ أى من أنواع المشروبات، ﴿خالدين فيها﴾ أى ماكثين فيها، ﴿ونِعْم أجر العاملين﴾ يمدح تعالى الجنة.

٥ـ من عدل فى وصيته دخل الجنة:

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٣، ١٤].

(١) رواه الحافظ أبو يعلى.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى والبزار.

أى: هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة، بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هى حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فيها، فلم يزد بعض الورثة، ولم ينقص بعضهم بحيلة ووسيلة بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى لكونه غير ما حكم الله به، وضاد الله فى حكمه، وهذا إنما يصدر من عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجزيه بالإهانة فى العذاب الأليم المقيم.

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إن الرجل لَيعملُ بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيُختم له بشرِّ عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيُختم له بخير عمله فيدخل الجنة**.قال: ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم: ﴿تلك حدودُ الله ـ إلى قوله ـ عذاب مهين﴾».

وقال أبو داود فى باب الإضرار فى الوصية، عن شهر بن حوشب أن أبا هريرة حدثه أن رسول الله -ﷺ- قال: «**إن الرجل لَيعملُ أو المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضران فى الوصية فتجب لهما النار**». وقال: قرأ علىَّ أبوهريرة من ههنا: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ـ حتى بلغ ـ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء:١٢، ١٣].

٦ـ مآل السعداء فى الجنة:

-قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ [النساء:٥٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء فى جنات عدن

التى تجرى فيـها الأنهار فى جميع فجـاجها ومحالها وأرجائهـا حيث شاءوا وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولاً.

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أى من الحـيض والنفـاس والأذى والأخلاق الرذيلة والصـفات الناقصـة. كما قـال ابن عباس: مطهـرة من الأقذار والأذى. وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمنى والولد. وقال قتادة: مطهـرة من الأذى والمآثم ولا حيض ولا كلف. وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ أى ظلاً عمـيقًا كثـيراً طيبًا أنيـقًا. عن أبى هريرة عن النبى -ﷺ- قال: «**إن فى الجنة لشـجرةً يسـير الراكب فى ظلهـا مائة عـام لا يقطعـها، شـجرة الخلد**» رواه ابن جرير، وأخرجه الشيخان بنحوه.

٧- من أحبَّ النبى -ﷺ- كان معه فى الجنة:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٦٩، ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ أى: من عمل بما أمر الله به ورسـوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فـإن الله عز وجل يُسكنه دار كرامتـه، ويجعله مرافقًا لـلأنبياء ثم لمن بعدهم فى الرتبـة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحـون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم، ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾. وقال البخارى عن عائشة قالت: سمـعت رسول الله -ﷺ- يقول: «**ما من نبى يمرض إلا خُـيِّر بين الدنيا والآخرة**»، وكان فى شكواه التى قُبض فيـها أخذته بحة شديدة، فسمـعته يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فعلمت أنه خُيِّر، وهذا مـعنى قوله -ﷺ- فى الحديث الآخر: «**اللهم الرفيق الأعلى، ثلاثًا**» ثم قُضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة

روى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله -ﷺ- وهو محزون، فقال له النبي -ﷺ-: **«يا فلان ما لي أراك محزونًا؟ فقال: يانبي الله، شيء فكرت فيه، فقال: ماهو؟ قال: نحن نغدو ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدًا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد عليه النبي شيئًا، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿ومن يطع اللَّه والرَّسول فأُولئك مع الَّذين أنعم اللَّه عليهم مّن النَّبيّين﴾ الآية فبعث النبي -ﷺ- فبشَّره»**.

وعن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي -ﷺ- فقال: يا رسول الله -ﷺ- إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي -ﷺ- حتى نزلت الآية: **﴿ومن يطع اللَّه والرَّسول فأُولئك مع الَّذين أنعم اللَّه عليهم مّن النَّبيّين والصّدّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحسن أُولئك رفيقًا﴾**.

وثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: **«كنت أبيت عند النبي -ﷺ-، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سَلْ. فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذلك، قال: فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود»**.

وقال الإمام أحمد عن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل إلى النبي -ﷺ- فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصلَّيت الخمس، وأدَّيت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان، فقال رسول الله -ﷺ-: **«من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب أصبعيه - ما لم يَعُقَّ والديه»** تفرد به أحمد. وروى الترمذي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله -ﷺ-: **«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين**

والشهداء». وقد ثبت فى الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله -ﷺ- سُئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «**المرء مع من أحبَّ**». قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفى رواية عن أنس أنه قال: إنى لأحب رسول الله -ﷺ- وأحب أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- وأرجو أن الله يبعثنى معهم وإن لم أعمل كعملهم. قال الإمام مالك بن أنس عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**إن أهل الجنة لَيتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل بينهم. قالوا: يارسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين**»(١).

قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ**﴾ أى من عند الله برحمته، وهو الذى أهلهم لذلك لا بأعمالهم، ﴿**وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا**﴾ أى هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

٨- عطاء العلام لخير الأنام صلى الله عليه وسلم:

قال الله تعالى: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [المائدة:١١٨].

قوله تعالى: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل، فإنه الفعَّال لما يشاء الذى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ويتضمن التبرِّى من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد فى الحديث أن النبى -ﷺ- قام ليلة حتى الصباح يرددها، قال الإمام أحمد عن أبى ذر -رضي الله عنه- قال: صلَّى النبى -ﷺ- ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ فلما أصبح قلت:

(١) أخرجه البخارى ومسلم، واللفظ لمسلم.

يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لم يشرك بالله شيئًا». وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي -ﷺ- تلا قول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه فقال: «اللهم أمتي، وبكي، فقال الله: يا جبريل اذهب إلي محمد ـ وربك أعلم ـ فاسأله ما يبكيه، فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله -ﷺ- بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك».

وقال الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان قال: غاب عنا رسول الله -ﷺ- يومًا فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قُبضت فيها، فلما رفع رأسه قال: «إن ربي عز وجل استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم؟ فقلت: ما شئت أي رب خلقك وعبادك، فاستشارني الثانية فقلت له كذلك، فقال لي: لا أخزيك في أمتك يا محمد، وبشَّرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفًا مع كل ألف سبعون ألفًا ليس عليهم حساب، ثم أرسل إليَّ فقال: ادْعُ تُجَبْ، وسَلْ تُعطَ، فقلت لرسوله: أو معطي ربي سؤالي؟ فقال: ما أرسلني إليك إلا ليعطيك، ولقد أعطاني ربي ـ ولا فخر ـ وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر وأنا أمشي حيًا صحيحًا، وأعطاني ألا تجوع أمتي ولا تُغلب، وأعطاني الكوثر وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي، وأعطاني العز والنصر، والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرًا، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة، وطيَّب لي ولأمتي الغنيمة، وأحلَّ لنا كثيرًا مما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج»(١).

٩ـ يوم ينفع الصادقين صدقهم:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي

(١) الحديث وإن كان ضعيف السند ففي أحاديث الشفاعة ما يؤيده ويؤكده.

من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١١٩، ١٢٠].

يقول تعالى مجيبًا لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبرِّي من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن ردِّ المشيئة فيهم إلى ربهم عز وجل، فعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿ **هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ** ﴾ قال ابن عباس يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿ **لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ أي: ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون -رضي الله عنهم- كما قال تعالى: ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [التوبة: ٧٢]، وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث.

وروى ابن أبي حاتم عن أنس مرفوعًا قال: قال رسول الله -ﷺ- فيه: «**ثم يتجلَّى لهم الرب جل جلاله فيقول: سلوني سلوني أعطكم، قال: فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلَّكم داري، وأنالكم كرامتي، فسلوني أعطكم، فيسألونه الرضا، قال: فيشهدهم أنه قد رضي عنهم، سبحانه وتعالى**».

وقوله: ﴿ **ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ أي هذا هو الفوز الكبيرالذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ وكما قال: ﴿ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أي هو الخالق للأشياء المالك لها، المتصرف فيها، القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير ولا عديل ولا والد ولا صاحبة، ولا إله غيره ولارب سواه. قال ابن وهب: آخر سورة أنزلت سورة المائدة.

١٠- قول أهل الجنة: الحمد لله الذي هدانا لهذا:

قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا**

الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الأعراف: ٤٢، ٤٣].

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها ﴾ نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل، لأنه تعالى قال: ﴿ لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (٤٢) ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ أى من حسد وبغض، كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا خلص المسلمون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، فوالذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدل منه بمسكنه فى الدنيا»**.
وقال السدى فى الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة، فى أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما فى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدًا. وقال على رضى الله عنه: إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾[١]. وروى النسائى وابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى فيكون له شكرًا، وكل أهل النار يرى مقعده فى الجنة فيقول: لو أن الله هدانى فيكون له حسرة»**[٢]. ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون، أى بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ: **«واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»**[٣].

(١) رواه ابن جرير عن قتادة عن على كرم الله وجهه.
(٢) أخرجه ابن مردويه والنسائى عن أبى هريرة مرفوعًا.
(٣) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة مرفوعًا.

١١- نداء أصحاب الجنة أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا:

قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥].

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا فى منازلهم ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ «أن» ههنا مفسرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق، أى قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، قالوا: نعم، كما أخبر تعالى فى سورة الصافات عن الذى كان له قرين من الكفار: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥٥-٥٧]، أى ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ويقرعه بما صار عليه أهل العذاب والنكال، وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٤، ١٥]، وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى: **«يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة ابن ربيعة، وسمى رؤوسهم: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا. قال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومًا قد جيفوا؟ فقال: والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»**(١).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أى أعلم معلم ونادى مناد ﴿ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى مستقرة عليهم، ثم وصفهم بقوله: ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وماجاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد، ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ أى: وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة كافرون أى جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولايؤمنون به، لهذا لا يبالون بما يأتون من

---

(١) الحديث مروى فى الصحيحين.

منكر القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابًا عليه ولا عقابًا، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً.

١٢ـ أصحاب الأعراف يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله:

قال الله تعـالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٦، ٤٧].

لما ذكـر تعـالى مـخاطبـة أهل الجنة مع أهـل النار نبّـه أن بين الجنة والنار حجابًا، وهـو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قـال ابن جرير: وهو السور الذى قال الله تعالى فيه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣]، وهو الأعراف الذى قال الله تعـالى فيه: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. ثم روى بإسناده عن السـدى أنه قال فـى قوله تعـالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ هو السور وهو الأعراف. وقال مجاهد: الأعـراف حجاب بين النار والجنة سور له باب. قال ابن جرير: والأعراف جمع عرف، وكل مـرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفًا، وإنما قـيل لعرف الديك عـرفًا لارتفـاعه. وعن ابن عـباس: هو سـور بين الجنة والنار. وقال السدى: إنما سمى الأعراف أعرافًا لأن أصحابه يعرفون الناس.

واختلفت عـبارات المفسـرين فى أصحـاب الأعراف من هم؟ وكلها قـريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استـوت حسناتهم وسيئاتهم[١]. وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سُئل رسول الله -ﷺ- عمّن استوت حسنانه وسـيئاته، فقال: «**أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمـعون**». وقال ابن جـرير عن حذيفـة أنه سُئل عن أصـحاب الأعراف، قال: فقال: هم قـوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقـعدت بهم سيئاتهم

(١) قال بذلك حذيفة وابن مسعود وغير واحد من السلف.

عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هنا على السور حتى يقضى الله فيهم.

وعن ابن مسعود قال: يُحاسَب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته دخل النار، ثم قرأ قول الله: ﴿**فَأَمَّا من ثقلت موازينه (٦) فهو في عيشة راضية**﴾ [القارعة: ٦-٧]، الآيتين، ثم قال: الميزان يخفُّ بمثقال حبة، ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا إلى أهل النار ﴿**قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين**﴾ تعوذوا بالله من منازلهم، قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويُعطى كل عبد يومئذ نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقى المنافقون قالوا: ﴿**ربنا أتمم لنا نورنا**﴾، وأما أصحاب الأعرف فإن النور كان بأيديهم لم ينزع، فهنالك يقول الله تعالى: ﴿**لم يدخلوها وهم يطمعون**﴾ فكان الطمع دخولاً، قال: فقال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة كُتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلبت آحاده عشراته(١).

وسُئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن أصحاب الأعراف فقال: «**هم آخر من يُفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائي، فارعوا من الجنة حيث شئتم**»(٢). وقد حكي القرطبي وغيره فيهم اثنى عشر قولاً.

وقوله تعالى: ﴿**يعرفون كلاً بسيماهم**﴾ قال ابن عباس: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه، وقال العوفي عن ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوذون بالله أن يجعلهم مع

---

(١) رواه ابن جرير عن ابن مسعود موقوفًا.

(٢) قال ابن كثير: هذا مرسل حسن.

القــوم الظالمين، وهــم فى ذلك يحيُّــون أهل الجنة بالســلام ولم يـدخلوها وهم يطمعــون، قال: والله مـا جعل ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامــة يريدها بهم، وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفــوهم قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالميــن. وقال السدى: وإذا مروا بهم ـ يـعنى أصحاب الأعــراف ـ بزمرة يذهب بهم إلى النار قــالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال عكرمة: تجــدد وجوههم للنار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم. وقــال ابن أسلم فى قوله ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مســودة وأعينهم مزرقة ﴿ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨، ٤٩].

يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعــرفونهم فى النار بسيــماهم ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أى كثرتكم، ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى لا تنفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال، ﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى أصحاب الأعراف ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وقــال ابن جــرير عن ابن عـبــاس ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية قال: فلمــا قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا ـ يعنى أصحاب الأعراف ـ لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

١٣ـ طعام أهل الجنة محرم على الكافرين:

قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ

الْماءِ أَوْ مِمَّا رزقكم اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياةُ الدُّنيا فالْيوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ [الأعراف: ٥٠، ٥١].

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدى: ﴿أَنْ أَفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ يعنى الطعام. وقال ابن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم. وقال سعيد بن جبير: ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول له: قد احترقت فأفض عليَّ من الماء، فيقال لهم: أجيبوهم، فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعنى طعام الجنة وشرابها، وسئل ابن عباس: أى الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: ﴿أَفيضوا علينا من الْماءِ أَوْ مِمَّا رزقكم الله﴾؟»(١).

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه فى الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعبًا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة. وقوله: ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أى يعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولاينساه، كما قال تعالى: ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وإنما قال تعالى: هذا من باب المقابلة كقوله: ﴿نسوا اللَّه فنسيهم﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، وقال ابن عباس: نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر. وعنه: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم فى النار، وقال السدى: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا. وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتنى».

---

(١) رواه ابن أبى حاتم.

١٤ـ منزلة الشهداء في هذه الدار وفي دار القرار:

قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩ـ١٧١].

يخبر تعـالى عن الشهداء بأنهم وإن قُتلوا فى هذه الدار فإن أرواحـهم حية مرزوقة فى دارالقرار. روى ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك فى قصة أصحاب رسول الله -ﷺ- الذين أرسلهم نبى الله -ﷺ- إلى أهل (بئر مـعونة) قال: لا أدرى أربعين أو سبعين، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرى، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله-ﷺ- حتى أتوا غاراً مشرفًا عـلى الماء فقعدوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله-ﷺ- أهل هذا الماء؟ فقال ـ أراه أبو ملحان الأنصارى ـ أنـا أبلغ رسالة رسول الله -ﷺ-، فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى أمام البـيوت ثم قال: يا أهل بئر معونة إنى رسول رسول الله إليكم، إنى أشـهد أن لا إلـه إلا الله وأن محـمدًا عـبـده ورسوله، فـآمنوا بالله ورسوله. فخرج إليـه رجل من كسر البيت برمح فضربه فى جـنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكـبر فزت ورب الكعبة، فاتبعـوا أثره حتى أتوا أصحابه فى الغار فقتلهم أجمعين (عامر بن الطفيل).

وقال ابن إسحق: حدثنى أنس بن مالك أن الله أنـزل فيهم قرآنًا، بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه، ثم نـسخت فرفعت بعد ما قرأناها زمانا، وأنزل الله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، وقد قال مسلم فى صحيحه عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال: أما إنا قـد سألنا عن ذلك رسول الله -ﷺ- فقال: «**أرواحهم فى جوف طير خـضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسـرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل، فـاطلع عليهم ربهم اطلاعـة فقـال: هل تشتهـون شيـئًا؟**

فقالوا: أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن تردَّ أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا».

(حديث آخر): عن أنس أن رسول الله -ﷺ- قال: **«ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة»**(١).

وقوله تعالى: ﴿**فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ**﴾ إلى آخر الآية، أى الشهداء الذين قُتلوا فى سبيل الله أحياء عند ربهم، وهم فرحون بما آتاهم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يُقتلون بعدهم فى سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة. وقال محمد بن إسحق: ﴿**وَيَسْتَبْشِرُونَ**﴾ أى ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذى أعطاهم. قال السدى: يؤتى الشهيد بكتاب فيه: يَقْدُمُ عليك فلان يوم كذا وكذا، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيُسرُّ بذلك كما يسرُّ أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم. قال سعيد بن جبير: لما دخلوا الجنة رأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: يا ليت إخواننا الذين فى الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير، فأخبر رسول الله -ﷺ- بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم - أى: ربهم - أنى قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم، فاستبشروا بذلك، فذلك قوله: ﴿... **يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ**﴾ الآية [آل عمران: ١٧٠].

وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قُتلوا فى غداة واحدة، وقنت رسول الله -ﷺ- يدعو على الذين

---

(١) رواه أحمد ومسلم.

قتلوهــم ويلعنهم، قال أنس: ونزل فــيهم قرآن قــرأناه حتى رُفع: «أن بلـغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا».

ثم قال تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال عـبد الرحـمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمـعت المؤمنين كلهم سواء الشهيـد وغيرهم، وقلما ذكر الله فضلاً ذكـر به الأنبياء وثوابًا أعطاهم الله إياه إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم.

١٥ـ عقد الرحمن:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم ـ إذ بذلوها فى سبيله ـ بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبـيده المطيعين له. ولهـذا قال الحسن البصرى وقـتادة: بايعهم فأغلى ثمنهم. وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله عز وجل فى عنقه بيعة وفى بهـا أو مات عليـها، ثـم تلا هذه الآية. وقال عـبد الله بن رواحـة ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، يعنى ليلة العقبة: «**اشترط لربك ولنفسك مـا شئت، فقال: أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيـئًا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية**».

وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى سواء قَـتلوا أو قُـتلوا. أو اجـتـمع لهم هذا وهذا، فـقـد وجبت لهم الجنة، ولهـذا جـاء فى الصـحيحـين: «**تكفَّل الله لمن خرج فى سبـيله لا يُخـرجه إلا جـهـاد فى سبيلى وتصديق برسلى بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلاً مانال من أجر أو غنيمة**».

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيدًا لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه العظيمة وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد، وكذا كقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨]، ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد، ووفّى بهذا العهد، بالفوز العظيم والنعيم المقيم.

١٦ـ من هو المجاهد في سبيل الله:

قال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش، ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها ومن أخصها الحمد لله، ولهذا قال: ﴿الْحَامِدُونَ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيام، وهوترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، ﴿السَّائِحُونَ﴾ كما وصف أزواج النبي -ﷺ- بذلك في قوله تعالى: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ [التحريم:٥]، أي صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهوحفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علمًا وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

والسياحة يراد بها الصيام، فقد سُئل النبى -ﷺ- عن السائحين فقال: «**هم الصائمون**» وهذا أصح الأقوال وأشهرها. وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما رواه أبوداود فى سننه من حديث أبى مامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لى فى السياحة، فقال النبى -ﷺ- : «**سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله**». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم. وقال ابن أسلم: هم المهاجرون، وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض والتفرد فى شواهق الجبال والكهوف والبرارى، فإن هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله -ﷺ- قال: «**يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال**[1] **ومواقع القطر يفرٌّ بدينه من الفتن**»، وقال ابن عباس فى قوله ﴿**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**﴾ قال: القائمون بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصرى. وعنه قال: لفرائض الله، والقائمون على أمر الله.

١٧ـ الله ينمى أعمال الشهداء:

قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**﴾ [محمد: ٤ـ٦].

قوله تعالى: ﴿**والذين قُتلوا فى سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم**﴾ أى لن يُذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجرى عليه عمله طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث عن المقدام بن معديكرب الكندى -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يُغفر له فى أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلَّى حلة الإيمان، ويُزوَّج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوَّج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنسانًا من أقاربه**»[2]. وفى صحيح مسلم عن عبد الله

---

(١) شعف الجبال: أى رءوس الجبال.

(٢) أخرجه أحمد وابن ماجة والترمذى وصححه.

ابن عـمرو -رضي الله عنه- أن رسـول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «يُغفـر للشـهيـد كلُّ شيء إلا الدَّيْن»(١). وفى الصحيح: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته»(٢) والأحاديث فى فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿سيهديهم﴾ أى إلى الجنة، ﴿ويُصلح بالهم﴾ أى أمرهم وحالهم، ﴿يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أى عرفهم بها وهـداهم إليها. قال مجاهد: يهـتدى أهلهـا إلى بيوتهم ومـساكنهم وحـيث قسم الله لهم منـها، لا يخطئون كأنهم سـاكنوها منذ خُلقوا. وقال محمد بن كعـب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفـون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعـة. وقال مقاتل: بلغنا أن الملك الذى كان وكل بحفـظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة ويتـبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هو له فيعرفه كل شىء أعطاه الله تعالى فى الجنة، فإذا انتـهى إلى أقصى منزله فى الجنة دخـل إلى منزله وأزواجه وانصـرف الملك عنه. وقد ورد الحديث الصـحيح بذلك عن أبى سعيـد الخدرى -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كـانت بينهـم فى الدنيـا، حـتى إذا هُذِّبوا ونُقُّـوا أُذِنَ لهم فى دخـول الجنة، والذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله الذى كان فى الدنيا» أخرجه البخارى فى صحيحه.

١٨- رضا الله عن أهل الجنة أعظم من نعيم الجنة:

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

يخبر تعـالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيـرات والنعيم المقيم فى ﴿جنَّات تجرِى من تحتِها الأنهار خالدِين فِيها﴾ أى ماكثين فيها أبداً، ﴿ومساكن طيِّبة﴾ أى حسنة البناء طيبة القرار، كمـا جاء فى الصحيحين: «جنتان من ذهب

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه أبو داود عن أبى الدرداء مرفوعًا.

آنيتـهما وما فـيهما، وجنتـان من فضة آنيتـهما وما فـيهما، ومـا بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن».

وقال -ﷺ- : «إن فى الجنة مائة درجـة أعدها الله للمجاهدين فى سـبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فـإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة،وفوقه عرش الرحمن»[١].

وقال رسـول الله -ﷺ-: «إن أهل الجنة لَيـتـراءونَ الغرف فى الجـنة كمـا يتراءون الكواكب فى السماء» أخرجاه فى الصحيحين.

وفى مسند الإمـام أحمد عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قـال: قلنا: يا رسول الله، حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة من ذهب ولبنة من فضـة، وملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

وعند التـرمذى عن على -رضي الله عنه- قـال: قال رسـول الله -ﷺ-: «إن فى الجنة لغـرفًا يُرى ظاهرها من باطنهـا وباطنها من ظـاهرها، فقـام أعرابى فقـال: يا رسـول الله، لمن هى؟ فـقـال: لِمَنْ طيَّب الـكلام، وأطعم الطعـام، وأدام الصـيـام، وصلى بالليل والناس نيام».

وعن أسامة بن زيد قـال: قال رسول الله -ﷺ-: «ألا هل من مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لهـا، هى ورب الكعبة نور يتـلألأ، وريحانة تهتز، وقـصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام فى أبد فى دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة، فى محلة عالية بهية. قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمـرون لها، قال: قولوا إن شاء الله، فقـال القوم: إن شاء الله» رواه الشيخان ومالك.

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أى: رضا الله عنهم أكبر وأجلُّ وأعظم مما هم فـيه من النعيم، كـما قـال رسول الله -ﷺ-: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنـة، فيقولون: لبـيك ربنا وسعديك والخـير فى يديك،

---

(١) أخرجه الشيخان عن أبى هريرة.

فيـقول: هل رضـيتم؟ فيـقولون: وما لنـا لا نرضى يارب وقد أعطيتنـا ما لم تعط أحـدًا من خلقك؟ فيـقول: ألا أعطيـكم أفضل من ذلك؟ فـيقـولون: يا رب وأى شيء أفـضل من ذلك؟ فيـقـول: أحلُّ عليكم رضـوانى فلا أسـخط عليكم بعـده أبدًا»(١).

١٩ـ رضا الله عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين:

قال الله تعـالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

يخبر تعـالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصـار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم بما أعد لهم من جنات النعيم. قال الشعبى: السابقون الأولون من أدرك بيعة الرضـوان عام الحديبية. وقال الحسن وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله -ﷺ-، فقد أخبرالله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعـد الرسول وخيرهم وأفـضلهم، أعنى الصديق الأكـبر والخليفـة الأعظم أبا بكر -رضي الله عنه- فإن الطائفـة المخذولة من الرافضة يعـادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسـبونهم، عياذًا بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم، وأما أهل السنة فإنهم يرضون عمن رضى الله عنه ويسبون من سبَّه الله ورسوله، ويوالون من يوالى الله، ويعادون من يعادى الله، وهم متبـعون لا مبتدعون، و يقتـدون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون.

---

(١) رواه الشيخان ومالك عن أبى سعيد الخدرى.

٢٠ـ أهل الجنة يُلهمُونَ التسبيح والتحميد كما يُلهمُونَ النفس:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑨ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:٩، ١٠].

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أُمروا به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، أى بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد فى قوله ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به، وقال ابن جريج: فى الآية يمثل له عمله فى صورة حسنة إذا قام من قبره يبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك فى قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة، فيلزم صاحبه حتى يقذفه فى النار.

وقوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج: أُخبرت أنه إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم، فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . وقال مقاتل: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن، وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، وقوله: ﴿إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة:٢٦]، وقوله: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ㉓ سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ الآية [الرعد:٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه دلالة

على أنه تعالى هو المحمود أبدًا، المعبود عـلى طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ﴾ [الكهف:١]، ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** ﴾ [الأنعام:١]، إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطهـا، وأنه المحمود في الأولى والآخـرة في جمـيع الأحوال، ولهـذا جاء في الحديث: «**إن أهل الجنة يُلْهَمُـون التسبيح والتحـميد كما يُلْـهَمُون النفس**»، وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليـهم، فتُكرر وتُعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

٢١. نظر أهل الجنة إلى وجه الرحمن:

قال الله تعالى: ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [يونس:٢٦].

يخـبر تعـالى أن لمن أحـسن العـمل في الدنيـا بالإيمان والعـمل الصـالح ﴿ **الْحُـسْنَىٰ** ﴾ في الدار الآخـرة، ﴿ **هَلْ جَـزَاءُ الْإِحْـسَـانِ إِلَّا الْإِحْـسَـانُ** ﴾ [الرحمن:٦٠]، وقوله: ﴿ **وَزِيَادَةٌ** ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمـال ويشمل ما يعطيهم الله في الجنة من القـصور والحور العـين والرضا عنهم، ومـا أخفاه لـهم من قرة أعـين، وأفضل من ذلك وأعـلاه النظر إلى وجـهه الكريم، فـإنه زيادة أعظم من جمـيع ما أعطوه لا يستحـقونها بعـملهم بل بفضله ورحمـته، وقد روى تفسـير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمـهور من السلف والخلف، روى الإمام أحمد عن صهيب -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا هذه الآية: ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ وقال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فـيقولون: وما هو؟ ألم يثقِّل موازيننا؟ ألم يُبيِّض وجـوهنا؟ ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشـف لهم الحجاب**

فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»(١).

وعن أبي موسى الأشعرى عن رسول الله -ﷺ-: «إن الله يبعث يوم القيامة مناديًا ينادي: يا أهل الجنة ـ بصوت يُسمِع أولهم وآخرهم ـ إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل»(٢)، وسُئل رسول الله -ﷺ- عن قول الله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قتام وسواد في عرصات المحشر، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١]، أي: نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين.

٢٢ـ نعيم الجنة لا يزول:

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨].

يقول تعالى: ﴿وأَمَّا الَّذين سُعِدُوا﴾ وهم أتباع الرسل، ﴿ففى الجنَّة﴾ أى فمأواهم الجنة، ﴿خالدين فيها﴾ أى ماكثين فيها أبدًا، ﴿ما دامت السَّموات والأرضُ إلاَّ ما شاءَ ربُّك﴾ معنى الاستثناء ههنا أن داومهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائمًا. وعقب ذلك بقوله ﴿عطاءً غير مَجْذُوذ﴾ أى غير مقطوع(٣)، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثمَّ انقطاعًا أو لبسًا أو شيئًا، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، كقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وجماعة من الأئمة.
(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم.
(٣) قال مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد.

وهم يسألون﴾ [الأنبياء:٢٣]، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله ﴿عطاءً غير مَجْذُوذ﴾.

وقد جاء في الصحيحين: «يُؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيُذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت»، وفي الصحيح أيضًا: فيقول: «يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا».

٢٣ـ أهل الجنة يجمع الله بينهم وبين أحبابهم من الآباء والأهلين ممن هو صالح لدخول الجنة:

قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣،٢٤].

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة، أي: جنات إقامة يخلدون فيها، وقال الضحاك في قوله ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها. وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقرَّ أعينهم بهم، حتى إنه تُرفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانًا من الله وإحسانًا من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الطور:٢١].

وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلِّمين مهنِّئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والنبيين والرسل الكرام.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين تُسَدُّ بهم الثغور، وتُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، وتُسد بهم الثغور، وتُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾».

ورواه أبو القاسم الطبراني عن عبد الله بن عمرو عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أُمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت منهم حاجة إلى سلطان لم تُقض حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أين عبادي الذي قاتلوا في سبيلي وأُوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغيرعذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك، من هؤلاءالذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي وأُذوا في سبيلي، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾». وقد جاء في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم: «﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان.

٢٤ـ الجنة مستقر القلب المطمئن بذكر الله:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

﴿الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩].

قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾** أى تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: **﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** أى هو حقيق بذلك، وقوله: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾** وقال ابن عباس: فرج وقرة عين. وقال عكرمة: نعم مالهم، وقال الضحاك: غبطة لهم وقال إبراهيم النخعى: خير لهم، وقال قتادة: يقول الرجل: طوبى لك أى: أصبت خيراً. وقيل: حسنى لهم، و**﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾** أى: مرجع. وهذه الأقوال لا منافاة بينها، وروى السدى عن عكرمة: طوبى لهم هى الجنة. وبه قال مجاهد.

وروى ابن جرير عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة فى الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها من وراء سور الجنة وهكذا روى غير واحد من السلف أن طوبى شجرة فى الجنة فى كل دار منها غصن منها. وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن. وروى البخارى ومسلم عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: **«إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها»** قال: فحدثت بها النعمان بن أبى عياش الزرقى فقال: حدثنى أبو سعيد الخدرى عن النبى -ﷺ- قال: **«إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها»**. وفى صحيح البخارى عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ- فى قوله تعالى: **﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾** قال: **«فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها»**.

٢٥ - فواكه الجنة ومطاعمها لا تنقطع:

قال الله تعالى: **﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا....﴾** [الرعد: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أى صفتها ونعتها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: سارحة فى أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرًا، أى يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كقوله: ﴿مثل الجنة التى وُعِدَ المتقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ﴾ الآية [محمد:١٥]، وقوله: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء. وفى الصحيحين من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئًا فى مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت، فقال: «إنى رأيت الجنة ـ أو أُريت الجنة ـ فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». وقال الحافظ أبو يعلى عن جابر قال: بينما نحن فى صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله – ﷺ – فتقدمنا، ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أُبيٌّ بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم فى الصلاة شيئًا ما رأيناك كنت تصنعه، فقال: «إنى عُرِضت عليَّ الجنة ما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به فحيل بينى وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه».

وروى الإمام أحمد والنسائى عن زيد بن أرقم قال: «جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم، والذى نفس محمد بيده إن الرجل منهم لَيُعْطَى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة. قال: إن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس فى الجنة الأذى. قال: تكون حاجة أحدهم رشحًا يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه». وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لى رسول الله – ﷺ –: «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فيخرُّ بين يديك مشويًا».

وجاء فى بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائرًا كما كان بإذن الله تعالى. وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٢، ٣٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان:١٤]، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا

أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ [النساء:٥٧]، وقد تقدم فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله -ﷺ- قال: «**إن فى الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها، ثم قرأ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**» [الواقعة: ٣٠].

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغّب فى الجنة ويحذّر من النار.

٢٦- لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما فى صدره من غل:

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ**﴾ [الحجر: ٤٥-٥٠].

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم فى جنات وعيون. وقوله: ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ**﴾ أى سالمين من الآفات مُسلَّم عليكم ﴿**آمِنِينَ**﴾ أى من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء. وقوله: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ عن أبى أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما فى صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضارى. وهذا موافق لما فى الصحيح أن رسول الله -ﷺ- قال: «**يخلص المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم فى دخول الجنة**».

وقال ابن جرير: دخل عمران بن طلحة على علىٍّ -رضي الله عنه- بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إنى لأرجو أن يجعلنى الله وإياك من الذين قال الله فيهم ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾. وعن أبى حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علىٍّ -رضي الله عنه- بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إنى لأرجو أن يجعلنى الله وإياك من الذين قال

الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ قال: ورجلان جالسان إلى ناحية البساط فقالا: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانًا، فقال علي -رضي الله عنه- قوما أبعد أرض وأسحقها، فمن هم إذًا إن لم أكن أنا وطلحة؟ وفي رواية: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فصاح به علي صيحة فظننت أن القصر تدهده لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هم؟ وقال سفيان الثوري: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي -رضي الله عنه- فحجبه طويلاً ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فجفوهم، فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ وقال الحسن البصري، قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾. وقال الثوري في قوله ﴿إخوانًا على سرر متقابلين﴾ قال: هم عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين. وقوله: ﴿متقابلين﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض، وفيه حديث مرفوع. قال ابن أبي حاتم عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتلا هذه الآية «﴿إخوانا على سرر متقابلين﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض»[(١)].

٢٧- السحاب يمطر على أهل الجنة ما يشتهونه:

قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٠-٣٢].

---

(١) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين أن هذه الآية ﴿ونزعنا ما في صدورهم﴾ نزلت في أبي بكر وعمر. قيل: وأي غل؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كانوا أعداء، فلما أسلموا تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ قالا: معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئًا إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: خيرًا أى: أنزل خيرًا، أى: رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال: ﴿للَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، أى: من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه عمله فى الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أى: من الحياة الدنيا والجزاء أتم من الجزاء فى الدنيا، كقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٧]، وقال لرسوله -ﷺ-: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]، ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أى مقام يدخلونها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١]، وفى الحديث: «**إن السحابة لتمرُّ بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم فلا يشتهى أحد منهم شيئًا إلا أمطرته عليه، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أترابًا فيكون ذلك**»، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أى كذلك يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم يطيبون، أى: مخلصون من الشرك والدنس، وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

٢٨ـ أهل الجنة يُحلَّوْنَ فيها أساور من ذهب ويلبسون ثيابًا خضرًا من سندس وإستبرق:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ

أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنَّى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، والعدن الإقامة، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ﴾ أى من تحت غرفهم ومنازلهم، قال فرعون: ﴿ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِي ﴾ الآية [الزخرف: ٥١]، ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أى من الحلية ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾، وقال فى المكان الآخر: ﴿ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣]، وفصله ههنا فقال: ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فالسندس ثياب رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق، وقوله: ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع فى الجلوس، وهو أشبه بالمراد ههنا، ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئًا»، والأرائك جمع أريكة وهى السرير تحت الحجلة، عن قتادة ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ قال: هى الحجال. وقال غيره: السرر فى الحجال. وقوله: ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أى: الجنة ثوابًا على أعمالهم ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أى حسنت منزلاً ومقيلاً ومقامًا، كما قال فى النار: ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩]، وهكذا قابل بينهما فى سورة الفرقان فى قوله: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿ خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾

٢٩- أهل الجنة كلما ازدادوا فيها مُكثًا ازدادوا لها حبًّا:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدَّقوا المرسلين فيما جاءوا به، أن لهم جنات الفردوس. قال مجاهد: هو البستان بالرومية. وقال الضحاك: هو البستان الذى فيه شجر الأعناب. وقال قتادة:

الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها. وقد روى عن النبي -ﷺ-: **«الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها»**، وفي الصحيحين: **«إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة»**.

وقوله تعالى: ﴿**نُزُلاً**﴾ أي: ضيافة فإن النزل الضيافة. وقوله: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدًا، ﴿**لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً**﴾ أي لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها كما قال الشاعر:

فَحلَّت سُوَيدا القلب لا أنا باغيًا سواها، ولا عن حبِّها أتحوَّلُ

وفي قوله تعالى: ﴿**لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً**﴾ تنبيه على رغبتهم فيها حبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه قد يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلاً.

٣٠- التائبون في جنات وعيون:

قال الله تعالى: ﴿**إِلاَّ من تاب وآمن وعمل صالحًا فأولئك يدخلون الجنَّة ولا يُظلمُونَ شيئًا**﴾ [مريم: ٦٠].

أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿**فأولئك يدخلون الجنَّة ولا يُظلمُونَ شيئًا**﴾ ذلك لأن التوبة تجبُّ ما قبلها، وفي الحديث الآخر: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**(١)، ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئًا ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدرًا وترك نسيًا وذهب مجانًا من كرم الكريم، وحلم الحليم، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً**

(١) أخرجه ابن ماجه عن ابن مسعود، والحكيم الترمذي عن أبي سعيد الخدري.

صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾

[الفرقان: ٦٨-٧٠].

٣١- الجنة دار السلام ليس فيها كلام ساقط تافه:

قال الله تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦١-٦٣].

يقول تعالى: الجنات التى يدخلها التائبون هى ﴿ جنَّات عدن ﴾ أى: إقامة ﴿ الَّتى وعد الرَّحمن عباده ﴾ بظهر الغيب، أى: هى من الغيب الذى يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم، وقوله ﴿ إنه كان وعده مأتيا ﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ [المزمل: ١٨]، أى: كائنًا لا محالة، وقوله ههنا ﴿ مأتيا ﴾ أى العباد صائرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال ﴿ مأتيا ﴾ بمعنى آتيًا، لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت علىَّ خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد، وقوله: ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ﴾ أى هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد فى الدنيا. قوله: ﴿ إلاَّ سلاما ﴾ استثناء منقطع كقوله: ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما (٢٥) إلاَّ قيلاً سلاما سلاما ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيا ﴾ أى: فى مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهارًا ولكنهم فى أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال رسول الله ﷺ: **«أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الأُلوَّة ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا»**(١)، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«الشهداء على بارق نهر بباب**

---

(١) الحديث أخرجه البخارى ومسلم، رواه أحمد عن أبى هريرة مرفوعًا.

الجنة، فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيًا»(١)، قال: مقادير الليل والنهار، وقال ابن جريرعن الوليد بن مسلم قال: سألت زهير ابن محمد عن قول الله تعالى: ﴿**ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا**﴾ قال: ليس فى الجنة ليل، هم فى نور أبدًا ولهم مقدار الليل والنهار يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الأبواب، وقال قتادة: فيها ساعتان بكرة وعشى، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هوضوء ونور. وقال مجاهد: ليس بكرة ولاعشى، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون فى الدنيا.

وقوله: ﴿**تلك الجنَّة التي نورث من عبادنا من كان تقياً**﴾ أى: هذه الجنة التى وصفنا بهذه الصفات العظيمة هى التى نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل فى السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿**أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

٣٢ـ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة:

قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ١ـ١١].

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: «**كان إذا نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ الوحى يُسمع عند وجهه كدويّ النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا**

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند.

تؤثر علينا، وارض عنا وارضنا، ثم قال: لقد أُنزل عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر»(١).

وقال النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خلق رسول الله -ﷺ-؟ قالت: كان خلق رسول الله -ﷺ- القرآن، فقرأت: ﴿**قد أفلح المؤمنون**ـ حتى انتهت إلى ـ **والذين هم على صلواتهم يحافظون**﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله -ﷺ-.

وعن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**خلق الله جنة عدن بيده، لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقي، قالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، فقال الله: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل، ثم تلا رسول الله -ﷺ-: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**[التغابن: ١٦]»(٢).

وقوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف [إلى أن وصل ـ رحمه الله ـ إلى تفسير قوله تعالى: ﴿**أولئك هم الوارثون...**﴾].

المؤمن يبني بيته الذي في الجنة ويهدم بيته الذي في النار:

﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ وثبت في الصحيحين: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن**»، وقال رسول الله -ﷺ-: «**ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾**». وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة ويبني بيته الذي في النار، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم أطاعوا ربهم عز

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا، ورواه الحافظ البزار والطبراني بنحوه.

وجل. بل أبلغ من هذا أيضًا، وهو ما ثبت فى صحيح مسلم عن النبى -ﷺ- قال: «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهوديًا أونصرانيًا، فيقال: هذا فكاكك من النار» فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله -ﷺ- بذلك قال: فحلف له.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا﴾ [مريم:٦٣]، وكقوله: ﴿أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ [الأعراف:٤٣]، وقد قال مجاهد: الجنة هى الفردوس. وقال بعض السلف: لا يُسمَّى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب. فالله أعلم.

٢٣ـ الجنة خير مأوى:

قال الله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ [الفرقان:٢٤].

أي: يوم القيامة ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر:٢٠]، وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والغرفات الآمنات، فهم فى مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما﴾ [الفرقان:٧٦]، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات وأنواع العذاب والعقوبات ﴿إنها ساءت مستقرا ومقاما﴾ [الفرقان:٦٦]، أى بئس المنزل منظرًا وبئس المقيل مقامًا، ولهذا قال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ أى بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا مانالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضى دخول الجنة لهم والنجاة من النار، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء وأنه لا خير عندهم بالكلية فقال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾، قال ابن عباس: إنما هى ساعة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين. وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار، قال الله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾. قال قتادة: أى:

مأوى ومنزلاً. وقال ابن جرير عن سعيد الصواف: أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنهم يتقلبون في رياض الجنة حتي يفرغ من الناس وذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

٣٤- من هم عباد الرحمن الذين يسكنون الجنان:

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾

[الفرقان: ٦٣-٦٧].

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي بسكينة ووقار من غير تجبر ولا استكبار، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧]، ليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعًا ورياءً، فقد كان سيد ولد آدم -ﷺ- إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنُّع، حتى رُوى عن عمر أنه رأى شابًا يمشي رويدًا فقال: ما بالك، أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرَّة وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد الهون هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله -ﷺ-: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتمُّوا».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرًا، كما كان رسول الله -ﷺ-، لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ الآية [القصص:٥٥]، وقال مجاهد: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ يعني قالوا سدادًا، وقال سعيد بن جبير، ردوا معروفًا من القول، وقال الحسن البصري: قالوا سلام عليكم، إن جُهل عليهم حلموا

يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون. ثم ذكر أن ليلهم خير ليل فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ أى فى طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑰ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨]، وقوله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ الآية [السجدة:١٦]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر:٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ⑥٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦]، (تقدم الكلام عن تفسير هذه الآية فى باب النار، أعاذنا الله منها).

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ الآية [الفرقان:٦٧]، أى ليسوا بمبذرين فى إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصِّرون فى حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ الآية [الإسراء:٢٩]، وفى الحديث: «من فقه الرجل قصده فى معيشته»[١]. وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد». وقال الحسن البصرى: ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف. وقال غيره: السرف النفقة فى معصية الله عز وجل.

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ⑥٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ⑥٩ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑦٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان:٦٨-٧١].

(١) أخرجه الإمام أحمد.

عن عبد الله بن مسعود قال: سُئل رسول الله -ﷺ-: أى الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله أندادًا وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية»[١]. وعن سلمة بن قيس قال: قال رسول الله -ﷺ- فى حجة الوداع: «ألا إنما هى أربع، فما أنا بأشح عليهم منذ سمعتهن من رسول الله -ﷺ-: لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا». وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ- لأصحابه: «ما تقولون فى الزنا؟ قالوا: حرَّمه الله ورسوله فهوحرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله -ﷺ- لأصحابه: لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره، قال: فما تقولون فى السرقة؟ قالوا: حرمها الله ورسوله فهى حرام، قال: لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره»، وعن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى -ﷺ- قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له»[٢]. وقال ابن عباس: إن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدًا -ﷺ- فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية، ونزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الزمر:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ رُوِي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: أثامًا: واد فى جهنم. وقال عكرمة: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أودية فى جهنم يُعذَّب فيها الزناة، وقال قتادة: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ نكالاً، كنا نُحدَّث أنه واد فى جهنم. وقال السدى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء، وهذا أشبه بظاهر الآية، وبهذا فسَّره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى يقرر عليه ويغلظ: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ أى حقيرًا ذليلاً.

(١) أخرجه النسائى والإمام أحمد، ورواه البخارى ومسلم واللفظ لهما.
(٢) أخرجه أبو بكر بن أبى الدنيا عن الهيثم بن مالك مرفوعًا.

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا﴾ أى: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إلاَّ من تاب﴾ أى فى الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه، وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولاتعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا﴾ الآية، فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة فتُحمل على من لم يتب.

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فى معنى قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قولان: **أحدهما**: أنهم بُدِّلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات، قال ابن عباس: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات، وقال الحسن البصرى: أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصًا، وأبدلهم بالفجور إحصانًا، وبالكفر إسلامًا. **والقول الثاني**: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف -رضي الله عنهم-. فعن أبى ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: **«إنى لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة، يُؤتى بالرجل فيقول: نَحُّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا، قال: فضحك رسول الله -ﷺ- حتى بدت نواجذه»**[1]. وعن أبى هريرة قال: لَيَأتينَّ الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات، قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبدِّل الله سيئاتهم حسنات[2]. وقال على بن الحسين زين العابدين ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: فى الآخرة. وقال مكحول: يغفرها لهم فيجعلها حسنات. قال

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه.
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة.

ابن أبى حاتم: حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولاً يحدث قال: جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال: يا رسول الله -ﷺ- رجل غدر وفجر ولم يدع حـاجة ولا داجـة إلا اقتطفـها بـيمـينه، ولو قُسِّـمت خطيـئتـه بين أهل الأرض لأوبقتهم، فهل له من توبة؟ فقال النبى -ﷺ-: **«أأسلمت؟ قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عـبده ورسوله فقال النبى** -ﷺ-: **فإن الله غـافر لك ما كنت كـذلك ومبدِّل سيئـاتك حسنات. فقـال: يا رسول الله، وغدراتي وفجراتي؟ فقال: وغدراتك وفجراتك. فولَّى الرجل يكبِّر ويهلل»**[(١)].

ثم قال تعالى مخـبراً عن عموم رحمته بعـباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان جليلاً أو حقيراً كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى: ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾ أى فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾الآية ، وقال تعالى: ﴿ **قل يا عبادى الَّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ أى: لمن تاب إليه.

﴿ **وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان: ٧٢-٧٤].

وهذه أيضًا مـن صفات عـباد الرحـمن أنهم لا يشهدون الـزور، قيل: هو الشرك وعبـادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق واللغو والباطل، وقال مـحمد بن الحنفيـة: هو اللغو والغناء، وقـال عمـرو بن قيس: هى المجالـس السوء والخنا. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ **لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ** ﴾ أى: شهادة الزور وهى الكذب متعمـداً على غيره، كما فى الصـحيحين: **«ألا أنبِّئكم بأكبـر الكبائر؟ ثلاثًا، قلنا: بلى يا رسول الله، قـال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وكـان متكئًا فجلـس فقال: ألا وقـول الزور ألا وشهـادة الزور، فمـا زال يكررها حـتى قلنا ليتـه سكت»**[(٢)].
والأظهر من الـسياق أن المراد لا يشـهدون الزور أى: لا يحـضرونه، ولهـذا قال

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وأخرجه الطبرانى بنحوه.
(٢) أخرجه الشيخان.

تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أى لا يحضـرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسـوا منه بشى، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرامًا﴾ وروى ابن أبى حاتم عن ميسرة قال: بلغنى أن ابن مسعـود مرَّ بلهو معرضًا فلم يقف، فقال رسول الله -ﷺ-: «لقـد أصبح ابـنِ مسـعـود وأمسى كـريمًا» ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿ وإذا مرُّوا باللّغْو مرُّوا كراما ﴾.

وقوله تـعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ وهذه أيضًا من صـفات المؤمنين ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر، فـإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيـه ولا يتغيـر عما كان عليـه، بل يبقى مستـمرًا علي كفره وطغيـانه وجهله وضلاله، كمـا قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٥]، فقوله: ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أى بخلاف الكافر الذى إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيـه فيستمر علي حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى. قال مجاهد: قوله ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ قال: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئًا. وقال الحسن البصرى: كم من رجل يقرؤها ويخر عليـها أصم أعْمى، وقال قتـادة: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه.

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعني الذين يسـألون الله أن يخرج من أصلابهم ومن ذرياتهـم من يطيعه ويعـبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون من يعـمل بطاعة الله فتقرُّ بهم أعينهم في الدنيـا والآخرة. قال عكرمـة: لم يريدوا بذلك صبـاحة ولا جـمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعـين. وسُئل الحسن البصرى عن هذه الآية فـقال: أن يرى العبد المسلم من زوجته ومن أخيـه ومن حميمه طـاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدًا، أو لد ولد، أو أخا أوحميـما مطيعًا لله عز وجل. وقال ابن أسلم: يعنى يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قال ابن عباس والحسن والسدى:

أئمة يُقتدى بنا فى الخير. وقال غيـرهم: هداة مهتدين دعاة إلى الخير. ولهذا ثبت فى صحيح مسلم عـن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعـو له، أو علم يُنتفع به من بعده، أو صدقة جارية**».

﴿**أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا** (٧٥) **خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** (٧٦) **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٧].

لما ذكـر تعالى من أوصـاف عبـاده المؤمنين ما ذكـر من الصفـات الجمـيلة والأقوال والأفعـال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ أى: المتصفـون بهذه ﴿**يُجْزَوْنَ**﴾ يوم القيامة ﴿**الْغُرْفَةَ**﴾ وهى الجنة سُمِّيت بذلك لارتفـاعها ﴿**بِمَا صَبَرُوا**﴾ أى على القيام بذلك ﴿**وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا**﴾ أى فى الجنة ﴿**تَحِيَّةً وَسَلامًا**﴾ أى يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ أى مقيـمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبـغون عنها حولاً، كمـا قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [هود: ١٠٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿**حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**﴾ أى حسنت منظرًا وطابت مـقيلاً ومنزلاً. ثم قال تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي**﴾ أى لا يبالى ولايكترث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعـبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيـلاً. قال ابن عباس: ﴿**لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**﴾ أى لولا إيمانكم.

وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجـة لحبب إليهم الإيمـان كما حـببه إلى المؤمنين، وقـوله تعالى: ﴿**فَقَدْ كَذَّبْتُمْ**﴾ أيها الكافرون ﴿**فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾ أى فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، يعنى مقتضيًا لعذابكم وهلاككم ودماركم فى الدنيا والآخرة.

٣٥ـ القلب السليم فى جنات النعيم:

قال الله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء:٨٣ـ٩٠].

وهذا سوال من إبراهيم عليـه السلام أن يؤتيه ربه حكمًا، قـال ابن عباس: وهو العلم. وقال عكرمـة: هو اللب. وقال مجاهد: هو القـرآن. وقال السدى: هو النبوة، وقوله: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أى اجعلنى مع الصـالحين فى الدنيا والآخرة، كما قال النبى -ﷺ- عند الاحتضار: «**اللهم فى الرفيق الأعلي، قالها ثلاثًا**»، وفى الحديث: «**اللهم أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غيـر خزايا ولا مـبدلين**». وقوله: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ أى واجعل لِي ذكـراً جميلاً بعـدى أُذكرُ به ويُقتدى بى فى الخـير، كما قـال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:١٠٨ـ١١٠]. قال مـجاهد وقتادة: يعنى الثناء الحـسن. وقال ليث بن أبى سليم: كل ملة تحبه وتتـولاه، وقوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى: أنعم على فى الدنيـا ببقاء الذكـر الجميل بعـدى، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم. وقوله: ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي ﴾ الآية وكقوله: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [إبراهيم:٤١]، وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليـه السـلام، كمـا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ـ إلى قوله ـ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤]. وقوله: ﴿ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى أجرنى من الخزى يوم القيامـة ويوم يُبعث الخلائق أولهم وآخرهم، عن أبى هريرة -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- قال: «**يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليـه الغبرة والقترة**»، وفى رواية أخرى: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لـك لا تعصني، فـيقـول أبوه: فاليوم لا أعـصيك، فـيقـول إبراهيم: يا رب إنك وعدتـنى أن لا تخزنى يوم يبعـثون فأى خـزى أخزى من أبى**

الأبعد؟ فيقول الله تعالي: إنني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقول: يا إبراهيم انظر تحت رجليك فينظر فإذا هو بذبخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيُلقى فى النار»[1].

وقوله: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ**﴾ أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا ﴿**ولا بنون**﴾ أى ولو افتدى بمن على الأرض جميعًا ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له، ولهذا قال: ﴿**إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ أى: سالم من الدنس والشرك. قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور، وقال ابن عباس: القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد والحسن: ﴿**بقلبٍ سليم**﴾ يعنى من الشرك، وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿**فى قلوبهم مرض**﴾ قال أبو عثمان النيسابورى، هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة ﴿**وأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ**﴾ أى قربت وأُدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها وهم المتقون الذين رغبوا فيها وعملوا لها فى الدنيا.

٣٦- أهل الجنة أخفوا أعمالهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر:

قال الله تعالى: ﴿**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ أى فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم واللذات التى لن يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم، كذلك أخفى الله لهم الثواب جزاء وفاقًا، فإن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصرى: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر. قال البخارى: قوله تعالى: ﴿**فلا تعلم نفس مَّا أُخفي لهم مِّن قرَّة أعين**﴾ الآية، عن أبى هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن**

---

(١) أخرجه البخارى. قال ابن كثير: والذيخ هو الذكر من الضباع.

سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿ فلا تعلم نفس مَّا أُخْفِي لهم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾»(١). وفي الحديث: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(٢). وروى مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي -ﷺ- قال: «سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أُدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول:رضيت ربي، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامس: رضيت ربي، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله معه ولك ما اشتهت نفسك ولذَّت عينك، فيقول:رضيت ربي، قال: رب فأعلاهم منزلة، قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر. قال: ومصداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية»(٣).

٣٧ـ أقسام أمة النبي -ﷺ-:

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر:٣٢].

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدِّق لما بين يديه من الكتب ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات، ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهوالمؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم.

بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو الفاعل للـواجبات والمستحبـات التارك للمحـرمات والمكروهات وبعض المبـاحـات. قال ابن عبـاس فى قوله تعـالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾** قال: هم أمـة محـمد -ﷺ- ورثهم الله تعالى كل كـتاب أنزله، فظالمهم يُغفـر له، ومقتصـدهم يُحاسب حسابًا يسـيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وروى الطبرانى عن ابن عباس عن رسول الله -ﷺ- أنه قال ذات يوم: «**شفـاعتى لأهل الكبـائر من أمتي**»، قال ابن عـباس: السابق بالخـيرات يدخل الجنة بغيـرحساب، والمقـتصد يدخل الجنة برحـمة الله، والظالم لنفسه وأصـحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعـة محمد -ﷺ-. وكذا روى عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصيـر. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفـين الوارثين للكتـاب. وروى ابن أبـى حـاتم عن ابن عـبـاس -رضي الله عنهما- ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾** قال: هوالكافـر، وقال مجاهد فى قـوله تعالى ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾** قال: هم أصحـاب المشأمة، وقال الحسن وقـتادة، هو المنافق. ثم قال ابن عبـاس والحسن وقتادة: وهذه الأقـسام الثلاثة كالأقـسام المذكورة فى أول سورة الواقعة وآخـرها. والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمـة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله -ﷺ- من طرق يشد بعضها بعضًا، ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- أنه قال: **فى هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** قال: «**هؤلاء بمنزلة واحدة كلهم فى الجنة**»[1]. ومعنى قوله «**بمنزلة واحدة**» أى فى أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة.

---

(١) الحـديث غريب من هذا الوجـه وفى إسناده من لم يُسـمَّ، ورواه ابن أبى حاتم وابن جـرير من طريق أخرى يتقوى بها هذا الحديث.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذى يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابًا يسيرًا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذى يُحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلقاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾» [فاطر: ٣٤،٣٥].

الحديث الثالث: قال الحافظ الطبراني عن أسامة بن زيد -رضي الله عنه-: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «كلهم من هذه الأمة».

أثر ابن مسعود -رضي الله عنه-

قال ابن جرير عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يُحاسَبون حسابًا يسيرًا، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عز وجل: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئًا، فيقول الرب عز وجل: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتى، وتلا عبد الله -رضي الله عنه- هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية.

أثر آخر: قال أبو داود الطيالسى عن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة -رضي الله عنها- عن قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ الآية: فقالت لى: يا بنى هؤلاء فى الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، شهد له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالحياة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم، قال: فجعلت نفسها -رضي الله عنها- معنا، وهذا منها -رضي الله عنها- من

باب الهضم والتـواضع، وإلا فهى من أكبر السـابقين بالخيرات لأن فـضلها على النساء كفضل الـثريد على سائر الطعام. وقال عوف الأعـرابى عن كعب الأحبار رحمه الله قال: إن الظـالم لنفسه من هذه الأمـة والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا - إلى قوله عز وجل - وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر:٣٢-٣٦]، قال: فهؤلاء أهل النار[١]. وعن محمد بن الحنفية -رضي الله عنه- قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفـور له، والمقتصد فى الجنان عند الله، والسابق بالخيرات فى الدرجات عند الله فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام، وإذا تقرر هذا فإن الآية عـامة فى جميع الأقسام الثـلاثة فى هذه الأمة، والعلماء أغبط الناس بهـذه النعمة، وأولـى الناس بهذه الرحمـة، فإنهم كمـا روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبى الدرداء -رضي الله عنه- وهو بدمشق فقال: ما أقدمك أى أخى؟ قال: حديث بلغنى أنك تحدث به رسول الله -ﷺ-، قال: أما قـدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: أما قـدمت لحاجة؟ قال: لا. قـال: أما قـدمت إلا فى طلب هذا الحديث؟ قـال: نعم، قال -رضي الله عنه- فإنى سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: **«من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله تعالـى به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتـضع أجنحتـها رضًـا لطالب العلم، وإنه ليستـغفر للعالم من فى السـماوات والأرض حتى الحيتـان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفـضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلمـاء هم ورثةالأنبياء وإن الأنبيـاء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًـا وإنما ورثوا العلم، فـمن أخـذ به أخـذ بحظ وافر»**[٢].

وقد تقـدم فى أول (سورة طه) حـديث ثعلبة بن الحكـم عن رسول الله -ﷺ- قال: **«يقول الله تـعالى يوم القـيامة لـلعلماء إنى لم أضع علمى وحكمـتى**

(١) رواه ابن جرير من طرق عن عوف عن كعب الأحبار.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، ورواه الترمذى وأبو داود وابن ماجه.

فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي» رواه الحافظ الطبراني وقال ابن كثير: إسناده جيد.

٣٨ـ الجنة ليس فيها تكليف:

قال الله تعالى: ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** ﴾ [فاطر: ٣٣ـ٣٥].

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، مأواهم جنات عدن، أى: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل، ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا** ﴾ كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**» ﴿ **وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا فأباحه الله تعالى لهم فى الآخرة. وثبت فى الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة**»[(١)]، وقال: «**هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة**»، وقال ابن أبى حاتم عن أبى أمامة ـ رضي الله عنه ـ حدث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر حلى أهل الجنة فقال: «**مسورون بالذهب والفضة مكللة بالدر، وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة، وعليه تاج كتاج الملوك، شباب جرد مرد مكحولون**»، ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ليس على أهل لا إلا الله وحشة فى قبورهم ولا نشورهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن**[(٢)]».

---

(١) ذكر ابن كثير أيضاً رحمه الله تعالى فى تفسير الآية ٢٣ من سورة الحج، وقال عبد الله الزبير: «من لم يلبس الحرير فى الآخرة لم يدخل الجنة».

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عمر مرفوعاً.

وروى الطبرانى عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى الموت ولا فى القبور ولا فى النشور وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور**». قال ابن عباس: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿**الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ**﴾ يقولون: الذى أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك. كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله -ﷺ- قال: «**لن يُدخل أحداً منكم عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله تعالى برحمة منه وفضل**» ﴿**لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**﴾ أى لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنصب واللغوب كل منهما يستعمل فى التعب، وكأن المراد بنفى هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة: ٢٤].

٣٩- أهل الجنة لا يشغلهم عذاب أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ [يس: ٥٥-٥٨].

يخبر تعالى عن أهل الجنة: أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا فى روضات الجنات، أنهم فى شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم. قال الحسن البصرى فى شغل عما فيه أهل النار من العذاب. وقال مجاهد: ﴿**فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**﴾ أى: فى نعيم معجبون به. وقال ابن عباس: ﴿**فَاكِهُونَ**﴾ أى فرحون، قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة فى قوله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**﴾ قالوا: شغلهم افتضاض الأبكار. وقال ابن عباس فى رواية عنه ﴿**فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**﴾ أى بسماع الأوتار(١).

---

(١) قال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع، وإنما هو افتضاض الأبكار.

وقوله عز وجل: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: الارائك هي السرر تحت الحجال. وقوله عز وجل: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي من جميع أنواعها ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ، عن أسامة بن زيد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**ألا هل مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور كلها يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سلامة، وفاكهة خضرة وخير ونعمة في محلة عالية بهية. قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال -ﷺ-: قولوا إن شاء الله، فقال القوم: إن شاء الله**»(١). قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قال ابن عباس: فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

٤٠ـ أهل الجنة لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٣٨-٤٩].

يقول تعالى مخاطبًا للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]، ولهذا قال جل وعلا ههنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد من سننه.

يتجـاوز عن سيئـاتهم إن كان لهم سـيئات، ويجـزون الحسنة بعـشر أمثـالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وقوله جلا وعلا: ﴿ **أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ** ﴾ قال السدى: يعنى الجنة، ثم فـسره بقوله تعالى: ﴿ **فَوَاكِهُ** ﴾ أى متنوعة ﴿ **وَهُم مُّكْرَمُونَ** ﴾ أى يُخدَمـون ويرفَّهون وينُعَّـمون ﴿ **فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

وقوله تعالى: ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ** ﴾ ، كما قـال تعالى: ﴿ **لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ** ﴾ نزَّه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن وهو ـ الـغول ـ وذهابها بالعـقل جملة فقـال تعالى: ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ** ﴾ أى بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها، قال زيد بن أسلم: خمر جـارية بيضاء، أى لونها مشرق حسن بهى، لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء مـن حمرة أو سواد أو اصفرار أوكدورة إلى غـير ذلك مما ينـفر الطبع السلـيم. وقوله عـز وجل: ﴿ **لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ** ﴾ أى طعمها طيب كلونها وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك. وقوله تعالى: ﴿ **لا فِيهَا غَوْلٌ** ﴾ يعنى وجع البطن[١] كما تفعله خمر الدنيـا. وقيل: المراد بالغـول ههنا صداع الرأس. وروى عن ابـن عبـاس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن، وقال السدى: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زالت الكأسُ تَغتالنا   وتذهـب بالأول الأول

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى، والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن، قـوله تعالى: ﴿ **وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ** ﴾ قـال مجـاهد: لا تذهب عقـولهم[٢]، وقال ابـن عباس: فى الخـمر أربع خـصال: (السكر، والـصداع، والقىء، والبول)، فـذكر الله تعالى خمـر الجنة فنزهها عن هذه الخصـال. وقوله

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد.
(٢) وكذا قال ابن عباس والحسن وعطاء والسدى.

تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ أى عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، كذا قال ابن عباس ومجاهد. وقوله تبارك وتعالى ﴿عِينٌ﴾ أى حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين، وهى النجلاء العيناء فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا فى يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢]، أى هو مع هذا الجمال عفيف تقى نقى، وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ وقوله جل جلاله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان، قال ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون، وأنشد قول الشاعر:

وهى زهراءُ مثل لـولؤة الغَوْ صِ سيزتْ من جوهرٍ مكنونٍ

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعنى مصون لم تمسه الأيدى. وقال سعيد بن جبير: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعنى بطن البيض، وقال السدى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول بياض البيض حين ينزع قشره، واختاره ابن جرير لقوله ﴿مَّكْنُونٌ﴾ قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتنالها الأيدى بخلاف داخلها، وفى الحديث عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **«أنا أول الناس خروجًا إذا بُعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشِّرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حُبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهن البيض المكنون أو اللؤلؤ المكنون»**(1).

٤١- مؤمن فى الجنة يحكى عن قرين له فى الدنيا دخل النار:

قال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ

---
(1) أخرجه ابن أبى حاتم، وروى بعضه الترمذى.

بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠-٦١].

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي عن أحوالهم وكيف كانوا فى الدنيا، وماذا كانوا فيها، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم فى تنادمهم ومعاشرتهم فى مجالسهم وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خيرعظيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعنى شيطانًا، وقال ابن عباس: هوالرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا، ولا تنافى بين كلام مجاهد وابن عباس -رضي الله عنهم- فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلامًا تسمعه الأذنان، وكلاهما يتعاونان، قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، وكل منهما يوسوس، كما قال الله عز وجل: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦]، ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟ يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ قال مجاهد والسدي: لمحاسبون، وقال ابن عباس: لمجزيون بأعمالنا. قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي مشرفون، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس والسدى: يعنى فى وسط الجحيم، وقال الحسن البصرى: فى وسط الجحيم: كأنه شهاب يتقدم، وقال قتادة: ذكر أنه اطّلع فرأى جماجم القوم تغلى، وقال كعب الأحبار: فى الجنة كُوى، إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه فى النار اطلع فيها فازداد شكرًا لله، ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ يقول المؤمن مخاطبًا الكافر: والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي ولولا فضل الله عليَّ لكنت مثلك فى سواء

الجحيم، محـضر معك في العذاب ولكنه رحمني فهـداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ [الأعراف:٤٣].

وقـوله تعـالى: ﴿ أفمـا نحن بميـتين (٥٨) إلا مـوتتنا الأولى وما نـحن بمعذبين ﴾؟ هذا من كلام المؤمن، مغتـبطًا نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد فى الجنة والإقامة في دار الكرامـة، بلا موت فيها ولا عذاب، ولهـذا قال عز وجل: ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾، قال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فـقالوا: ﴿ أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾؟ قيل: لا. قالوا: ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾.

وقوله جل جلاله: ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة، وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليـعمل العـاملون فى الدنيا ليصـيروا إليـه فى الآخرة. قال السـدى: كان شريكان فى بنى إسرائيل، أحدهـما مؤمن والآخر كافر، فافتـرقا على ستة آلاف دينار، لكل واحد منهـما ثلاثة آلاف دينار ثم افترقـا فمكثا ما شـاء الله تعالى أن يمكثا ثم التقيـا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالكك؟ أضـربت به شيئًا، أتجرت به فـى شيء؟ قال له المؤمن: لا، فـما صنعت أنت؟ فـقال: اشتـريت به أرضًا ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار، قال: فقال له المؤمن أوفعلت ذلك؟ قال: نعم، قال: فـرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلَّى ما شـاء الله تعالى أن يصلى، فلما انصـرف أخذ ألف دينار فوضـعها بين يديه ثم قـال: اللهم إن فلانًا - يعنى شريكه الكافـر - اشتـرى أرضًا ونخلاً وثمـارًا وأنهاراً بألف دينار ثم يمـوت غدًا ويتركهـا، اللهم إنى اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضًا ونخـلاً وثماراً وأنهاراً فى الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها فى المـساكين، قال: ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا ثم التقـيا، فقال الكافر للمؤمن: مـا صنعت فى مالك، أضربت به فى شيء؟ أتجرت به فى شيء؟ قال: لا، قال: فما صنعت أنت؟ قال: كانت ضيعتى قد اشتـدَّ عليَّ مؤنتها فـاشتريت رقيقًـا بألف دينار يقومون لى فيـها ويعملون لى فيهـا، فقال له المؤمن، أو فـعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حـتى إذا كان

الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال: اللهم إن فلانًا ـ يعنى شريكه الكافر ـ اشترى رقيقًا من رقيق الدنيا بألف دينار يموت غدًا فيتركهم أو يموتون فيتركونه، اللهم إنى اشتريت منك بهذه الألف دينار رقيقًا فى الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به فى شىء؟ أتجرت به فى شىء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: كان أمرى كله قد تمَّ إلا شيئًا واحدًا، فلانة قد مات عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار فجاءتنى بها ومثلها معها، فقال له المؤمن: أوفعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلى، فلما انصرف أخذ الألف دينار الباقية فوضعها بين يديه وقال: اللهم إن فلانًا ـ يعنى شريكه الكافر ـ تزوج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار، فيموت غدًا فيتركها أو تموت غدًا فتتركه، اللهم وإنى أخطب إليك بهذه الألف دينار حوراء عيناء فى الجنة، قال: ثم أصبح فقسمها بين المساكين، قال: فبقى المؤمن ليس عنده شىء، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى، قال: وهذه حالى وهذه حالك؟ قال: أخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: أقرضته؟ قال: من؟ قال: الملىء الوفىّ، قال: من؟ قال: الله ربى، قال: فانتزع يده من يده ثم قال: ﴿ **أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ** ﴾؟ قال السدى: محاسبون، قال: فانطلق الكافر وتركه، فلما رآه المؤمن وليس يلوى عليه رجع وتركه وجعل يعيش المؤمن فى شدة من الزمان، ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان، قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله تعالى المؤمن الجنة يمرُّ فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هذا لك، فيقول: يا سبحان الله، أو بلغ من فضل عملى أن أُثاب بمثل هذا؟ قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تُحصى عدتهم فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك، فيقول: يا سبحان الله، أو بلغ من فضل عملى أنا أُثاب بمثل هذا؟ قال: ثم يمرُّ فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة فيها حوراء عيناء فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك،

فيقول: يا سبحان الله، أو بلغ من فضل عملي أن أُثاب بمثل هذا؟ قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿**إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ**﴾ قال: فالجنة عـالية والنار هاوية، قال: فيريه الله تعالى شـريكه في وسط الجحيم من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: ﴿**تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون**﴾ بمثل ما قد مُنَّ عليه، قال: فيتذكر المؤمن ما مرَّ عليه في الدنيا من شدة فلا يذكر مما مرَّ عليه في الدنيا أشد عليه من الموت. أخرجه ابن أبي حاتم.

٤٢- أهل الجنة يساقون إليها كل جماعة تناسب بعضها بعضاً:

قال الله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين، حين يُساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة ﴿**زمرا**﴾ أي جماعة بعد جـماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والعـلمـاء مع أقـرانهم، وكل صنف مع صنـف، وكل زمـرة تناسب بعضـها بعـضًا ﴿**حتى إذا جاءوها**﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعـد مجـاوزة الصراط، حُبسوا على قنطرة بيـن الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيـا، حتى إذا هُذِّبوا ونقُّـوا أُذن لهم في دخول الجنة. وقـد ثبت في صحـيح مسلـم عن أنس -رضي الله عنه- قال: قـال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «**أنا أول شفـيع في الجنة**» وفي لفظ: «**وأنا أول من يقـرع باب الجنة**»[1]. وروى الإمـام أحمـد عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقـول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمـد. قال: فيقول: بك أمـرت ألاَّ أفتح لأحد**

---

(١) أخرجه مسلم.

قبلك»[١] وقال رسـول الله -ﷺ-: «أول زمـرة تلج الجنةصـورهم على صـورة القمـر ليلة البدر لا يبـصقون فـيهـا ولا يتمخطون فـيهـا ولايتفلون فيـها، آنيـتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجـامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجـتـان يرى مخ سـاقهـمـا من وراء اللحم من الحـسن، لا اخـتـلاف بينهم ولا تباغض، قلـوبهم على قلب واحد، يسـبحون الله تعـالى بكرة وعشـيًا»[٢]. وروى الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى في السـمـاء إضـاءة، لايبولون ولا يـتغـوطون ولا يتـفلون ولا يتـمـخطون، أمشـاطهم الذهب، ورشحهم المسك ومـجامرهـم الأُلوَّة، وأزواجـهـم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا فى السماء».

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ لم يذكر الجواب ههنـا، وتقديره: إذا كان هذا سعـدوا وطابوا وسُـرُّوا وفرحـوا بقدر كل مـا يكون لهم فيـه نعيم، وإذا حـذف الجواب هـهـنا ذهب الذهن كل مذهب فى الرجـاء والأمل، عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دُعى من أبواب الجنة وللجنة أبواب، فـمن كان من أهل الصـلاة دُعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصـدقة دُعى من باب الصدقة، ومن كان مـن أهل الجهاد دُعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعى من باب الريـان. فقـال أبـو بكـر - رضى الله تعالى عنه - يا رسـول الله؟ ما عـلى أحد من ضـرورة دُعى من أيهـا دُعي، فهل يُدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال -ﷺ-: نعم وأرجو أن تكون منهم»[٣]. وفى صحيح مسلم عن عـمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «ما منكم من أحـد يتوضأ فـيبلغ أو فيسـبغ الوضوء ثم يقول: أشـهد أن لاإله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من

(١) أخرجه أحمد ومسلم بنحوه.
(٢) أخرجه مسلم والإمام أحمد.
(٣) أخرجه أحمد ورواه البخارى ومسلم من حديث الزهرى بنحوه.

أيها شاء». وعن معاذ -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «مفتاح الجنة لا إله إلا الله» اخرجه مسلم فى صحيحه. وفى الصحيحين عن أبى هريرة -رضي الله عنه- فى حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله تعالي: يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر، والذى نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ما بين عضادتى الباب لكما بين مكة أو هجر، وهجر مكة»، وفى رواية: «بين مكة وبُصري»[1]. وفى صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: ولقد ذُكِرَ لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، ولَيأتين عليه يوم وهوكظيظ من الزحام[2].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وجزاؤكم. وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أى ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولاً، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى الذى كان وعدنا علي ألسنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية وقتادة والسدى: أى أرض الجنة، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفى الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه- فى قصة المعراج قال النبى -صلى الله عليه وسلم-: «أُدخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذ[3] اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». وعن أبى سعيد

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة مرفوعًا.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) الجنابذ: ما ارتفع من الأرض وغيرها، والمراد عقود اللؤلؤ.

-رضي الله عنه- قال: «إن ابن صائد سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن تربة الجنةفقال: «**درمكة بيضاء مسك خالص**»(١).

وروى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب -رضي الله عنه- فى قوله تعالى: ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً**﴾ قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليها نضرة النعيم، فلم تغير أبشارهم بعدها أبدًا، ولم تشعث أشعارهم بعدها أبدًا، فإنما دهنوا بالدهان ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهب ما كان فى بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِين**﴾، وتلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة، أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقول: هذا فلان باسمه فى الدنيا، فيقلن: أنت رأيته؟ فيقول: نعم، فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب، قال: فيجئ فإذا هو بنمارق مصفوفة وأكواب موضوعة وزرابى مبثوثة، قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه فإذا هو قد أُسس على جندل اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، ومن كل لون، ثم يرفع طرفه إلى سقفه فلولا أن الله تعالى قدره له لألمَّ أن يذهب ببصره إنه لمثل البرق، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكىء إلى أريكة من أرائكه ثم يقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّه**﴾ [الأعراف:٤٣].

﴿**وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِين**﴾ [الزمر:٧٥].

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار، وأنه نزَّل كلاً فى المحل الذى يليق به ويصلح له، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه

(١) أخرجه مسلم وعبد بن حميد. والدرمك: التراب الناعم.

ويعظموته، ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية وقضى الأمر وحكم بالعدل، ولهذا قال عز وجل: ﴿وقُضي بينهم﴾ أي بين الخلائق، ثم قال: ﴿وقيل الْحمد لله رب الْعالمين﴾ أي نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدلّ على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحمد لله الَّذي خلق السَّموات والأَرْض﴾[الأنعام:١]، واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وقُضي بينهم بالْحق وقيل الْحمد لله رب الْعالمين﴾

٢٣ـ المؤمن يدخل الجنة برحمة الله ويصعد في درجاتها بحسب عمله الصالح:

قال الله تعالى: ﴿يا عباد لا خوْفٌ عليْكم الْيوْم ولا أنتمْ تحْزنون (٦٨) الَّذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسْلمين (٦٩) ادْخلوا الْجنَّة أنتمْ وأزْواجكمْ تحْبرون (٧٠) يطاف عليْهم بصحاف مّن ذهب وأكْواب وفيها ما تشْتهيه الأنفس وتلذُّ الأعْين وأنتمْ فيها خالدون (٧١) وتلْك الْجنَّة الَّتي أورثْتموها بما كنتمْ تعْملون (٧٢) لكمْ فيها فاكهةٌ كثيرةٌ مّنْها تأْكلون﴾[الزخرف:٦٨-٧٣].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا عباد لا خوْفٌ عليْكم الْيوْم ولا أنتمْ تحْزنون﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسْلمين﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد: ﴿يا عباد لا خوْفٌ عليْكم الْيوْم ولا أنتمْ تحْزنون﴾ فيرجوها الناس كلهم، فيتبعها: ﴿الَّذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسْلمين﴾ قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين ﴿ادْخلوا الْجنَّة﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿أنتمْ وأزْواجكمْ﴾ أي: نظراؤكم ﴿تحْبرون﴾ أي تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم، ﴿يطاف عليْهم بصحاف مّن ذهب﴾ أي زبادي آنية الطعام ﴿وأكْواب﴾ وهي آنية الشراب من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿وفيها ما تشْتهيه

الأَنفُس﴾، وقرأ بعضهم: تشتهى الأنفس، ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُن﴾ أى طيب الطعم والريح وحسن المنظر، روى عبد الرزاق عن ابن عباس أن رسول الله -ﷺ- قال: **«إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لَرجل لا يدخل الجنة بعده أحد يُفسح له فى بصره مسيرة مائة عام، فى قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور، يُغدى عليه ويُراح بسبعين ألف صحفة من ذهب ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس فى الأخرى مثله، شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها، لو أنزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك مما أُوتى شيئًا»**[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أى فى الجنة ﴿خَالِدُون﴾ أى لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولاً، ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾ أى أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحدًا عمله الجنة ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات. وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: **«كل أهل النار يرى منزله من الجنة فيكون له حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِين﴾** [الزمر:٥٧]، **وكل أهل الجنة يرى منزله فى النار فيقول: ﴿وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾ فيكون له شكرًا. قال: ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار، الكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله فى الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾»**[2].

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أى من جميع الأنواع ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُون﴾ أى مهما اخترتم وأردتم، ولما ذكر الطعام الشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة، والله تعالى أعلم.

٤٤ـ أنهار الجنة:

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مرفوعًا.

وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمه وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسلٍ مصفًّى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرةٌ من ربهم كمن هو خالدٌ في النار وسقوا ماءً حميمًا فقطع أمعاءهم﴾ [محمد:١٥].

﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ قال عكرمة: ﴿مثل الجنة﴾ أي نعتها، ﴿فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسن﴾ يعنى غير متغير، والعرب تقول: أسن الماء إذا تغير ريحه. وفى حديث مرفوع: ﴿غير آسن﴾ يعنى **«الصافى الذى لا كدر فيه»**. وقال عبد الله -رضي الله عنه- أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك، ﴿وأنهارٌ من لبن لم يتغير طعمه﴾ بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة، وفى حديث مرفوع: **«لم يخرج من ضروع الماشية»**، ﴿وأنهارٌ من خمر لذة للشاربين﴾ أى ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة، ﴿لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون﴾ [الصافات:٤٧]، ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾ [الواقعة:١٩]، وفى حديث مرفوع: **«لم يعصرها الرجال بأقدامهم»**، ﴿وأنهارٌ من عسلٍ مصفي﴾ أى وهو فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح، وفى حديث مرفوع: **«لم يخرج من بطون النحل»**.

روى الإمام أحمد من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: **«فى الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعدُ»**(١).

وفى الصحيح: **«إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»**.

وقال الحافظ الطبرانى عن عاصم بن لقيط أن لقيط بن عامر خرج وافدًا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، قلت: يا رسول الله، فعلى ما نطلع من الجنة؟ قال -صلى الله عليه وسلم- : **«على أنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون، وخير من مثله، وأزواج مطهرة، قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال**

(١) أخرجه أحمد، ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح.

الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم فى الدنيا ويلذونكم غير أن لا توالد».

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخدود فى الأرض، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر(١).

وقوله تعالى: ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ كقوله عز وجل: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾[الدخان: ٥٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ومغفرة من ربهم﴾ أي: مع ذلك كله، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كمن هو خالد في النار﴾ أى هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو فى الدرجات كمن هو فى الدركات، ﴿وسقوا ماء حميما﴾ أى حاراً شديد الحر لا يُستطاع، ﴿فقطع أمعاءهم﴾ أى قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء عياذاً بالله تعالى من ذلك.

٤٥- من خاف الله فى سره دخل الجنة:

قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣١-٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ قال قتادة والسدى: ﴿وأزلفت﴾ أدنيت وقُربت من المتقين ﴿غير بعيد﴾ وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه واقع لامحالة وكل ما هو آت قريب ﴿هذا ما توعدون لكل أواب﴾ أى رجَّاع تائب فيقوم حتى يستغفر الله عز وجل، ﴿من خشى الرحمن بالغيب﴾ أى من خاف فى سره حيث لايراه أحد إلا الله عز وجل، كقوله -صلى الله عليه وسلم-: «ورجل ذكر الله تعالى خاليًا ففاضت عيناه»(٢)، ﴿وجاء بقلب منيب﴾ أى ولقى الله عز وجل يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه، ﴿ادخلوها﴾ أى الجنة ﴿بسلام﴾ قال قتادة، سلموا من عذاب الله عز وجل، وسلم عليهم

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا موقوفًا، ورواه ابن مردويه مرفوعًا.
(٢) هو صنف من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة، والحديث أخرجه الشيخان.

ملائكة الله، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أى يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبدًا ولا يظعنون عنها حولاً. وقوله جلت عظمته: ﴿لهم ما يشاءون فيها﴾ أى مهما اختاروا وجدوا، من أى أصناف الملاذ طلبوا أُحضر لهم، عن كثير بن مرة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشىء إلا أمطرتهم. وفى الحديث عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: إن رسول الله -ﷺ- قال له: «**إنك لتشتهى الطير فى الجنة فيخر بين يديك مشويًا**»[(١)]، وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- قال: إن رسول الله -ﷺ- قال: «**إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة كان حمله ووضعه وسنه فى ساعة واحدة**»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ كقوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومى أنها النظر إلى وجه الله الكريم، وقد روى البزار عن أنس بن مالك فى قوله عز وجل ﴿ولدينا مزيد﴾ قال: يظهر لهم الرب عز وجل فى كل جمعة»[(٣)]. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد -رضي الله عنه- عن رسول الله -ﷺ- قال: «**إن الرجل فى الجنة لَيتكيء فى الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول، ثم تأتيه امرأة تضرب على منكبيه فينظر وجهه فى خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلوة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب، فتسلم عليه فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد، وإنها ليكون عليها سبعون حلة أدناها مثل النعمان من طوبي، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقيها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب**»[(٤)].

٤٦ـ من صلى بالليل والناس نيام دخل الجنة بسلام:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود مرفوعًا.
(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى، وزاد الترمذى: «كما اشتهى».
(٣) أخرجه البزار وابن أبى حاتم موقوفًا، ورواه الشافعى مرفوعًا فى مسنده.
(٤) أخرجه الإمام أحمد.

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ـ١٩].

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عز وجل أنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال وقوله تعالى: ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ قال ابن جرير: أى عاملين بما آتاهم الله من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ فى الأعمال أيضًا، والذى فسر ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى ﴿آخذين﴾ حال من قوله ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فالمتقون فى حال كونهم فى الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أى من النعيم والسرور والغبطة. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى فى دار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ثم إنه تعالى بين إحسانهم فى العمل فقال جل وعلا: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ اختلف المفسرون فى ذلك على قولين: **أحدهما**: أن (ما) نافية تقديره: كانوا قليلاً من الليل ما يهجعونه، قال ابن عباس: لم تكن تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئًا. وقال قتادة: قلَّ ليلة تأتى عليهم إلا يصلون فيها لله عز وجل، إما من أولها أو من وسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. **والقول الثاني**: أن (ما) مصدرية تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصرى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر، وقال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبى: يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا، ذكر الله تعالى قومًا فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم، فقال له أبى: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ. وقال عبد الله ابن سلام: لما قدم رسول الله -ﷺ- المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه -ﷺ- عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما

سمعته -ﷺ- يقول: **«يا أيها الناس، أطعموا الطعـام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»**. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: إن رسول الله -ﷺ- قال: **«إن فى الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها وباطنهـا من ظاهرها. فقال أبو موسى الأشعرى-رضي الله عنه-لمن هى يا رسول الله؟ قال: -ﷺ- لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قـائمًا والناس نيام»** أخرجه الإمام أحمد. وقوله عز وجل: ﴿**وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ قال مجاهد: يصلُّون. وقال آخرون: قاموا الليل وأخروا الاسـتغفار إلى السحر، كما قال تبـارك وتعالى: ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾ [آل عمران:١٧]، وقد ثبت فى الصحـاح عن رسول الله-ﷺ- أنه قال: **«إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سـماء الدنيـا حين يبقى ثلث الـليل الأخيـر فيـقول:هل مـن تائب فأتوب عليـه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيُعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر»**.

وقوله تعالى: ﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ لما وصفهم بالصلاة ثنَّى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال:﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ**﴾ أى جزء مقسوم قد أفرزوه للسـائل والمحروم، أما السـائل فمعـروف وهو الذى يبتـدىء بالسؤال وله حق، كمـا قال رسول الله -ﷺ- : **«للسائل حق وإن جـاء على فرس»**(١)، وأما المحروم فقال ابن عباس ومـجاهد: هو المحارب الذى ليس له فى الإسلام سهم، يعنى لاسـهم له فى بيت المال ولا كسب له ولا حـرفة يتـقوت منهـا. وقالت أم المؤمنين عـائشـة -رضي الله عنها- هو المحـارب الذى لا يكاد يتـيـسر لـه مكسبـه. وقـال الضحاك:هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله تعالى له ذلك. وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء: المحروم المحارب. وقال قتادة والزهرى: المحروم الذى لا يسأل الناس شيئًـا. وقد قال رسول الله-ﷺ- : **«ليس المسكين بالطوَّاف الذى ترده اللقمـة واللقمتان والتـمرة والتمرتـان، لكن المسكين الذى لا يجد غنيً يغنيه، ولا يُفْطَن له فيُتصدَّق عليه»**(٢). وقال سعيد بن جبير: هو الذى يجىء وقد قسم المغنم فـيرضخ له. وقال الشعـبى: أعيانى أن أعلم ما المحـروم، واختار ابن

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.
(٢) هذا الحديث أسنده الشيخان من وجه آخر.

جرير أن المحروم الذى لا مال له بأى سبب كان وقد ذهب ماله، سواء أكان يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله بآفة ونحوها.

٤٧- إن المتقين فى جنات النعيم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور:١٧-٢٠].

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ ذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها، مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التى فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقوله تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أسلفتم في الأيام الخالية﴾ أى هذا بذاك تفضلاً منه وإحسانًا، وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن عباس: السرر فى الحجال، وفى الحديث: **«إن الرجل ليتكيء المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذّت عينه»**[1].

وعن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكيء فى الجنة سبعين سنة عنده من أزواجه وخدمه، وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيبًا[2].

ومعنى ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أى وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿على سرر متقابلين﴾ ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حسانًا من الحور العين، وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ أنكحناهم بحور عين، وقدتقدم وصفهم فى غير موضع بما أغنى عن إعادته ههنا.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن هيثم بن مالك الطائى مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم أيضًا عن ثابت البنانى موقوفًا.

٤٨ـ أهل المؤمن في الجنة يرفعونه إلى درجة أعلى من درجته إذا كانوا أعلى منه:

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢١ـ٢٨].

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم لتقرَّ أعين الآباء بالأبناء، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذلك. ولهذا قال: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾، قال ابن عباس: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّ به عينه، ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾[1]. وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان، فإذا كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئًا. وروى الحافظ الطبراني عن ابن عباس أظنه عن النبي -ﷺ- قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبيه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد قال رسول الله -ﷺ-: «**إن الله ليرفعُ الدرجة**

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس موقوفًا، ورواه البزار عنه مرفوعًا.

للعبد الصالح فى الجنة فيقول: يا رب أنَّى لى هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»[1]. وعن أبى هريرة قال رسول الله -ﷺ-: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[2].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد فقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء أكان أبًا أو ابنًا، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر:٣٨-٤١]، وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أى يتعاطون فيها كأسًا أى من الخمر، قال الضحاك: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أى لا يتكلمون فيها بكلام لاغ، أى هذيان، ولا إثم، أى فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا، قال ابن عباس: اللغو الباطل، والتأثيم الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون. وقال قتادة: كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان، فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صداع الرأس ووجع البطن وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لاتحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانًا وفحشًا، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عنها لا ينزفون﴾، وقال ههنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم فى الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون فى حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال ابن كثير: إسناده صحيح.
(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة.

يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم فى الدنيا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى كنا فى الدار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أى فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ عن أنس قال: قال رسول الله -ﷺ-: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان فيجيء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا، فيتحدثان، فيتكيء هذا ويتكيء هذا فيتحدثان بما كان فى الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان تدرى أى يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا»**(١).

وعن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم، قيل للأعمش: فى الصلاة؟ قال: نعم(٢).

٤٩ـ الجن المؤمن يدخل الجنة:

قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦-٥٣].

قال عطاء الخراسانى: نزلت هذه الآية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فى أبى بكر الصديق. وقال عطية بن قيس: نزلت فى الذى قال: أحرقونى بالنار لعلى أضل الله، قال: تاب يومًا وليلة بعد أن تكلم بهذا، فقبل الله منه وأدخله الجنة(٣)

---

(١) أخرجه الحافظ البزار عن أنس وقال: لا نعرفه إلا بهذا الإسناد.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم.

(٣) رواه ابن أبى حاتم.

والصحيح أن هذه الآية عامة كما قال ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ بين يدى الله عز وجل يوم القيامة ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ [النازعات:٤٠]، ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخارى رحمه الله عن عبد الله بن قيس أن رسول الله -ﷺ- قال: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»(١). قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه فى قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وفى قوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ [الرحمن:٦٢] جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين، وقال عطاء بن يسار: أخبرني أبو الدرداء أن رسول الله -ﷺ- قرأ يومًا هذه الآية: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: «**وإن زنى وإن سرق؟ فقال:** ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ **فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن...رغم أنف أبى الدرداء»**(٢)، وهذه الآية عامة فى الإنس والجن وهى دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، لهذا امتنَّ الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴿٤٦﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذواتا أفنان﴾ أى أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ هكذا قال عطاء وجماعة: أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضًا، وقال عكرمة: ﴿ذواتا أفنان﴾ يقول: ظل الأغصان على الحيطان، ألم تسمع قول الشاعر:

ما هاج شوقُك من هديل حمامة تدعو على فَنَن الغُصون حماما

وعن ابن عباس: ﴿ذواتا أفنان﴾ ذواتا ألوان، ومعنى هذا القول أن فيهما فنونًا من الملاذ، واختاره ابن جرير، وقال عطاء: كل غصن يجمع فنونًا من الفاكهة، وقال الربيع بن أنس: ﴿ذواتا أفنان﴾ واسعتا الفناء، وكل هذه الأقوال

---

(١) أخرجه البخارى وبقية الجماعة إلا أبا داود.

(٢) رواه النسائى مرفوعًا وموقوفًا.

صحيـحة ولا منافاة بينهـا، والله أعلم. عن أسماء بنت أبى بكر قالت: سـمعت النبى ﷺ وذكر سدرة المنتهى فقال: «يسير فى ظل الفنن منها الراكب مائة سنة ـ أو قال يسـتظل فى ظل الفنن منها مـائة راكب ـ فيهـا فراش الذهب كـأن ثمرها القلال»(١). ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أى تسـرحان لسـقى تلك الأشجـار والأغصان، فتـثمر من جميع الألوان، قال الحـسن البصرى: إحداهما يقال لها تسنيم والأخرى السلسبيل. وقـال عطية: إحداهما من ماء غـير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أى من جميع أنواع الثمار، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال ابن عباس: ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة، وليس فى الدنيـا مما فى الآخـرة إلا الأسمـاء. يعنى أن بين ذلك بونًا عظيمًا وفرقًا بينًا فى التفاضل.

٥٠ ـ قاصرات الطرف للمقربين:

قال الله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٤ـ٦١].

يقـول تعـالى: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ يعنى أهـل الجنة، والمراد بالاتكـاء هاهنا الاضطجـاع، ويقـال: الجلوس على صفـة التـربيع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما غلظ من الديباج، وقيل: هوالديباج المزين بالذهب، فنبه على شرف الظهـارة بشرف البطانـة، فهذا من التنبـيه بالأدنى على الأعـلى. قال ابن مسعـود: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟ قال مـالك بن دينار: بطائنها من استـبرق وظواهرها من نور، وقـال الثورى: بطائنهـا من إستبـرق وظواهرها من الرحمة: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أى ثمرها قريب إليـهم متى شاءوا تناولوه على أى صفة كانوا، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣].

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه.

وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا﴾ [الإنسان:١٤]، أى لا تمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿فِيهِنَّ﴾ أى فى الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئًا فى الجنة أحسن من أزواجهن، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها، والله ما أرى فى الجنة شيئًا أحسن منك، ولا فى الجنة شيئًا أحب إلىَّ منك، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ أى بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضًا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة، سُئل ضمرة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم وينكحون للجن جنيات والإنس إنسيات، وذلك قوله ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم قال: ينعتهن للخطاب ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال مجاهد والحسن: فى صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان ههنا اللؤلؤ، عن عبد الله بن مسعود عن النبى -ﷺ- قال: «**إن المرأة من نساء الجنة ليُرى بياض ساقيها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يُرى مخها ذلك قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكًا ثم استصفيته لرأيته من ورائه**»[(١)]. عن أبى هريرة عن النبى -ﷺ- قال: «**للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب**»[(٢)]. وعن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء، فقال أبوهريرة: أو لم يقل أبو القاسم -ﷺ-: «**إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتى تليها على ضوء كوكب درى فى السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يُرى مخ ساقها من وراء اللحم وما فى الجنة أعزب**»[(٣)]، وروى الإمام أحمد

(١) رواه الترمذى مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح.
(٢) تفرَّد به الإمام أحمد.
(٣) الحديث مخرج فى الصحيحين.

عن أنس أن رسول الله -ﷺ- قال: «لَغدوةٌ فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيـها، ولَقاب قوس أحـدكم أو موضع قده ـ يعنى سوطه ـ من الجنـة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امـرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»(١).

وقوله تـعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ أى ليس لمن أحسن العمل فى الدنيا إلا الإحسان إليـه فى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، روى البغوى عن أنس بن مالك قال: «قرأ رسول الله -ﷺ-: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ وقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قـالوا: الله ورسوله أعلم، قـال: يقول: هل جـزاء من أنعـمت عليه بالتـوحيـد إلا الجنة؟»(٢) ولما كان فى الذى ذكر نعم عظيـمةلا يقاومها عمل، بل مـجرد تفضُّل وامتنان، قال بعد ذلك كله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟.

٥١ـ الحور العين لأصحاب اليمين:

قال الله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٦٢ـ٧٨].

هاتان الجنتان دون التى قـبلهما فى المرتبة والفضـيلة والمنزلة، بنصِّ القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.وقد تقـدم الحديث: «جنتان من ذهب آنيتـهما وما فـيهمـا، وجنتان من فضة آنيـتهمـا وما فيهـما». فالأوليان للـمقربين والأخريان لأصـحاب اليـمين، وقـال أبو موسى: جنتـان من ذهب للمقـربين،

(٤) أخرجه أحمد، ورواه البخارى بنحوه.

(٢) ذكره البغوى من حديث أنس بن مالك.

وجنتان من فضة لأصحاب اليمين، وقال ابن عباس: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ من دونهما فى الدرجة، وقـال ابن زيد: من دونهما فى الفضل: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أى سوداوان من شدة الرى من الماء. قـال ابن عباس: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ قد اسودتا من الخضـرة من شدة الرى من الماء، وعنه: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ قال: خضـروان، وقال محمد بن كعب: ممتلئتان من الخضـرة، وقال قتادة: خضروان من الرى ناعمتان، ولا شك فى نضارة الأغـصان على الأشجـار المشتبـكة بعضهـا فى بعض، وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقال ههنا: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ قال ابن عباس: أى فياضتان، والجـرى أقوى من النضخ، وقال الضحاك: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أى ممتلئتان ولا تنقطعان. وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ، وقال ههنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.، ولا شك أن الأول أعم وأكثـر فى الإفراد والتنويع على ﴿فَاكِهَةٌ﴾ وهى نكرة فى سـياق الإثبـات لا تعم، ولهذا ليس قـوله ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخارى وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكـر لشرفهـما على غيرهمـا، عن عمر بن الخطاب قـال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله -ﷺ- فقالوا: يا محمـد أفى الجنة فاكهة؟ قال: «**نعم فيها فاكهة، ونخل ورمان. قالوا: أفيأكلون كما يأكلون فى الدنيا؟ قال: نعم، وأضعاف. قالوا: فيقضون الحـوائج؟ قال: لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب ما فى بطونهم من أذى**»[1]، وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: «**نخل الجنة سعـفها كـسوة لأهل الجنة، منها مـقطعاتهم ومنهـا حللهم، وورقها ذهب أحـمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم**».

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله -ﷺ- قال: «**نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانهـا كالبعيـر المقتب**»[2]، ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كـثيرة حسنة فى الجنة قاله قـتادة. وقيل: ﴿خَيْرَاتٌ﴾ جمع خيرة وهى المرأة الصالحـة الحسنة الخلق الحـسنة الوجه، قاله الجـمهور، وفى الحـديث الآخر الذى سنورده فى سورة الواقعة إن شاء الله أن الحـور العين يغنين: «نحن الخيرات

---

(١) أخرجه عبد بن حميد فى مسنده.
(٢) أخرجهما ابن أبى حاتم.

الحسـان، خُلقن لأزواج كرام» ولهذا قرأ بعـضهم: ﴿فيهنّ خيّرات﴾ بالتشديد ﴿حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ وهناك قال: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ ولا شك أن التى قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصـرت، وإن كان الجميع مخدرات. قال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: إن لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ولكل خيمة أربعـة أبواب، تدخل عليه كل يوم تحـفة وكـرامة وهدية لم تكن قـبل ذلك، لا مرحات ولا طمحات ولا بخرات ولا زفرات، حور عين كأنها بيض مكنون.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ قال البخارى عن عبد الله بن قيس أن رسول الله -ﷺ- قال: «**إن فى الجنة خيمة من لـؤلؤة مجوفة عرضها سـتون ميلاً فى كل زاوية منهـا أهل ما يرون الآخـرين يطوف عليـهم المؤمنون**»، ورواه مسلم بلفظ: «**إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحـدة مجوفة طولهـا ستون ميـلاً للمؤمن فيهـا أهل يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضـهم بعضًا**». وقال ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء قال: «**لؤلؤة واحدة فيهـا سبعون بابًا من در**»[(١)]. وعن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ قال: خيام اللؤلؤ، وفى الجنة خيمة واحدة من لؤلوة واحدة أربع فراسخ فى أربع فراسخ عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب[(٢)]، وقال عـبد الله بن وهب عن أبى سعـيد عن النبى -ﷺ- قال: «**أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة، وتُنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء**»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد فى وصف الأوائل بقوله: ﴿كـأنهن اليـاقوتُ والمرجـان فـبأى آلاء ربِّكمـا تُكذبان﴾ وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس: الرفرف المحـابس، وكذا قال مجاهد وعكرمة هى المحـابس، وقال عاصم الجحـدرى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعنى الوسـائد، وهو قول الحـسن

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم.
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم.
(٣) أخرجه الترمذى فى سننه.

البصرى، وقال سعيد بن جـبير: الرفرف رياض الجنة. وقوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس والسـدى: العبقرى الزرابى. وقال سعيـد بن جبَير: هى عتاق يعنى جيـادها. وقال مجاهد: العبقرى الديباج. وسـئل الحسن البصرى عن قوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فقال: هى بسط أهل الجنة لا أبًا لكم فاطلبوها. وقال أبو العافيـة: العبقرى الطنافس المحملة إلى الرقة مـا هى. وقال القيسى: كل ثوب موشى عـند العرب عبـقرى. وعلى كل تقـدير فصـفة مرافق أهل الجـنتين الأوليـين أرفع وأعلى من هذه الصفـة، فإنه قد قـال هناك: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن وتمام الخـاتمة أنه قال بعـد الصفـات المتقـدمة: ﴿هل جزاء الإحسـان إلا الإحسـان﴾؟ فوصـف أهلها بالإحـسان وهو أعلى المراتب والنهـايات كمـا فى حديث جبريل لمـا سأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، فـهذه وجوه عديدة فى تفضيل الجنتين الأوليـين على هاتين الأخريتين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ أى هل هو أهل أن يُجل فلا يُعصى، وأن يكرم فيُعبد، ويُشكر فلا يُكفر، وأن يُذكر فلا يُنسى، وقال ابن عباس: ﴿ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ ذى العظمـة والكبرياء «أجلوا الله يغـفر لكم»[١]، وفى الحـديث الآخر: «ألظُّوا بيـا ذا الجلال الإكـرام».[٢] وفى رواية: ألظُّوا بذى الجلال والإكرام»[٣]. وقال الجوهرى: ألظَّ فلان بفلان إذا لزمه، وقول ابن مسعود: ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام، أى الزموا، يقال: الإلظاظ هوالإلحاح. وفى صحيح مسلـم عن عائشة قالت: «**كان رسول -ﷺ- ، إذا سلم لا يقعد - يعنى بعد الصـلاة - إلا بقدر ما يقول: اللهم أنت السلام ومنـك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[٤].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.
(٢) رواه الترمذى.
(٣) رواه النسائى وأحمد.
(٤) أخرجه مسلم وأصحاب السنن.

٥٢ ـ المقربون وأصحاب اليمين في جنات النعيم:

قال الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ٧-١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين يؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار، وطائفة سابقون بين يديه عز وجل، وهم أحظى وأقرب من أصحاب اليمين فهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء وهم أقل عددًا من أصحاب اليمين، لهذا قال تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم، في قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنه مقتصد ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله﴾ الآية، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه، قال ابن عباس: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ الآية. وقال يزيد الرقاشي سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ قال: أصنافًا ثلاثة وقال مجاهد: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هم الأنبياء عليهم السلام. وقال السدي: هم أهل عليين. وقال ابن سيرين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الذين صلوا إلى القبلتين. وقال الحسن وقتادة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أي من كل أمة. وقال الأوزاعي عن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ثم قال: أولهم رواحًا إلى المسجد، وأولهم خروجًا في سبيل الله.

وهذه الأقوال كلها صحيحة فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١]، فمن سابق فى هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وقال ابن أبى حاتم: قالت الملائكة: يا رب جعلت لبنى آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة، فقال: لا أفعل، فراجعوا ثلاثًا فقال: لا أجعل من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(١).

٥٣ـ نعيم المقربين:

قال الله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة:١٣-٢٦].

يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء السابقين المقرَّبين أنهم ﴿ثُلَّة﴾ أى جماعة من الأولين، وقليل من الآخرين. وقد اختلفوا فى المراد بقوله ﴿الأَوَّلِين﴾ و﴿الآخِرِين﴾ فقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية، وبالآخرين هذه الأمة. وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله -ﷺ-: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**»، ولم يحك غيره، ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: لما نزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ شق ذلك على أصحاب النبى -ﷺ- فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ من الأولين وثُلَّةٌ من الآخرين﴾ فقال النبى -ﷺ-: «**إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة، أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثانى**»(٢)، وهذا الذى

(١) رواه ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو موقوفًا.
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم والإمام أحمد.

اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو قول ضعيف، لأن هذه الأمة هى خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون فى غيـرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهـذه الأمة، والـظاهر أن المقربـين من هؤلاء أكثـر من سـائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثانى فى هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أى من صدر هذه الأمة، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ أى من هذه الأمة. قـال ابن أبى حاتم عن عبـد الله بن بكر المزنى، سمـعت الحسن أتى على هذه الآية ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فقال: أما السابقون فقد مضوا، ولكن اللهم اجـعلنا من أصحاب اليمـين، ثم قرأ الحسن: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ قال: ثلة ممن مضى من هذه الأمة، وعن محمـد بن سيرين أنه قال فى هذه الآية ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ قال: كانوا يقـولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة.

ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها فيـحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبـها، ولهذا ثبت فى الصحاح وغيرها من غـير وجه أن رسول الله -ﷺ- قال: «**خـير القـرون قرنى ثم الذين يلـونهم ثم الذين يلونهم**»[1] الحديث بتمامه. فأما الحديث الذى رواه الإمام أحـمد عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**مثل أمـتى مثل المـطر لا يُدرى أوله خيـرٌ أم آخره**»[2] فهـذا الحديث محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة فى إبلاغه كذلك هو محتاج إلى القائمـين به فى أواخرها، والفضل للمتـقدم، وكذلك الزرع هو محـتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثانى، ولكن العمدة الكبـرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكـد، فإنه لولاه ما نبت فى الأرض ولا تعلق أساسـه فيه، ولهذا قـال عليه السلام: «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة**»[3]، وفى لفظ: «**حتى يأتى أمر الله تعالى وهم كذلك**»،

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين.

والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله -ﷺ- أنه أخبر: أن فى هذه الأمة سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، وفى لفظ: «**مع كل ألف سبعون ألفًا**»، وفى آخر: «**مع كل واحد سبعون ألفًا**». وقد روى الحافظ الطبرانى عن أبى مالك قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**أما والذى نفسى بيده لَيُبْعَثَنَّ منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض تقول الملائكة: لما جاء مع محمد -ﷺ- أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام**»[1].

وقوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ**﴾ قال ابن عباس: أى مرمولة بالذهب يعنى منسوجة به[2]. وقال السدى: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت. وقال ابن جرير: ومنه يسمى وضين الناقة الذى تحت بطنها وهو فعيل بمعنى مفعول لأنه مضفور، وكذلك السرر فى الجنة مضفورة بالذهب واللآلىء.

وقوله تعالى: ﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ**﴾ أى وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد، ﴿**يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ**﴾ أى مخلدون على صفة واحدة لا يشيبون ولا يتغيرون، ﴿**بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ**﴾ أما الأكواب فهى الكيزان التى لا خراطيم لها ولا آذان، والأباريق التى جمعت الوصفين، والكئوس الهنابات والجميع من خمر من عيون جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة.

وقوله تعالى: ﴿**لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ**﴾ أى لا تصدع رءوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الخالصة، وروى ابن عباس أنه قال: فى الخمر أربع خصال: «السكر، والصداع، والقىء، والبول» فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال، وقال مجاهد وعكرمة: ﴿**لَا يُصَدَّعُونَ**

---

(١) أخرجه الحافظ الطبرانى.

(٢) وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك.

عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس. وقالوا في قوله ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي لاتذهب بعقولهم، وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها، روى الطبراني عن ثوبان قال: قال رسول الله -ﷺ- «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ عن أنس قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إن طير الجنة كأمثال البُخت يرعى في شجر الجنة. فقال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة، فقال: آكلها أنعم منها ـ قالها ثلاثًا، وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها»(٢). وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وذكر لنا أن أبا بكر قال: يا رسول الله، إني لأرى طيرها ناعمًا كأهلها ناعمون، قال: «ومن يأكلها والله يا أبا بكر أنعم منها وإنها لأمثال البخت وإني لأحتسب على الله أن تأكل منها يا أبا بكر»، وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أن رسول الله -ﷺ- سُئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر، فقال عمر: إنها لناعمة؟ قال رسول الله -ﷺ-: آكلها أنعم منها»(٣). وعن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله-ﷺ-: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويًا»(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ بالرفع وتقديره: ولهم فيها حور عين. وقوله تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه كما تقدم، ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

---

(١) أخرجه الحافظ الطبراني.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا، ورواه الترمذي.
(٤) رواه ابن أبي حاتم.

٥٤ـ نعيم أصحاب اليمين:

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٢٧ـ٤٠].

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار، كما قال ميمون بن مهران: أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أى: ما حالهم وكيف مآلهم؟ ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ قال ابن عباس وعكرمة: هو الذى لا شوك فيه. وعن ابن عباس: هو الموقر بالثمر. وقال قتادة: كنا نُحدَّث أنه الموقر الذى لا شوك فيه. والظاهر أن المراد هذا وهذا، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفى الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذى قد أُثقل أصله، كما روى الحافظ أبو بكر النجار عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله -ﷺ- يقولون إن الله لَينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابى يومًا فقال: يا رسول الله، ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها، فقال رسول الله -ﷺ-: **«وما هي؟ قال السدر، فإن له شوكًا مؤذيًا، فقال رسول الله -ﷺ-: أليس الله تعالى يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمرًا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعام ما فيها لون يشبه الآخر»**.

وقوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح: شجر عظام يكون بأرض الحجاز من شجر العضاه، واحدته طلحة، وهو شجر كثير الشوك، وأنشد ابن جرير لبعض الحداة:

بَشَّرها دليلُها وقالا ... غدًا ترينَ الطَّلحَ والجبالا

قال مجاهد: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أى متراكم الثمر، يذكر بذلك قريشًا لأنهم كانوا

يعضون منه وظلاله من طـلـح وسدر، قال ابن عباس: يشبـه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل. قال الجوهرى: والطلح لغة فى الطلع، (قلت): وقد روى أن عليًّا يقول هذا الحرف في ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال: طلع منضـود، فعلى هذا يكون من صـفة السدر، فكأنه وصـفه بأنه مـخضود وهـوالذى لا شوك له، وأن طلعه منضـود، وهو كثرة ثمره والله أعلم. وعن أبى سـعيد ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قـال: الموز، وأهل اليمن يسـمـون الموز الطلح، ولم يَحْكِ ابن جـرير غيـر هذا القول. وقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ روى البخارى عن أبى هريرة يبلغ به عن النبى -ﷺ- قال: «**إن فى الجنة شـجـرة يسيـر الراكب فى ظلهـا مـائة عـام لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**»[١]. وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قـال رسول الله -ﷺ-: «**إن فى الجنة شـجرة يسيـر الراكب فى ظلهـا مائة عام، اقرأوا إن شـئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**»[٢]. وقد أخـرج البخـارى ومسلم من حديث أبى سـعيد وسـهل بن سعـد عن رسول الله -ﷺ- قال: «**إن فى الجنة شجـرة يسير الراكـب الجواد المضمـر السريع مائة عـام ما يقطعـها**»[٣]. فهذا حديث ثابت عن رسول الله -ﷺ- بل متواتر مقطوع بصـحته عند أئمة الحديث النقاد لتعدد طرقـه وقوة أسانيده وثقة رجاله، وقـال الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسـول الله -ﷺ-: «**مـا فى الجنة شـجـرة إلا ساقـهـا من ذهب**»[٤]. وقال الضحاك والسـدى فى قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ لاينقطع ليس فيـها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود: الجنة سَجْسَج[٥] كما بين طلوع الفجـر إلى طلوع الشمس، وقد تـقدمت الآيات كقـوله تعالى: ﴿**وندخلهم ظلاً ظليلاً**﴾، وقوله: ﴿**أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها**﴾، وقوله: ﴿**فى ظلالٍ وعيون**﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) أخرجه أحمد، ورواه الشيخان.
(٣) رواه الشيخان.
(٤) أخرجه الترمذى وقال: حسن غريب.
(٥) سَجْسَج: أى لا حر ولا برد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ قال الثورى: يجرى فى غير أخدود. وقد تقدم الكلام عند تفسيرقوله تعالى: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ أى وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة:٢٥]، أى يشبه الشكل الشكل ولكن الطعم غير الطعم. وفى الصحيحين فى ذكر سدرة المنتهى: «**فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر**»، وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر قال: «**بينا نحن فى صلاة الظهر إذ تقدَّم رسول الله -ﷺ- فتقدَّمنا معه، ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أُبيٌّ بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم فى الصلاة شيئًا ما كنت تصنعه؟ قال: إنه عُرضت عليَّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به فحيل بينى وبينه، ولو آتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقص منه**»(١).

وقوله تعالى: ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ أى لا تنقطع شتاء ولا صيفًا، بل أكلها دائم مستمر أبدًا، مهما طلبوا وجدوا لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء. وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد، وقد تقدم فى الحديث: «**إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخري**».

وقوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أى عالية وطيئة ناعمة، روى النسائى عن أبى سعيد عن النبى -ﷺ- فى قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: «**ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام**»(٢)، وعن الحسن ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة(٣)،

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى، وأخرجه مسلم بنحوه.

(٢) أخرجه النسائى والترمذى وقال: حسن غريب.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى موقوفًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ لما دل السياق وهو ذكـر الفراش على النساء اللاتى يُضاجَعن فـيها اكتفى بذلك عن ذكرهن وعاد الضمـير عليهن، قال الأخفش فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبل ذلك، وقال أبو عبـيدة ذكرن فى قـوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ ، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أى أعددناهن فى النشأة الأولى بعد ما كنَّ عجائز رمصًا صرنَ﴿أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا﴾ أى بعد الثيوبة عُدن أبكارًا عربًا متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحـة، وقال بعضهم: ﴿عُرُبًا﴾ أى غنجات، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -ﷺ- : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ قال: «**نساء عجائز كن فى الدنيا عمـشًا رمصًا**»(١). وعن سلمة بن يزيد قال: «**سمعت رسول الله -ﷺ- يقول فى قـوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ يعنى الثيب والأبكار اللاتى كن فى الدنيا**». وقال عبد بن حميد قال: «**أتت عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يدخلنى الجنـة فقال: أم فلان إن الجنة لا تدخلـها عجوز. قـال: فولَّت تبكي، قـال: أخبـروها أنهـا لا تدخلها وهى عـجـوز، إن الله تعالى يقـول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾** »(٢).

وعن أم سلمـة قالت: «**قلت: يارسـول الله، أخـبرنى عن قـول الله تعـالي: ﴿حُورٌ عِينٌ﴾ قـال: حور بيض، عين ضـخام العـيون، شـفر الحـوراء بمنزلة جناح النسر. قلت: أخـبرنى عن قـوله تعالي:﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ قال: صفاؤهن صفاء الدر الذى فى الأصداف الذى لم تمسه الأيدي. قلت: أخبرنى عن قوله :﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قال: خيـرات الأخلاق حسان الوجوه. قلت: أخـبرنى عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ قال: رقتـهن كرقة الجلد الذى رأيت فى داخل البـيضة مما يلى القشـر وهو الغرقيء. قلت: يا رسول الله، أخبـرنى عن قوله:﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ قال: هن اللواتى قُبضـن فى الدار الدنيا عجائز رمصًا شمطًا خلـقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عُرُبًا متعشقـات محببات أترابًا على ميلاد واحد. قلت: يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قـال: بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين**

---

(١) أخرجه الترمذى وابن أبى حاتم، وقال الترمذى: غريب.

(٢) أخرجه الترمذى فى الشمائل عن عبد بن حميد.

كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يا رسـول الله، وبم ذاك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل، ألبس الله وجوههن النور، وأجسادهن الحرير، وبيض الألوان، خضر الثياب، صفر الحلي، مجامرهن الدر، أمشاطهن الذهب، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت أبدًا، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدًا، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدًا، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا، طوبى لمن كنا له وكان لنا. قلت: يا رسول الله، المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت وتدخل الجنة ويدخلون معها، من يكون زوجها؟ قال: يا أم سلمة، إنها تُخيَّر فتختار أحسنهم خلقًا، فتقول يا رب إن هذا كان أحسن خلقًا معى فزوجنيه، يا أم سلمة ذهب حُسن الخلُق بخير الدنيا والآخرة»[١].

وفى الحديث: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عُدن أبكارًا»[٢]، وعن أبى هريرة قال: «قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا فى الجنة؟ قال: إن الرجل لَيصل فى اليوم إلى مائة عذراء»[٣].

وقوله تعالى: ﴿عُرُبًا﴾ قال ابن عباس: يعنى متحببات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة هى كذلك، وقال الضحاك عنه: العرب العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون، وقال عكرمة: سُئل ابن عباس عن قوله ﴿عُرُبًا﴾ قال: هى الملقة لزوجها. وقال عكرمة: هى الغنجة، وعنه: هى الشكلة، وقال عبد الله بن بريدة فى قوله ﴿عُرُبًا﴾ قال: الشكلة بلغة أهل مكة والغنجة بلغة أهل المدينة، وقال تميم بن حذلم: هى حسن التبعل. وقوله ﴿أَتْرَابًا﴾ قال ابن عباس: يعنى فى سن واحد وثلاثين سنة، وقال مجاهد: الأتراب: المستويات، وفى رواية عنه: الأمثال، وقال عطية: الأقران. وقال السدى: ﴿أَتْرَابًا﴾ أى فى الأخلاق المتواخيات بينهن، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد، يعنى لا كما كنَّ ضرائر متعاديات، وقال ابن أبى حاتم عن الحسن ومحمد ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ قال: المستويات الأسنان يأتلفن جميعًا ويلعبن جميعًا، وقد روى الترمذى

(١) رواه أبو القاسم الطبرانى.
(٢) أخرجه الطبرانى من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعًا.
(٣) رواه الطبرانى وقال الحافظ المقدسى: وهو على شرط الصحيح.

عن على ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله -ﷺ- : «إن فى الجنة لمجتمعًا للحور العين يرفعن أصواتًا لم تسمع الخلائق بمثلها ـ قال ـ يقلن نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس،ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له»(١) وعن أنس أن رسول الله-ﷺ- قال: «إن الحور العين ليُغنين فى الجنة يقلن: نحن خيرات حسان، خبئنا لأزواج كرام»(٢).

وقوله تعالى: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أى خُلقن لأصحاب اليمين، أو زُوِّجْنَ لأصحاب اليمين والأظهر أنه متعلق بقوله ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ فتقديره أنشأناهن لأصحاب اليمين، وهذا توجيه ابن جرير، قلت: ويحتمل أن يكون قوله ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلقًا بما قبله وهو قوله: ﴿أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أى فى أسنانهم، كما جاء فى الحديث عن أبى هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ- : «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى فى السماء إضاءة، ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، وريحهم المسك ومجامرهم الألُوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا فى السماء»(٣)، وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ- : «يدخل أهل الجنة جردًا مردًا بيضًا جعادًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خَلْقِ آدم ستون ذراعًا فى سبعة أذرع»(٤)، وروى ابن وهب عن أبى سعيد قال: قال رسول الله -ﷺ- : «من مات من أهل الدنيا من صغير أو كبير يردون بنى ثلاث وثلاثين فى الجنة لا يزيدون عليها أبدًا وكذلك أهل النار»، وروى ابن أبى الدنيا عن أنس قال: قال رسول الله -ﷺ- : «يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعًا بذراع الملك، على حُسن يوسف. وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد، جرد مرد مكحلين». وقال

(١) أخرجه الترمذى وقال: حديث غريب.

(٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى.

(٣) رواه الشيخان.

(٤) أخرجه الطبرانى، ورواه الترمذى بنحوه.

أبو بكر بن أبى داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -ﷺ-: «يُبعث أهل الجنة على صورة آدم فى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين جرداً مرداً مكحلين، ثم يُذهب بهم إلى شجرة الجنة فيُكسون منها لا تبلى ثيابهم ولايفنى شبابهم»، وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾أى جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله -ﷺ-: «هما جميعًا من أمتي» أخرجه ابن جرير.

٥٥ـ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[الحديد:١٢].

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط. منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره إبهامه يتقد مرة ويُطفأ مرة(١). وقال الضحاك: ليس أحد إلا يُعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفىء نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يُطفأ نورهم كما طُفىء نور المنافقين فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا، وقال الحسن: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾يعنى الصراط. وقد روى ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء عن النبى -ﷺ- قال: «أنا أول من يُؤْذَنُ له يوم القيامة بالسجود، وأول من يُؤذن له برفع رأسه، فأنظر من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالي فأعرف أمتى من بين الأمم. فقال له رجل: يا نبى الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ فقال: أعرفهم، محجلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم، وأعرفهم يُؤْتَوْنَ كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»(٢)، وقوله: ﴿وَبِأَيْمَانِهِم﴾ قال

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وابن جرير.
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم.

الضحاك: أى يقال لهم: بشراكم اليـوم جنات، أى لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنهار ﴿ خالدين فيها ﴾ أى ماكثين فيها أبدًا ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

٥٦ـ توبوا إلى الله:

قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ [التحريم:٨].

قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ﴾ أى توبة صادقة جازمة تمحـو ما قبلها من السيئات، وتلمّ شعث التائب وتجمـعه وتكفه عما كان يـتعاطـاه من الدناءات، قال عـمر: التـوبة النصوح أن يتـوب من الذنب ثم لايعود فـيه أو لا يريد أن يعود فـيه. وقال أبو الأحـوص: سُئل عمـر عن التوبة النصوح فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيىء ثم لا يعود إليه أبدًا. وقال ابن مسـعود ﴿ توبة نصوحا ﴾ قال: يتـوب ثم لا يعود. ولهذا قال العلمـاء: التوبة النصـوح هـو أن يقلع عن الذنب فى الحـاضـر، ويندم على مـا سـلف منه فى الماضى، ويعـزم على ألا يفـعل فى المستـقـبل، ثم إن كان الحق لآدمى ردَّه إليـه بطريقه. وفى الحديث الصحيح: «**الندم توبة**»[1].

وعن أبيٍّ بن كـعب قال: قـيل لنا أشـياء تكـون فى آخر هذه الأمـة عند اقتراب الساعة، منهـا: نكاح الرجل امرأته أو أمته فى دبرها، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسـوله، ومنها: نكاح الرجل الرجل، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمـقت الله عليه ورسوله، ومنهـا: نكاح المرأة المرأة، وذلك مما حرم الله ورسوله، ويمقت الله عليـه ورسوله، وليس لهؤلاء صلاة مـا أقاموا على هذا حتى يتـوبوا إلى الله توبة نصوحًـا. قال زر: فقلت: لأبيٍّ بن كـعب: فمـا التوبة النصوح؟ فقال: سألت رسول الله -ﷺ- عن ذلك فقال: «**هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبدًا**»[2].

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن: التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته. فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجبُّ ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت فى الصحيح: «**الإسلام يجبُّ ماقبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها**».

وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات ـ كما تقدم فى الحديث وفى الأثر ـ ثم لا يعود فيه أبداً، ويكفى العزم على ألا يعود فى تكفير الماضى بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً فى تكفير ما تقدم لعموم قوله -ﷺ-: «**التوبة تجبُّ ما قبلها**»؟ وللأول أن يحتج بما ثبت فى الصحيح أيضًا: «**من أحسن فى الإسلام لم يُؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام أُخذ بالأول والآخر**»، فإذا كان هذا فى الإسلام الذى هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ وعسى من الله موجبة ﴿**يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾ أى ولا يخزيهم معه يعنى يوم القيامة ﴿**نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ**﴾ كما تقدم فى سورة الحديد: ﴿**يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ قال مجاهد والضحاك: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفىء. روى الإمام أحمد عن يحيى بن غسان عن رجل من بنى كنانة قال: صلَّيت خلف رسول الله -ﷺ- عام الفتح فسمعته يقول: «**اللهم لا تخزنى يوم القيامة**» رواه الإمام أحمد.

٥٧ـ آسية زوجة فرعون ومريم ابنة عمران من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة:

قال الله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾ [التحريم: ١١، ١٢].

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما أضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه، وروى ابن جرير عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذَّب فى الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها فى الجنة، فقولها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك من عمله، ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهذه المرأة هى (آسية بنت مزاحم -رضي الله عنها-) عذَّبها فرعون فشدَّ يديها ورجليها بالأوتاد وهى صابرة، فرأت بيتها فى الجنة فضحكت حين رأته، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها، إنا نعذِّبها وهى تضحك، فقبض الله روحها فى الجنة -رضي الله عنها-.

وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أى حفظته وصانته، والإحصان هو العفاف والحرية ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أى بواسطة الملَك وهو(جبريل) فإن الله بعثه إليها فتمثل لها فى صورة بشر سوى، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه فى جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت فى فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، لهذا قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ أى: بقدره وشرعه ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى -ﷺ- قال: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» رواه الشيخان.

[**فائدة**]: ذكر ابن كثير أيضًا رحمه الله فى تفسير قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾: وعد الله نبيه -ﷺ- فى هذه الآية أن يزوجه، فالثيب آسية امرأة فرعون، وبالأبكار مريم ابنة عمران[1]].

(١) رواه الحافظ الطبرانى فى المعجم الكبير، كما قال ابن كثير رحمه الله، مختصر تفسير ابن كثير للصابونى، جـ٣ص٥٥٢.

٥٨- لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز:

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أى خذوا اقرأوا كتابيه لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة لأنه ممن يدل الله سيئاته حسنات، وعن عبد الله بن عبد الله بن حنظلة (غسيل الملائكة) قال: إن الله يُوقف عبده يوم القيامة، فيبدى: أى يُظهر سيئاته فى ظهر صحيفته، فيقول له: أنت عملت هذا، فيقول: نعم أى رب، فيقول له: إنى لم أفضحك به وإنى قد غفرت لك، فيقول عند ذلك: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ حين نجا من فضيحته يوم القيامة[1]. وقد تقدم فى الصحيح حديث ابن عمر حين سُئل عن النجوى فقال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «**يُدنى الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالي: إنى سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يُعطَى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**».

وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أى قد كنت موقنًا فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾، قال تعالى: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أى مرضية، ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى رفيع قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها. وروى ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال: سأل رجل رسول الله -ﷺ- : هل يتزاور أهل الجنة؟ قال: «**نعم، إنه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى فيحيونهم ويسلّمون عليهم،**

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم.

ولا يستطيع أهل الدرجـة السفلى أن يصعـدوا إلى عليين تَقْصُرُ بهم أعـمالهم»(١) وقد ثبت فى الصحيح: «**إن الجنة مائة درجـة ما بين كل درجتين كما بـين السماء والأرض**».

وقوله تعالى: ﴿**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴾ قال البراء بن عازب: أى قـريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره، وكذا قال غـير واحد. وروى الطبرانى عن سلمان الفارسى قـال: قال رسول الله -ﷺ-: «**لايدخل أحد الجنـة إلا بجواز: بسم الله الرحـمن الرحيم، هذا كـتاب من الله لفـلان بن فـلان أدخلوه جنة عاليـة قطوفهـا دانيـة**»(٢). وفى رواية: «**يُعطى المـؤمن جـوازًا على الـصـراط: بسم الله الرحـــمن الرحـيم هذا كـتـاب من الله العـزيز الحكيم لفـلان، أدخلوه جنة عـاليـة قطوفـهـا دانية**»(٣).

وقوله تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ أى يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتنانًا وإنعامًـا وإحسانا، وإلا فقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «**اعملوا وسددوا وقـاربوا، واعلموا أن أحدًا منكم لن يُدخله عمله الجنة، قـالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغـمدنى الله برحمة منه وفضل**».

٥٩ ـ فى الجنة شراب الكافور من العزيز الغفور:

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا**﴾ [الإنسان: ٥، ٦].

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا**﴾ وقد عُلم ما فى الكافور من التبريد والرائحـة الطيبة، مع ما يُضاف إلى ذلك من اللذاذة فى الجنة، قال الحسن: برد الكافور فى طيب الزنجبيل. ولهذا قال: ﴿**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا**﴾ أى هذا الذى مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو

---

(١) رواه ابن أبى حاتم.
(٢) رواه الطبرانى.
(٣) أخرجه الضياء فى صفة الجنة.

عين يشرب بها المقـربون من عباد الله صرفًا بلا مزج ويروون بهـا، قال بعضهم: هذا الشراب في طيبه كالكافور، وقال بعضهم: هو من عين كافور، وقوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يتصرفون فيها حـيث شاءوا وأينما شاءوا من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم، والتفجير هو الانباع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، وقال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]، وقال مجاهد: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يقودونها حيث شاءوا. وقال الثورى: يصرفونها حيث شاءوا.

٦٠ـ الجنة ليس فيها حر مزعج ولا برد مؤلم:

قال الله تعـالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ١٣-٢٢].

يخبر تعالـى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، ومـا أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الصـافات، وأن الأرائك هي السرر تحت الحجال، وقـوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أى ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أى: قريبة إليهم أغصانها، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أى متى تعاطاه دنا القطف إليه، تدلى من أعلى غصنـه كأن سامع طائع، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ قال مجاهد: إن قام ارتفعت معه بقدر، وإن قعد تذللت له حـتى ينالهـا، وإن اضطجع تـذللت له حـتى ينالهـا، فـذلك قـوله تعـالى: ﴿تَذْلِيلًا﴾ وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد. وقوله جلت عظمته:

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى يطوف عليهم الخدم بأوانى الطعام وهى من فضة وأكواب الشراب وهى التى لا عرى لها ولا خراطيم، وقوله ﴿ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ فالأول منصوب بخبر كان، أى كانت قوارير، والثانى منصوب إما على البدلية أو على أنه تمييز، قال ابن عباس : بياض الفضة فى صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هى من فضة، وهى مع هذا شفافة يرى ما فى باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له فى الدنيا، قال ابن عباس: ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة.

وقوله تعالى: ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أى على قدر ريهم لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هى مُعدَّة لذلك مقدَّرة بحسب رِيِّ صاحبها، وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة، وقال ابن عباس: ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ قُدِّرت للكفِّ، وقال الضحاك: على قدر كف الخادم، وهذا لا ينافى القول الأول، فإنها مقدرة فى القدر والرِّىِّ.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ أى ويسقون ـ يعنى الأبرار أيضًا ـ فى هذه الأكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أى خمرًا ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر، وهؤلاء يُمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفًا كما قاله قتادة: وغير واحد. وقد تقدم قول الله جل وعلا: ﴿ عينا يشرب بها عباد الله ﴾ ،قال ههنا: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ أى الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلاً. وقال عكرمة: اسم عين فى الجنة. وقال مجاهد: سُمِّيت بذلك لسلاسة مسيلها وحدة جريها.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أى على حالة واحدة، مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السنِّ. وقوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى إذا رأيتهم فى صباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ﴿ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ ولا

يكون فى التشبيه أحسن من هذا، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن. قال قتادة: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ما عليه صاحبه، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ وإذا رأيت يا محمد ﴿ثَمَّ﴾ أى: هناك يعنى فى الجنة، ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور ﴿رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أى مملكة لله هناك عظيمة، وسلطانًا باهرًا، وثبت فى الصحيح: أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: «**إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها**». وفى الحديث عن ابن عمر مرفوعًا: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه**» فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون فى الجنة، فما ظنك بمن هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى؟.

وقوله جل جلاله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أى لباس أهل الجنة فيها الحرير (السندس) وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم و(الإستبرق) وهو ما فيه بريق ولمعان وهو ما يلى الظاهر، كما هو المعهود فى اللباس، ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أى طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، كما روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما أُلهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما فى بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أى يقال لهم ذلك تكريمًا لهم وإحسانًا إليهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أى جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير.

٦١ـ دار السلام:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١ـ٣٦].

يقول تعالى مخبرًا عن السعداء وما أعد الله تعالى لهم من الكرامة والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابن عباس: متنزهًا. وقال مجاهد: فازوا فنجوا من النار، والأظهر ههنا قول ابن عباس، لأنه قال بعده: ﴿حَدَائِقَ﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها، ﴿وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أى: وحورًا كواعب. قال ابن عباس ومجاهد: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أى نواهد، يعنون أن ثُدِيُّهُنَّ نواهد لم يتدلين، لأنهن أبكار (عرب أتراب) أى فى سن واحد، كما تقدم بيانه فى سورة الواقعة.

روى ابن أبى حاتم عن ابن أبى القاسم الدمشقى عن أبى أمامة عن النبى - ﷺ - أنه قال: «**إن قمص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله، وإن السحابة لتمرّ بهم فتناديهم: يا أهل الجنة ماذا تريدون أن أمطركم؟ حتى إنها لتمطرهم الكواعب الأتراب**»(١)، وقوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة، وقال عكرمة: صافية، وقال مجاهد والحسن: ﴿دِهَاقًا﴾ الملأى المترعة، وقال سعيد بن جبير: هى المتابعة، وقوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾ كقوله: ﴿لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ أى ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ولا إثم كذب بل هى دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص. وقوله: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أى هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به بفضله ومنّه وإحسانه: ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أى كافيًا وافيًا سالمًا كثيرًا، ومنه حسبى الله، أى الله كافىّ.

٦٢ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون:

قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الأَرَائِكِ

---

(١) رواه ابن أبى حاتم.

يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨-٢٨].

يقول تعالى: حقًا إن كتاب الأبرار ـ وهم بخلاف الفجار ـ ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أى مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين، روى الأعمش عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعبًا ـ وأنا حاضر ـ عن سجين، قال: هى الأرض السابعة وفيها أرواح الكفار وسأله عن عليين، فقال: هى السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين(١). وقال ابن عباس: ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ يعنى الجنة وفى رواية عنه: أعمالهم فى السماء عند الله، وقال قتادة: عليون ساق العرش اليمنى، وقال غيره: عليون عند سدرة المنتهى. والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشىء وارتفع عظم واتسع، ولهذا قال تعالى معظمًا أمره ومفخمًا شأنه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؟.

ثم قال تعالى مؤكدًا لما كتب لهم: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وهم الملائكة. قاله قتادة، وقال ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أى يوم القيامة هم فى نعيم مقيم وجنات فيها فضل عميم ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وهى السرر تحت الحجال ﴿يَنظُرُونَ﴾ قيل: معناه ينظرون فى ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذى لاينقضى ولايبيد. وقيل معناه: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ إلى الله عز وجل، كما تقدم فى حديث ابن عمر: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمَنْ ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله عز وجل فى اليوم مرتين**».

وقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أى تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أى صفة الترافة والسرور والدعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم.

---

(١) وهكذا قال غير واحد من السلف إنها السماء السابعة.

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أى يُسقون من خمر من الجنة، والرحيق من أسماء الخمر(١).

وفى الحديث: «أيما مؤمن سقى مؤمنًا شربة ماء على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامةمن الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمنًا كسا مؤمنًا ثوبًا على عُرى كساه الله من خضر الجنة»(٢).

وقال ابن مسعود فى قوله: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أى خلطه مسك، وقال ابن عباس: طيَّب الله لهم الخمر، فكان آخر شىء جُعل فيها مسك ختم بمسك، وقال الحسن: عاقبته مسك، وقال ابن جرير عن أبى الدرداء ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ قال: شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل إصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها(٣). وقال مجاهد: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ طيبه مسك.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أى وفى مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى وليستبق إلى مثله المستبقون، كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أى مزاج هذا الرحيق الموصوف ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ أى من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أى يشرب المقربون صرفًا وتُمزج لأصحاب اليمين مزجًا(٤).

٦٣ـ أهل الجنة تعرف فى وجوههم نضرة النعيم:

قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ـ١٦].

(١) وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة.
(٢) أخرجه أحمد عن أبى سعيد الخدرى مرفوعًا.
(٣، ٤) أخرجه ابن جرير.

لما ذكر حال الأشـقياء ثنَّى بذكر السعـداء فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أى يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أى يُعرف النعيم فيها، وإنما حصل لها ذلك بسعيها ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ قد رضيت عملها.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أى رفيعة بهـية فى الغرفات آمنون، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أى لا تسمع فى الجنة التى هم فيه كلمة لغو، كما قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ وقال تعالى: ﴿لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ﴾ ، ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أى سارحة، وليس المراد بها عينًا واحـدة وإنما هذا جنس يعنى فيها عيون جاريات. وعن أبـى هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**أنهار الجنة تفجر من تحت تلال ـ أو من تحت جبال ـ المسك**»(١)، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أى عالية ناعمـة كثيرة الفـرش مرتفعة السـمك، عليها الحور العـين، فإذا أراد ولىٌّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ يعنى أوانى الشرب معدَّة مرصدة لمن أرادها، ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ قال ابن عباس: النمارق الوسائد(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ قال ابن عباس: الزرابى البسط، ومعنى مبثوثة: أى ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها. عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**ألا هل من مشـمر للجنة فـإن الجنة لا خطر لها، هى ورب الكعـبة نور يتلألأ، وريحـانة تهتـز، وقصر مـشيـد، ونهر مطرد، وثمرة نضـيجـة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام فى أبد فى دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعـمـة، فى مـحلة عـاليـة بهيـة، قـالوا: نعم يارسـول الله نحن المشـمـرون لهـا، قال: قولوا: إن شاء الله. قال: قال القوم: إن شاء الله**»(٣).

٦٤ـ آخر آية في القرآن تتكلم عن الجنة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

---

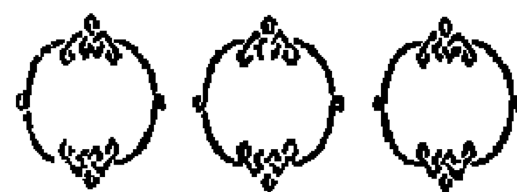
(١) أخرجه ابن أبى حاتم.

(٢) وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدى وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

روى مسلم عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: بينا رسول الله -ﷺ- بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسمًا، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**لقد أنزلت عليّ آنفًا سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم في السماء، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك**» أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي. . . إلى أن قال رحمه الله:

وقال البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في الكوثر: هو الخير الذى أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن أناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال: سعيد: النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر الخير الكثير. وهذا التفسير يعم النهر وغيره، لأن الكوثر من الكثرة وهو الخيرالكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة. وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً، فقال ابن جرير عن ابن عباس قال: الكوثر نهر فى الجنة حافتاه ذهب وفضة يجرى على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل.



خاتمة

اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم.

لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لاإله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير. لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام. يا رب، يا رب، يا رب.

يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من يؤاخذ بالجريرة[١] ولا يهتك الستر، يا حسن التجاوز، يا واسع المغفرة، يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كل نجوى، يا منتهى كل شكوى، يا كريم الصفح، يا عظيم المنّ، يا مبتدىء النعم قبل استحقاقها، يا ربنا ويا سيدنا ويا مولانا وغاية رغبتنا، نسألك يا الله ألا تشوى خَلْقَنا بالنار.

ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصل اللهم على محمد وآله وصحبه وسلم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

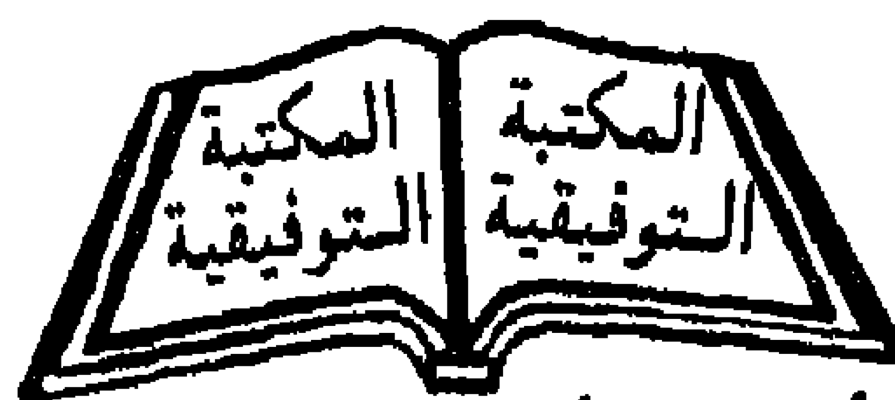
أبو ذر القلمونى

---

(١) الجريرة: هى الذنب الكائن بسبب من الأسباب التى يتسبب بها إلى الذنوب (كذا فى تحفة الذاكرين).

فهرس الكتاب

الباب الثالث: الجنة



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠